كتاب الهلال

عصاميون عظماء
من الشرق والغرب

بأقلام
نخبة من كبار الكتاب

أشرف عليه
محمد فريد أبو حديد

العدد
٣٥

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٣٥ - جمادى الاولى ١٣٧٣ - فبراير ١٩٥٤

No. 35 — February 1954

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال - بوستة مصر العمومية - مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) - مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا - سوريا ولبنان ١٫٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا - الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش صاغ - فى الامريكتين ٥ دولارات - فى سائر انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

عصاميون عظماء
من الشرق والغرب

بأقلام

نخبة من كبار الكتاب

أشرف عليه

محمد فريد أبو حديد

ترجم الجزء الثانى من هذا الكتاب عن كتاب

Lives Of Poor Boys Who Became Famous

تأليف : ساره بولتون

SARAH K. BOLTON

وقد حصلت دارالهلال على حق نشره وحدها باتفاق خاص
مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر (القاهرة ــ نيويورك)

مقدمة

بقلم الاستاذ محمد فريد أبو حديد

الحياة منذ الأبد فسيحة للذين يبصرون آفاقها ، والارض منذ القدم غنية للذين يستطيعون ان يستخرجوا خيراتها ، ولم يأت جيل من البشر الى هذه الدنيا الا ليجد فرصة تنتظره فى ميادين النشاط التى لا يمكن ان تخمد ما بقيت الحياة الانسانية

والحياة على قدمها تتجدد دائما لكل جيل من الأجيال المتعاقبة ، والآفاق المشرقة تتجلى دائما لكل من يريد أن يرتاد مطالعها ، ما دامت نفوس الناس وطبائعهم تحتفظ بالجذوة التى وهبها الله للجديرين بالحياة

وقد كانت الحياة من ناحية اخرى تضيق منذ الأزل بالذين لم يستطيعوا ان يبصروا ، وكانت تضن بخيراتها ونعمها المادية والمعنوية على الذين لم يستطيعوا ان يؤدوا أدوارهم كما يؤديها الجديرون بالحياة . كانت الحياة دائما مجدبة خاوية أمام الأجيال التى لم ترسم لنفسها غاية تحرص على الحياة من أجلها

فالنجاح والخذلان والمقدرة والعجز تسير جنبا الى جنب منذ بدء الحياة ، والفرق بين حالى السمو والاسفاف ينشأ من قلوب الناس انفسهم ، لأنهم هم الذين يصنعون

مصائرهم بايديهم عندما يختارون طريقهم فى الحياة ويحددون لانفسهم غايتها ووسائلها

الحياة الانسانية مغامرة متجددة فى كل عصر ، لانها تعرض على الأحياء فى كل جيل انماطا شتى من الآمال والدوافع والفرص ، وتدع الناس يختارون لأنفسهم ما يشاءون منها ، ويتحملون عواقب اختيارهم بغير هوادة او تسامح . ولهذا لم تخل العصور المختلفة من وجود النوابغ النابهين ووجود الهمل الخاملين ، كما انهـا لم تخل من وجود الأمم الحية القوية والأمم الضعيفة المنحلة

الحياة تجدد مناظرها امام كل جيل ، وتلون لهم الدوافع والأهداف بالوان مبتكرة فى كل مرة وتنوع لهم صور العقبات التى تلقيها فى سبيلهم ، حتى يخيل اليهم ان الأجيال السابقة لم تجرب شيئا من هذه التجارب التى يمرون بها ، ولكن الحقائق الابدية دائما واحدة وان تغيرت مناظرها والوانها ، والمغامرة الانسانية دائما واحدة وان تجددت مواقعها وميادينها . فنحن جميعا سواء كنا من الأفراد او الامم ، نحن البشر الذين ينتشرون فى اركان هذه الارض الفسيحة من مشارقها الى مغاربها ، نشترك فى مغامرة بغير ان نفطن الى هذه المشاركة ، وهذه المغامرة التى نشترك فيها فى عصرنا هذا حلقة من سلسلة طويلة مرت منها حلقات كثيرة وما تزال منها حلقات كثيرة اخرى فى طى الخفاء وراء حجب الغيب ، والحلقات المختلفة من هذه المغامرة الانسانية الأبدية هى السر الاكبر فى كل ما احرزته الانسانية من التقدم فى الحضارة والعلوم والافكار والمبادىء. كل جيل يخلف وراءه تراثا من ثمار تجاربه ونشاطه لكى يبدا الجيل التالى من حيث انتهى الجيل الذى سبقه

ولكن الامم والشعوب المتشاركة فى هذه المغامرة العامة ليست سواء فى نصيبها من المغامرة. كل منها يختار لنفسه

آماله ودوافعه وفرصه ويتحمل عواقب اختياره ، فمنها امم وشعوب تسمو وتسود ، ومنهـا امم وشعوب تلهو عن السمو والسيادة اذا ضللتها قلوبها وعقولها عن الغاية الجديرة بالحياة الانسانية

ومن الأمم والشعوب من ينحرف عن جادة الحياة عندما يخرج عن جادة العدالة . فهى تنصرف الى مغامرة تافهة تتعلق فيها بالسفاسف وتنحدر فيها مع الميول والأوهام السخيفة فلا تستطيع ان تتبين الغاية الكبرى التى أعدت للبشر . ومثل هذه الأمم والشعوب تهوى مع ميولها وأوهامها الى مصـيرها المحتوم الذى يسيطر فيه الطغيان والفساد والخمول . عند ذلك تتحول مغامرتها الى مسخرة تنطوى على النفاق والحرص والجبن والأنانية

ولقد مضى علينا دهر نحن معاشر الشعوب العربيـة ، كنا فيه ويا للأسف نخبط فى حياة مزيفة . كان ميـدان الحياة عندنا مسرحا للميول التافهة والأوهام السخيفـة . وكانت عوامل الطغيـان والفساد والخمول تسيطر علينـا وتجرفنا عن جادة العدالة . وكان نظام مجتمعنا نتيجة لهذه الحياة المزيفة قائما على حدود ظالمة ، وامتياز طبقة من الأمة على ما سواها ، فبعدت كل أحوالنا عن العدالة . كان البعض منا يستند الى سيطرة الطبقة التى ينتمى اليهـا فى حدود النظام الجائر الفاسد ، على حين كان البعض الآخر يحرم من فرص الحيـاة وتوضع فى اقدامه القيـود الثقيـلة حتى لا يستطيع النهوض . وكانت شرعة الطغيـان تجعل كل خداع مباحا وكل غش ممكنا وكل تزييف مقبولا . ولهذا صـارت السيادة وقفا على البعض دون البعض حتى آلت آخر الامر الى سيادة من لا يستحقون أن يكونوا سادة

وكان من اكبر ما يثير قلوب المفكـرين وطلاب الحق والعدالة ان هذه الحال قد أدت الى خذلان الشعوب العربية

وهم ورثة أمة استطاعت فى يوم من الأيام أن تكون فى ذروة المجد الانسانى فى شتى ميادين النشاط وان تخلف للبشر جميعا تراثا نفيسا فى العلم والفن والادب والمثل العليا . كانت الأمة العربية فى وقت من الأوقات هى أمينة الجنس البشرى على الحضارة وهى رائدة التقدم فى كل ميادين الروح والعقل والفن . فما كان اشد على النفوس من ان تنحدر هذه الشعوب الى مهاوى الضعف والانحلال وتلقى مصير الشعوب اللاهية فى أهوائها واوهامها

ولكنا بحمد الله قد نجونا من الهوة التى كان ذلك العهد المظلم يسوقنا اليها ، واخذنا فى سبيل تحطيم الطغيان والفساد ، وعقدنا العزم على أن نفتح ميدان الحياة على مصراعيه ، ونبيحه لكل من يريد أن يجول فيه

هكذا تصير مغامرة الحياة جديرة بالشعب الذى ورث عن اجداده تقاليد المجد الرفيع وهكذا يستطيع الجميع أن يقفوا وجها لوجه امام ظروف الحياة وأمام الطبيعة التى لا تعرف المحاباة ولا التزييف ، ولا العوامل المصطنعة أو الحدود الجائرة

لقد آن لنا أن نستقبل الحياة بكل ما فينا من قوة الارادة والعقل والروح لنعيش كما عاش أجدادنا من قبل ، وكما تعيش الأجيال الحية المجاهدة التى تستحق نعمة الحياة . هذا عهد جديد يطلب من أهل هذا الجيل من ابناء الشعوب العربية أن يقوموا بأداء واجباتهم التى فرضها ميراثهم العظيم من أجيال الآباء ، ذلك التراث الذى تعاون على تكوينه كل الأسلاف الذين حملوا امانة التقدم الانسانى مدى قرون كثيرة . وعلينا نحن أن نضيف الى هذا التراث العظيم نصيبا من ابتكارنا ومن نشاطنا ومن تفكيرنا . فهذا هو سبيلنا الوحيد لتحطيم بقية القيود التى خلفتها لنا عصور الانحراف والظلام . وعلى شباب هذا الجيل خاصة ان

يسارع الى معرفة نفسه حق المعرفة وان يتغلغل فى اعماقها ليعرف ما يستطيع وما لا يستطيع ويرسم لحياته غاية يحرص عليها ويحب ان يحيا من اجلها ويبذل لها كل مقدرته وكل ارادته وكل عاطفته بل يودع فيها روحه ليكون تحقيقها تحقيقا لوجوده . لكل منا جانب خاص يمكن ان يكون موردا عزيزا للخير والبركة اذا عرفه واخلص فى الاستفادة منه . وكل من يقدر على التفوق فى ناحية من النشاط الانسانى يمكن ان يصبح من رواد الانسانية اذا اتجه بقلبه الى الانتفاع بهذه الميزة . قد يكون العامل الصغير رائدا للانسانية اذا عرف من نفسه ناحية يتميز بها ويعمل على استغلالها كما قد يكون الزارع والطبيب والمعلم والأديب والفنان . كل منا يكون من رواد الانسانية اذا عرف ناحيته التى يبرز فيها وركز كل نشاطه فى خدمتها . ونحن فى هذه الفترة من حياتنا نعيش فى عهد انتقال من عهد العبودية والطغيان الى عهد التحرر والعدالة، وهذه الفترة من أخطر الفترات التى تمر بها الأمم فى اول عهود نهضتها . ذلك لأن الشعب المطحون اذا خرج من تحت النير الثقيل لا يتاتى له أن يثب مرة واحدة فى الفضاء الطلق . وعندما تتحرر النظم وتزول الحدود والعقبات القديمة تبقى آثار الماضى فى داخل النفوس والضمائر تعمل عملها فى خفاء . فالمستعبدون يحتفظون بكثير من آثار الطغيان حتى بعد ان تفك قيودهم ، وعليهم اذا أرادوا التحرر حقيقة ان يجاهدوا انفسهم وضمائرهم أولا

هذا هو الجهاد الأكبر . هذا هو الجهاد الذى يحتاج الى كل عزائمنا وكل اخلاصنا وكل صراحتنا . والترياق المضمون الكفيل بتطهير الانفس والضمائر من آثار الطغيان هو نفس الدواء الذى يعد الشعوب للثورات على الطغيان ،

هو تحويل الأفكار بالعلم والبحث وتحريك القلوب بالفنون والآداب

ان هـذه النهضة الحديثة التي عمت الشعوب العربية ومهدت لها السبيل الى الوعى بحقوقها وبوجودها ، انما هى وليدة للتراث العلمى والفنى والأدبى الذى خلفه لنا العلماء والفنانون والأدباء فى عشرات السنين الأخيرة ، مضافا الى التراث القديم الذى خلفته الأجيال المجيدة الأولى . فاذا كنا نريد حقا ان نطهر نفوسنا من آثار الماضى المظلم وان نزيل كل ما علق بها من سمومه وأدرانه ، واذا اردنا ان نداوى العقد الفكرية والنفسية التى خلفتها لها أعوام طويلة من الفساد والاسفاف ، واذا اردنا ان نوجه بصائرنا وابصارنا الى آفاق جديدة وغايات سامية فى حياتنا . اذا اردنا ذلك كله كان لابد لنا من حركة علمية جديدة وحركة فنية أدبية تدفعنا الى الأمام وتنير لنا طريقنا الذى بدانا السير فيه

ان من اشد الأخطار علينا ان ننسى او نتجاهل قيمة الفكر والفن والأدب او ان نضعها فى غير المكان اللائق بها فى مقاييس القيم التى نقيس بها شؤون حياتنا . ان الفكر والفن والأدب تنمى ثروتنا الانسانية ولا اظن ان احدا يجادل فى ان الثروة الانسانية لها المحل الأول بين أنواع الثروة . قد نستطيع ان نبنى وان نعمر وان ننشىء المصانع والخزانات وان نمد الطرق ونختط المدن والقرى وان نتم كل ذلك على احسن الوجوه وابرعها ولكن هذه الاصلاحات تذهب كلها هدرا اذا لم تدعمها تنمية الثروة الانسانية . المستشفى بغير الطبيب الانسان الشاعر بمسئوليته المتحرر من آثار العبودية والفساد لا تزيد على بناء خاو خرب ، والمدرسة بغير المدرس الانسان الشاعر بجلال وظيفته والمخلص فى الايمان بحريته والعامل على تحرير تلاميذه لاتكون سوى مجموعة من حجرات فيها مقاعد جلوس

للأطفال ، بل قد تكون اسوا من ذلك واقل قدرا . وهكذا كل المنشئات وكل المرافق المادية لا تساوى شيئا اذا لم يملأها العنصر الانسانى السامى

فكل حركة تؤدى الى تقوية الفكر والفن والأدب تخدم مستقبل هذه الشعوب العربية الطامحة الى العلا والحرية والعدالة ، وكل عامل على زيادة هذه الحركة يؤدى خدمة جليلة لاخوانه من ابناء هذه الشعوب العربية

▭

وقد كنت منذ حين احاول القيام بشيء من واجبى فى هذا الميدان الذى اظن انى استطيع ان اجول فيه بقدر طاقتى ، لأشارك فى التوجه مع قومى من ابناء الشعوب العربية الى الآفاق الجديدة التى بدات تطلع علينا . هذا واجب احسست دفعه فى اعماق قلبى ولم املك الا ان اطيع دفعه بقدر ما اتيح لى من جهد ومقدرة

وقدعرضت على فى الشهورالاخيرة فكرة جديدة وجدتها تلائم وجهتى وفكرتى . وذلك ان مؤسسة فرنكلينالمساهمة الأمريكية طلبت الى ان اشرف على اخراج كتاب فى اللغة العربية ينفع الشباب بما فيه من امثلة على الكفاح فى الحياة والتفانى فى تحقيق غاية نبيلة لها . واقترحت على ترجمة كتاب « حياة اولاد فقراء صاروا من المشاهير » وهو من الكتب المعدودة التى لقيت نجاحا عظيما فى امريكا وسائر اقطار الأرض ولا سيما بين قراء الشباب .. وقد وجدت فيه سيرا عدة للمشاهير من رجال العلم والعمل والفكر . وهي نماذج بشرية تظهر كيف يستطيع الفرد أن يشق طريقه الى المجد بقوة نفسه وصدق عزمه ومتانة خلقه . فما كدت اطلع عليه حتى اهتز قلبى املا وابتهاجا لأن تلك

السير تصف كيف جاهد هؤلاء العظماء منذ ايام صباهم وكيف عانوا المشقة من الضيق والفقر والحرمان ، ثم كيف وقفوا وجها لوجه امام الظروف الشديدة التى احاطت بهم حتى اخضعوها لارادتهم وجدهم واستطاعوا ان يسيروا خطوة خطوة نحو الغاية التى رسموها لانفسهم فما زالوا حتى تسنموا المجد وخلفوا من ورائهم قصة تراث نفيس فى العلم أو الفن او الفكر او الخدمة الانسانية

فحياة هؤلاء الأبطال اكبر مثال يمكن ان يوضع امام الشباب فى هذا الجيل ليروا فيه صور انفسهم كما ينبغى ان تكون صور انفسهم اذا تحللوا من قيود الماضى ودخلوا الى ميدان المغامرة الانسانية العادلة ، وكافحوا بكل ما فيهم من قوة الذكاء والعزيمة والخلق المتين

لقد كان شبابنا دائما يقنع بالمطالبة ، ويحلق مع احلام اليقظة ويتعلق بالأمانى ، ثم ينظر حوله الى المعين الذى يأخذ بيده لأن الحياة كانت لا تفتح ابوابها الا لمن كان له سند من اهل السلطان الذين استأثروا بالسيادة . ولكن هذا العهد عهد المغامرة الحرة او ينبغى ان يكون هكذا . وشبابنا مطالب بأن يدع المطالبة والتعلق بالمنى واحلام اليقظة وان يستعيض عن ذلك كله بالمباداة . هذه الحياة امامه فليضرب فيها بذكائه وقوة عزيمته ومتانة خلقه . وهذه أمثلة لصغار كانت تحيط بهم الأشواك ثم بنوا لانفسهم ذكرا خالدا

وقد رايت ان ازيد الكتاب قدرا بان اضيف اليه مجموعة من سير بعض مشاهير العرب الذين بنوا لانفسهم ذكرا خالدا فى ميادين الحياة المختلفة ، وقد نشأوا فقراء كأمثالهم فى البلاد الأخرى تحيط بهم الأشواك . وكان نصيبى فى هذا الكتاب أن ترجمت بعض فصوله وراجعت بعض فصول اخرى ترجمها شاب اديب له قصة طريفة اود ان اسجلها هنا .

عرفت الأستاذ سعد الغزالى خريج كلية الآداب عندما كان يعمل فى الصحافة . ورايت ان يقوم بترجمة فصول من هذا الكتاب لما عرفت فيه من قوة النفس ومتانة الخلق وبلاغة القلم والمقدرة الممتازة فى معرفة اللسان الانجليزى . ولكنه ما كاد يبدا فى الترجمة حتى دعى للانخراط فى سلك الجندية تادية لواجبه الوطنى . فكان من اكبر ما يدعو الى سعادتى ان يزورنى فى زيه العسكرى لنتذاكر فيما ترجم ونقراه معا ونعيد فيه النظر معا . فكنا نمثل جيلين من ابناء مصر يتعاونان على خدمة اللغة العربية الشريفة والشعوب العربية الشقيقة . هذه آية تبشر بأن اجيال مصر تتعاون فى خدمة الوطن والعروبة . وكانت اكبر مكافاة لنا ان نحس اننا قدمنا الى اخواننا شيئا يختلط بقلبينا ونرجو ان يصل الى قلوبهم ايضا

واما السير التى اضيفت الى الكتاب فلم يكن لى فيها الا فصل واحد وهو ترجمة الأستاذ العظيم على مبارك معلم مصر الأول . وكان من حسن الحظ ان استجاب الى النداء نخبة من كبار الأدباء ورجال الفكر ورجال الأعمال فكان لهم الفضل فى أن الكتاب اصبح شاملا لأروع المثل فى العالمين الغربى والشرقى . ولست استطيع ان اوفى حق هؤلاء الفضلاء من الشكر وحسبهم انهم ارضوا انفسهم بالمشاركة فى خدمة الثقافة العربية . فقد كتب الأستاذ الجليل عباس محمود العقاد سيرة للزعيم العظيم سعد زغلول وكتب الدكتور سعيد عبده ترجمة للجراح الأكبر على ابراهيم .. وتفضل الأديب الكبير طاهر الطناحي فكتب فصولا ثلاثة عن جرجى زيدان المؤرخ ، وسليم تقلا الصحافى الأديب ، وشاعر النيل حافظ ابراهيم .. كما تفضل الشاعر المبدع والكاتب البارع عادل الغضبان فكتب فصلين احدهما عن رجل جمع بين ميادين العمل ، وميادين الانسانية وهو

سمعان صيدناوى وعن نابغة آخر جمع بين الابداع فى الفن والابداع فى الادب وهو جبران خليل جبران

وما كان يمكن ان يصدر كتاب عن سير عباقرة العصاميين بغير ان يكون فى مقدمتهم رائد الاقتصاد المصرى الاول طلعت حرب وكان صاحب الفضل فى ترجمة حياته السيد محمد رشدي عضو مجلس الادارة المنتدب لبنك مصر. وقد تفضل عالم الموسيقي الدكتور محمود الحفنى فكتب سيرة حياة فنان مصر الاول فى الموسيقى عبده الحامولى

وقد رايت ان ادخل شيئا من التعديل على عنوان الكتاب فجعلته « عصاميون عظماء » وهو لا يختلف فى معناه عن عنوان الكتاب الأصلي الذى ترجمنا اهم فصوله

وكتاب « اطفال فقراء صاروا من المشاهير » واحد من عدة كتب الفتها سيدة امريكية بارعة ، هى سارة بولتون التى قضت حياة حافلة بالتاليف والتعليم والخدمة الاجتماعية فى أواخر القرن الماضى ، اذ كان ميلادها فى عام ١٨٤١ وانتهت حياتها العريضة فى عام ١٩١٧ ففيما بين هذين التاريخين الفت عدة كتب قيمة منها مجموعة من كتب السير توفرت فيها على ترجمة حياة العظماء الذين نشأوا فى صفوف الفقراء وجاهدوا حتى بلغوا أوج العظمة . وكتاب « اولاد فقراء صاروا من المشاهير » واحد من احب هذه الكتب الى القراء ، اذ طبع لاول مرة فى عام ١٨٨٥ واعيد نشره فى عام ١٩٤٧ بعد أن نقح وروجع . ومما يجدر بى ذكره انه قد وزع منه اكثر من ٨٥٫٠٠٠ نسخة وما يزال يتدفق الى القراء الى اليوم والذى ارجوه من هذا العمل الذى توفر عليه هذا العدد من كبار المفكرين والكتاب والادباء من اجيال شتى بين الشباب والشيخوخة ان يدخل شيئا من الرضى الى قلوب نريد لها ان ترضى وان يزدهر املها . وان يخرج كل من يقرأ هذه الفصول مستبشرا ، فان الحياة فسيحة لكل عامل مجاهد

محمد فريد ابو حديد

الجزء الأول

عصاميون من الشرق

سعد زغلول



سعد زغلول

« كان عصاميا وهو طالب ، وعصاميا وهو موظف ، وعصاميا وهو محام ، وعصاميا وهو قاض ، وعصاميا وهو وزير ، وعصاميا وهو نائب ، وعصاميا وهو زعيم »

عظيم كل حياته عصامية

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

ما هي العصامية ؟

عند كثير من الناس ان العصامية هى مجرد الانتقال من حالة الخمول والفقر الى حالة الجاه والثروة

ولكن المرء قد ينتقل من الخمول والفقر الى الجاه العريض والثروة الوافرة ولا يحسب من العصاميين ، لانه لم ينتقل هذه النقلة بعمله وجده بل كان الفضل فى غناه ونفوذه للمصادفة ولا يندر أن تجيئه المصادفة بغير حسبان وعلى الرغم منه ، ومن هذا القبيل اننى اعرف تاجرا كان يتبرم بما عنده من البضائع الكاسدة ومنها الصبغة المعروفة باسم « التفتة » والكبريت ، ثم انقطعت هذه الاصناف بعد اعلان الحرب العالمية الاولى فتضاعف ثمنها واصبح الرجل من الاغنياء ذوى النفوذ ، ولو انه نجح فى بيع بضائعه قبل ذلك ببضعة اشهر لابقاه النجاح حيث كان من الخمول والكساد

وعلى نقيض هذا قد يولد المرء فى بيئة الجاه واليسار ويبلغ الذروة من العصامية ، لانه بلغها منفردا بين امثاله من ابناء الوجهاء والاغنياء

فالعصامى هو الذى ينجح فى تكوين نفسه سواء نشا فى مهاد الفاقة أو مهاد اليسار

والكلمة العربية ماخوذة من اسم عصام الذى سود نفسه ولم يكن لاحد غيره فضل فى تسويده

نفس عصام سودت عصاما
وعلمته الكر والاقداما

والكلمة الانجليزية التى تقابلها معناها « صانع نفسه » Self made وتقرب منها الكلمة الفرنسية التى تقول عن العصامى انه ابن عمله Fils de ses œuvres

وبهذا المعنى يحسب سعد زغلول من العصاميين ، بل يحسب عصاميا عدة مرات لا مرة واحدة ، لانه صنع نفسه فى كل مرحلة من مراحل حياته على نحو لا يستطيعه امثاله فى بيئته

كان عصاميا وهوطالب ، وعصاميا وهوموظف ، وعصاميا وهو محام ، وعصاميا وهو قاض ، وعصاميا وهو وزير ، وعصاميا وهو نائب ، وعصاميا وهو زعيم

الطالب العصامى

ينتمي من جهة ابيه وجهة امه الى اعلى طبقة من طبقات الريف فى بلده ، وكان قصاراه أن يتعلم القراءة والكتابة والحساب كما يتعلمها امثاله ، ثم يرشح نفسه للعمدية أو المشيخة ، او يقنع بموارده من زراعة الارض وبيع محصولها ، كما يصنع المئات من أوساط الفلاحين .. ولكنه اتم التعليم ولم يقنع بالقسط الذى يناله الصبى المتعلم فى مكتب القرية ، ولم يقنع بتعليم البندر والبلدة القريبة كمطوبس ورشيد ، فارسله أهله الى القاهرة ليتم تعليمه بالجامع الازهر ، وهو يومئذ جامعة القطر كله يتبرك الآباء والابناء بطلب العلم فيه

قال لى من عاصر سعدا فى مكتب قريته ان التلاميذ كانوا يطالبون باعادة ربع من القرآن الكريم او ربعين على الاكثر بمراجعة المعلم ، فكان سعد لايقنع بأقل من ثلاثة ارباع ولا يفعل ذلك لارضاء معلمه لان معلمه كان يضيق بهذا الاجتهاد الذى يرهقه بمزيد من المراجعة لو سار التلاميذ كلهم على

منهج سعد فى الاعادة ، ولكنه كان يعيد ما يعيده ليفعل شيئا يزيد به على النظراء

وسمعت سعدا يقول غير مرة عن فضل التعليم الأزهرى يومذاك انه كان تعليما حرا بافضـــل معانى الحرية ، لان الطالب كان يختار معلمه ويمتحن معلميه قبل ان يمتحنوه

وكان هذا حقا هو النظام المتبع يومئذ فى الجامعة الأزهرية ، فكان كل شيخ يجلس الى حلقته ليلقى درسه فى موعده ، وكان يتفق فى الوقت الواحد ان يلقى درس النحو او الفقه او البلاغة ثلاثة اواربعة من العلماء ذوى الاجازات ، فيستمع الطالب الى كل منهم ويختار من يرتضيه بعد سماعه ، ولا اكراه عليه لو اختار ثم عدل عن اختياره بعد حين

وينجح سعد اكبر نجاح فى ذلك الامتحان : نريد امتحانه هو لأساتذته ولا نريد امتحان الأساتذة اياه . فانه اختار استاذا لا نظير له بين علماء عصره ، واختاره بعد ان وازن بينه وبين جميع الأساتذة لانه كان يلقى دروسه حيث يقيم خارج الجامع ، ولم يؤذن له يومئذ بالقاء دروسه فيه

ذلك هو مصلح الشرق العظيم جمال الدين

ونحن نقول اليوم مصلح الشرق العظيم ويقولها معنـــا الشرق الاسلامى كله ، ولكنه لم يكن فى ذلك العصر عند الاكثرين الا الزنديق جمال الدين ، والملحد جمال الدين ، ومنهم من كان يستكثر عليه اسمه فيذكره باسم ضلال الدين او الافغانى الافاق ، ووصفته حكومة ذلك العصر حين طردته من مصر فقالت انها « ابعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية ، بامر ديوان الداخلية ، ووجهته من طريق السويس الى الاقطار الحجازية ، لازالة هذا الفساد ، من هذه البلاد ، عبرة للمعتبرين ، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين ، البادى من افعالهم الظاهرة ، انهم لا خلاق لهم فى الدنيا والآخرة !.. »

فلا ريب انها كانت عصامية نادرة تلك التى الهمت سعد
أن يختار استاذه على صعوبة الاختيار بين هذه الاقاويل
وهذه الاباطيل ، ولا ريب انها كانت عصامية أندر منها تلك
التى أفردته بين شبان المصريين الذين حضروا على جمال
الدين بما بلغ من عظمة الزعامة بعد ذلك ، فلم يكن منهم أحد
قاد أمته كما قادها هو بعد جيل

الموظف العصامى

وخرج الشاب المقدام من الطلب الى وظائف الحكومة فعمل
كاتبا فى « الوقائع المصرية » ، فكان عصاميا فى هذا العمل
لأنه نهج بالكتابة منهجا لم يسبقه اليه الكتاب

ففى عصره كان التزام السجع شائعا بين الكتاب المعدودين
من أهل البلاغة ، ومنهم اساتذته الذين يقتدى بهم نظراؤه
ولعل القارىء قد لاحظ من بيان الحكومة عن نفى جمال الدين
ان السجع ملتزم حتى فى امثال هــذه الاوامر الرسمية ،
وكأنما اراد كاتب البيان ان يلقى فى روع القراء انه يتكلم عن
جمال الدين وهو كفؤ للكلام عنه ببلاغته وعلمه ، فصاغ بيانه
على ذلك الاسلوب ..!

فلما أخذ سعد فى الكتابة شق طريقه فى الاساليب على
سنة العصامية التى لا تمتاز بشىء كما تمتاز بقدرتها على
شق طريقها لنفسها ، واطلق قلمه من قيود السجع المتكلف
الا ما كان فى تعبيره عن المعنى اصح من اسلوب الكلام المرسل،
وكتب بلغة كلغة العلم الحديث فى تقرير المعاني واجتناب
الحشو والفضول ، كقوله من فصل عن الشورى : « .. ومن
البديهى الواضح ان نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها ،
فانها ليست الا عبارة عن معانى احكام مرسومة فى اذهان
ارباب الشريعة وعلمائها ، او مدلولا عليها بنقوش مرقومة
فى الكتب ، ولا يكفى فى تقيد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها
بل لابد فى ذلك من وجود اناس يتخلقون بأخلاقها ويظهرون

بمظاهرها ، فيقومونه عند انحرافه عنها ويحضونه على ملازمتها ويحثونه على السير فى طريقها ، ومن اجل ذلك دعا سيدنا عمر رضى الله عنه الناس فى خطبته الى تقويم ما عساه يكون فيه من الاعوجاج فى تنفيذ احكام الشرع الشريف ، وقال تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » اذ لا يخفى ان هذه الآية الشريفة عامة فى دعوة الملوك وغيرهم الى الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، ليقوم بها الدين ولا يخرج احد عن حده حاكما كان او محكوما . وليس الأمر هنا للندب كما فهم بعضهم ، بل للوجوب والفرض كما صرح به العلماء .. »

هذا مقال كتب قبل نيف وسبعين سنة ، ولو كتب اليوم لما ميزه القارىء من أحدث الأساليب فى القصد وصحة الأداء

واستفاد سعد من عمله فى « الوقائع المصرية » مالا يستفيده كل عامل فى تحريرها ، اذ كان من موضوعات « الوقائع » ان تنشر نقدا متواليا لاحكام المجالس الملغاة ، فعكف على دراسة المسائل القانونية واستعان على فهمها بما يعلمه من فقه الشريعة ، ولم يلبث ان رشحه علمه بالشريعة والقانون لوظيفة شبيهة بوظائف القضاء ، فوقع عليه الاختيار لوظيفة ناظر قلم القضايا بمديرية الجيزة ، وكان من اختصاصها اصدار الاحكام فى كثير من المواد الجزئية

المحامى العصامى

وترك وظائف الحكومة بعد الثورة العرابية ليشتغل بالمحاماة ، فاسبغ على هذه الصناعة كرامة لم تكن معهودة لها بين اهلها ولا بين جمهرة الأمة فى ذلك الحين ، وحسبنا من الدلالة على هوان شانها يومئذ انه كما قال فى خطابه للمحتفلين بتوليته القضاء قد لجا اليها « والخجل يستر وجهه لسقوط اعتبار من كانوا يتعاطونها » . وخطب فى

ذلك الحفل زميله حسن الشمسى فقال : « ان فى القضاة من تغالى فى حب الاستقامة حتى ارتاب ان يكون فى طائفتها مستقيم .. »

وهذه هى الصناعة التى اعطاها كعادته ما لم يكن لها قبل اشتغاله بها ، وما لم تأخذه قط من مشتغل بها قبله : اعطاها المكانة التى ترشح واحدا من ابنائها لمركز القاضى بمحكمة الاستئناف ، وكان اول محام اسند اليه منصب قاض فى تلك المحكمة (سنة ١٨٩٢)

القاضى العصامى

واصبح المحامى العصامى صانع نفسه ، قاضيا عصاميا صانعا لنفسه كذلك ، فتعلم اللغة الفرنسية وتقدم لامتحان الحقوق فى باريس ، فنال اجازتها بدرجة متفوقة ، وجعل اسمه علما من اعلام القضاء المصرى يفخر به قضاة مصر وطلاب القانون فيها حتى اليوم

وما شأن قاض والتعليم وهو فى محكمته بين قضاياه ؟.. لاشأن له به ولا لوم عليه اذا اكتفى بعمله وليس هو بالعمل اليسير ، ولكنه اذا كان قاضيا كسعد فرض على نفسه فى كل صناعة ما لم يكن مفروضا عليه ولاعلى احد من ابنائها ، فمن منزله صدر المنشور بانشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٠٦ ، وبارشاده وتدبيره نشأت الجامعة وكتب لها البقاء

وكانت معونته على كل عمل من اعمال التربية القومية مشجعا للقائمين بها على اختلاف هذه الاعمال ، فساعد الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ومصطفى كامل صاحب اللواء على احياء الصحافة المصرية ، وساعد قاسم امين على الدعوة الى تحرير المراة ، فلم يجد قاسم من يهدى اليه كتابه غير سعد زغلول

وتكررت فى القضاء تلك الخصلة التى لازمته فى كل مرحلة من مراحل حياته ، فكان القاضى الاول الذى انتقل من

القضاء الى الوزارة حين اريد تجديد التبعـــات الوزارية ، وندع التقدير هنا للغرباء لان افضل الفضل ما شهد به الغريب

قال المسيو دى هولتز الذى خطب فى الاحتفال بتوديعه القضاء لانه كان اكبر المستشارين سنا : « ربما خطر ببالك عندما تركت المحاماة الى القضاء ان ذلك كان شرفا لك ، نعم انه كان شرفا ولكنه شرف لنا معشر القضاة ، شعرنا به عقب وجودك بيننا اذ تمكنا من ان ننظر عن كثب الى اخلاقك ومعارفك فنقدرك قدرك »

وقال المركيز زتلاند فى ترجمته للورد كرومر : « ان كرومر نفسه قد خطا فى سبيل صبغ الحكومة بالصبغة الشعبية المحبوبة خطوة الى الامام قبيل رحيله من مصر حين اوصى بتعيين مصرى معروف بنزعته الوطنية وزيرا للمعارف ، ونعنى به سعد زغلول .. »

وكان لورد كرومر يلقب فى مصر بقيصر قصر الدوبارة ، ويقول شاعر الامير فى تشييعه بعد اعتزاله :

او حاكما فى ارض مصر بامره
لا سائلا ابدا ولا مسئولا

فتمام التقدير الذى رايناه من دى هولتز وزتلاند ان نسمع قيصر قصر الدوبارة يقول عن سعد انه علمنى كيف احترمه .. ولم يقلها كرومر قط عن احد سواه

الوزير العصامى

كان اول وزير مستقل بارادته مع المستشار الانجليزى على ما كان معلوما يومئذ من الزام الوزير ان يستمع الى المستشار ، وفقا لبرقية اللورد جرانفيل

ولم يكن مستقلا عن المستشـــار وحسب ، بل بلغ من استقلاله انهحافظ عليه امام الخديو واللوردكتشنر مجتمعين متفقين ، فطلب عزل الوصى على دائرة الاميرة صالحة وهو

معين من قبل الخديو وصديق شخصي لـكتشنر يصاحبه على الدوام فى رحلات الصيد والرياضة ، ولما حيل بينه وبين محاسبة الرجل استقال من وزارة الحقانية وعاد الى المحاماة

وتبدو كلمة « عاد الى المحاماة » بسيطة سهلة فى هذا السياق ، لاننا عرفنا فى الايام الاخيرة وزراء كثيرين خرجوا من الوزارة وقيدوا اسماءهم بجدول المحامين

اما قبل اربعين سنة فلم تكن بسيطة ولا سهلة ، بل كانت دهشة الناس لها كدهشتهم لخوارق العادات ، فلم يحدث ان وزيرا خرج من الوزارة فاشتغل بعمل آخر كائنا ماكان ، لاعتقادهم ان الوزارة ارفع شانا من كل عمل فلا يحسن بمن ارتفع اليها ان ينزل الى ما دونها ، والا فهو يهين نفسه ويبتذل اسمه بالعمل كما يعمل خلائق الله !

النائب العصامى

ولحقت بهذه الدهشة دهشة أخرى اكبر منها وابعد منها عن خواطر ولاة الامور وسائر المصريين

فلم يخطر للخديو ولا للوزارة ولا للعميد البريطاني عند التفكير فى انشاء الجمعية التشريعية ان سعدا سينزل الى ميدان الانتخاب ليطلب أصوات الناخبين ويزاحم المرشحين ، ولعلهم لو خطر لهم هذا الخاطر لاتخذوا له من الحيـطة مايريحهم من عواقبه المعروفة والمجهولة .. الا ان العصامية لاتكون جديرة باسمها ان فعلت مايتوقع منها ولم تزد عليه. فنزل سعد الى الميدان على خلاف ما قدروه ، ونجح فى دائرتين لا فى دائرة واحدة ، وتغلب على المزاحمة القوية ومن ورائها سلطان الوزارة وسلطان القصر وسـلطان الوكالة البريطانية ، وظفر فى داخل الجمعية بكثرة الاصوات عند الترشيح لمنصب الوكيل المنتخب . اما الرئيس والوكيل

الآخر ، فقد كان دستور الجمعية ينص على اختيارهما بالتعيين

الزعيم العصامى

ثم برزت العصامية الكبرى فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، فنهض وكيل الجمعية التشريعية بزعامة الامة كلها ، وذهب على أثر اعلان الهدنة الى دارالحماية البريطانية يطالب باستقلال البلاد ، وكانت دهشة لم يتوقعها عميد دار الحماية فقال متعجبا مستوثقا : « كأنكم تطلبون الاستقلال ؟ ! »

قال سعد : « نعم .. ونحن له أهل »

ولحسن الحظ دائما ان العصامية تأتى بغير المتوقع ، فلو ان رجال الحماية البريطانية توقعوا هذه المطالبة لما أعياهم ان يحولوا بين سعد وبين دعوى الوكالة عن الامة . انهم كانوا لايستطيعون أن يخيفوه ولا ان يثنوه عن عزيمته ، ولكنهم كانوا يستطيعون ان يمنعوا كتابة التوكيلات له فى طول البلاد وعرضها ، فلا يظهر صوت الرأى العام على حقيقته كما ظهر من تلك التوكيلات التى وقعها المصريون بعشرات الالوف

ثم كانت زعامة ولا كل الزعامة

كان فى مصر زعماء يقول الخصم عنهم انهم يتكلمون باسم طبقة الباشوات ولا يتكلمون على هذا باسمها جمعاء

وكان فى مصر زعماء يقول الخصم عنهم انهم شبان طائشون يتبعهم طائفة من الطلبة والتلاميذ

وكان فيها زعماء يقال عنهم انهم لايمثلون أصحاب المصالح الحقيقية ولا يجمعون حولهم من لهم حق الانتخاب

وكان فيها زعماء يقال عنهم انهم ينكرون الحماية البريطانية ويرضون بالسيادة التركية ، أو يقال عنهم انهم متعصبون لايؤتمنون على مخالفيهم فى الدين ، أو يقال عنهم انهم غير مصريين وليس لهم من الوطنية الصحيحة نصيب

كان فى مصر زعماء ، ولم يكن فيها زعيم

فلما نهض سعد بأمانة الزعامة اذا بالامة كلها تدين بزعامته ، واذا بها أول زعامة مصرية يتبعها الاغنياء والفقراء والشيوخ والشبان ، والرجال والنساء ، والمسلمون والمسيحيون ، ولم تسبقها فى الزمن الحديث زعامة وطنية الى توحيد وطنى كهذا التوحيد العجيب

وكل هذا بدع فى العصامية لايتكرر فى سيرة كل عصامى خالق لمجده ، ولكنه فيما نرى قد ترك فى سيرة هذا الرجل الفذ محلا لمزية عصامية أعسر على طلابها من جميع هذه المزايا ، وهى المزية التى تتخطى حواجز العصبية القومية وفوارق المعيشة البيتية ، فقد كانت تقاليد البيت « الارستقراطى » فى مصر تأبى على أهلها أشد الاباء أن يتزوجوا من أبناء الفلاحين أو بنات الفلاحين ، لأن الطبقة الارستقراطية كانت تتربى على المعيشة التركية وتتكلم التركية فى بيوتها بدلا من العربية ، ولم يتفق فيما نعلم أن احدا ممن عاشوا هذه المعيشة رضى بمصاهرة فلاح من الريف على الخصوص ، وكان سعد من صميم الفلاحين الريفيين فتقبلته هذه البيئة أحسن قبول ، ثم كان اعجاب قرينته به وبأدبه فى بيته مثلا نادرا بين الازواج من بيئة واحدة بل من أسرة واحدة ، فكادت اقامة زوجته فى ضريحه أن تغلب على مقامها بدارها ، وكانت تقضى معظم نهارها فى الضريح ثم تختار للجلوس فى دارها الحجرة التى تطل عليه

وتوفى سعد وهو رئيس لمجلس النواب ، فمن تحصيل الحاصل بعد ما تقدم أن يقال انه كان كعادته فى هذه المرحلة الاخيرة من عمره : رئيسا ولا كل رئيس

واذا كانت للعصامية طبقات فهذه هى طبقتها العليا ، أو هذه هى العصامية بين العصاميين

طلعت حرب



طلعت حرب

« ما كان يمكن أن يصدر كتاب عن سير عباقرة العصاميين بغير أن يكون فى مقدمتهم رائد الاقتصاد المصرى الاول طلعت حرب »

زعيم الاقتصاد المصرى

بقلم الاستاذ محمد رشدى

عضو مجلس الادارة المنتدب لبنك مصر (١)

حينما طلب منى ان اكتب عن طلعت حرب ـ ولى به رباط خاص ـ تملكتنى حيرة بالغة ، واكتنفنى حياء احسست عجزا عن دفعهما . وفيما انا على هذه الحال ، اذا بناحية كريمة تقطع على طريقى .. تلك هى ان طلعت حرب لم يخلق لاسرته وحدها ، بل اتخذ من امته اسرة ، وجعل من نفسه لنا جميعا ابا رحيما طوال حياته . والكتابة عنه فيها نفع كبير للمجتمع . ومن واجبى ان ابادر ، فاكتب وفاء لفضله ، وعرفانا بجميله

بدأ طلعت حرب حياته العملية ، كأى شاب مثقف فى عصره ، فما كاد يتم دراسته ويحصل على اجازة الحقوق حتى التحق باحدى الوظائف الحكومية . غير ان نفسه الكبيرة الوثابة ابت عليه ان يخلد الى عمله الرتيب وأن يكتفى من العلم والمعرفة بما حصله من قبل ، فاخذ يستغل أوقات فراغه فى استيعاب ما تضمنته أهم الكتب التي اخرجها كبار العلماء والأدباء والفلاسفة والساسة فى الشرق والغرب ، من السلف والمعاصرين . وحرص على غشيان

---

(١) الاستاذ محمد رشدى من الدعائم الكبرى لبنك مصر وشركاته ومن كبار الاقتصاديين ورجال القانون المصريين وهو زوج كريمة المرحوم محمد طلعت حرب

المجالس والمنتديات الخاصة والعامة للانتفاع بما يتردد فيها من افكار وآراء وبما يدور حولها من نقاش وتمحيص وما لبث قليلا حتى كانت لديه مكتبة زاخرة بانفس المؤلفات القديمة والحديثة ، وامست داره منتدى يؤمه نخبة من رجالات العلم والادب والاجتماع والسياسة . فكان لهذا كله اثر كبير فى نفسه غير مجرى حياته ، اذ لم يطق صبرا على قيود الوظيفة واغلالها ، وسرعان ما تحلل منها ، واخذ طريقه الى العمل الحر

□

وفى ذلك الحين ، كان مثل هذا الاتجاه يعد مجازفة او مغامرة غير مامونة العاقبة ، ولم يكن طلعت حرب الشاب المقدام الجسور بالذى يخفى عليه ذلك ، ولكنه اقدم عليه بعد طول تفكير وتقدير وتدبير ، ووضع نصب عينيه ان عليه رسالة يجب ان يؤديها لبلاده ، وهذه الرسالة تقوم على ان مصر يجب ان تبنى نفسها بنفسها ، لكى تسترد عزتها وكرامتها ومجدها ، ومكانتها التى اهلتها لبلوغها عراقة حضارتها ومدنيتها ، وخصوبة تربتها ، وكثرة الأيدى العاملة المخلصة فيها ، وموقعها التجاري والصناعى الممتاز. وهكذا مضى فى سبيله الذى رسمه لنفسه ، مكافحا ذلك الجمود الذى جثم على صدور ابناء الوادى فافقدهم ثقتهم بانفسهم واقعدهم عن استثمار اموالهم فى غير الزراعة على اوضاعها الموروثة ، واخذ على عاتقه ان يواصل هذا الكفاح بكل ما أوتى من قوة وصبر وايمان ، الى ان يبدد ما يساور مواطنيه من الوهم وخشية مباشرة الأعمال التجارية والصناعية ، ويصلح ما افسده الاستعمار والاستهتار فى ميادين الاقتصاد القومى ، مما ادى الى تغلغل المصارف

المالية والبيوت التجارية الأجنبية فى جميع انحاء البلاد ، والى تسرب أموال المواطنين الى خارج ديارهم حيث تستثمر لنفع غيرهم . وكانت هذه الأموال قد جاوز مجموعها مائة وخمسين مليون جنيه ، كما هو ثابت فى تقرير المستشار المالى سنة ١٩١٩

وسيلته فى تحقيق الرسالة

استهل طلعت حرب اداء رسالته فى مكافحة صدوف المصريين عن الأعمال التجارية بأن اقترح على صديق له كريم المحتد مرموق فى وسطه ، هو المرحوم فؤاد سليم الحجازى ، أن يفتتحا محلا لتجارة البقالة والألبان ، لكى يضربا لاخوانهما المثل الصالح فى ميدان يعود على طائفة كبيرة منهم بالخير والبركات ، وكان صديقه هذا عند حسن ظنه به ، فافتتحا ذلك المحل ، وسارا فى عملهما لايلقيان بالا الى ما يوجه اليهما من نقد مر ، ونظرات مملوءة بالسخرية والاشفاق ، بل تحدوهما عزيمة صادقة وايمان وثيق بأن العمل لصالح المجموع يسقط فى سبيله كل اعتبار ، ولا تؤثر فى نفس القائم به المظاهر الباطلة ، ثم قاما بدعاية واسعة لفتت انظار مختلف الطبقات وقضت على كبرياء وانفة باطلتين ، وما هى الا فترة قصيرة حتى تفتحت عيون الكثيرين على ما فى التجارة من خير فاقبلوا عليها فى شتى انواعها ، وبذلك تحققت الفكرة التى عمل لها ، فنزل وزميله عن محلهما لبعض المصريين

وبعد عامين ، اصدر طلعت حرب فى سنة ١٩٠٧ كتابا كشف فيه عن حاجة البلاد الى بنك وطنى ينشأ بمال المصريين ، وتعمل فيه أيد مصرية ، وتستخدم فيه اللغة العربية . وقد نبه فيه الأذهان الى الأموال الوفيرة العاطلة التى يستثمرها الأجانب فى غير صالح مصر والمصريين ،

وناداهم الى واجب وطنى مقدس هو استثمار مالهم ، والأموال الفائضة فى صالح الاقتصاد القومى ، وابان لهم اثر المال فى حياة الأمم واستقلالها ، وشوقهم الى ان يعتمدوا على انفسهم فى جميع حاجاتهم ، وما زال ينشر الدعوة ويجددها فى كل مناسبة ، حتى كانت الثورة المصرية ، فالقى فى احضانها بذور هذه الدعوة المباركة ، وهو على يقين انها ستنبت نباتا حسنا باذن ربها . وكان هذا فى ٧ مايو سنة ١٩٢٠ ، حينما افتتح البنك وقدر له الوجود .

دستوره فى البنك

وقد وقف طلعت حرب فى ذلك اليوم التاريخى يخطب المؤسسين المكتتبين وعلية الأمة ، فصارحهم بأن البنك لم يقم فى مصر الا ليسد النقص الظاهر فى مرافق البلاد الاقتصادية ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولينير الطريق امام المواطنين ، وسيعمل على تنظيم الحالة التجارية ، وعلى الاكثار من التاجر الذى يعرف قيمة الورقة التجارية والذى يحرص كل الحرص على الوفاء حرصه على الاعتبار والشرف ، وليقيم بناء الصناعات شامخا فى ناحيتها النباتية والمعدنية . ثم أوضح فى جلاء ان العملية المصرفية البحت لم تكن غايته وحدها ، وان صالح المساهمين لن يقوم حائلا بين البنك وبين صالح المجتمع والوطن ، وانه سيعتمد فى احياء الصناعات على ثقة المصريين فى البنك ، وستتجلى هذه الثقة فيما يودع فيه من مالهم الفائض . وعلى هذا بدأ هو وزملاؤه خطواتهم معتمدين بعد الله على عطف الأمة وتشجيعها

وهناك حقيقة ظلت مطوية طوال السنوات التى مضت منذ انشاء البنك ، وهى تبرز ناحية من السمو الروحى والاكتفاء الذاتى لطلعت حرب ، تلك هى انه ظل طول

السنوات الخمس التالية لاقامة البنك وانشاء عشر شركات تابعة له لا يتقاضى اى اجر عن عمله المتواصل العظيم !..
ولولا ان حملة الأسهم فزعوا اليه يرجونه فى الحاف أن تكون له مكافأة عن عمله لقاء جهده المضنى ، ولولا انهم اعلنوه ان كرامتهم تأبى عليهم تسخيره وطالبوه بان يجاهرهم بالقبول مشكورا ، لما اجابهم الى طلبهم ، على انه اشترط الا يكون للقرار أثر عن الأعوام الفائتة

ان فى ذلك لعبرة ، وان فيه لمثلا صالحا للرجل الذى يتصدى للأعمال العامة . فيقينى ان الرجل العام يجب أن ينسى نفع نفسه ، ويجب الا يكون انانيا تنفر منه الجماعة . ويجب أن يكون التواضع شعاره . وهذه صفات لمسها كل من اسعده الحظ فعمل تحت لواء طلعت حرب . فالحق ان النفع الخاص لم يكن مبتغاه وانما كان يهدف الى احياء الصناعات فى مصر ، واقامتها مصرية صميمة لحما ودما ، يفتح بها ميادين اعمال مختلفة للمصريين ، ويحارب بها أزمة المتعطلين من المصريين

وقد وفق فى تحقيق هدفه ، ورأى بعينيه ان مشروعاته تدر على الشباب المثقف والعمال من اجور ومرتبات ما يقرب من اربعة ملايين من الجنيهات سنويا

وهذه القيمة الكبيرة لم يكن لها وجود من قبل . وقد ظل الشعب المصرى محروما منهـــا قرونا عدة . وكان العبء كله على الزراعة والعمل فيها على نظم بدائية . وهذا الرقم الضخم يقوم الى جانبه أرقام مجهولة . فان اليد العاملة فى الزراعة نقصت نقصا ظاهرا . فكان لهذا اثره فى ارتفاع أجور العمال الزراعيين . ذلك ان الصناعات التى انشـــأها طلعت حرب قد امتصت عددا كبيرا من عمال الزراعة ، ورفعت من مستوى معيشتهم حتى وصلت الى اربعة اضعاف ما كانوا يتقاضونه وهم عمال زراعيون . وفى

امتصاص الصناعة لهؤلاء العمال تقليل لعددهم افاد بطريقة غير مباشرة فى رفع أجور الباقين منهم وتحسين مستوى معيشتهم . هـذا الى الانخفاض المحسوس الذى اصاب أسعار السلع التى تم صنع نظيراتها فى مصر ، حتى ان الباحث المدقق ليقدر ما افاد البلاد من جراء الصناعات التى اقيمت عن طريق بنك مصر باضعاف ما عرف عنها فى الأجور والمرتبات

وهنـاك ناحية كريمة سهر على تحقيقها طلعت حرب وهى حماية الثروة الزراعية والعقارية الأهلية من الانهيار ، وبقـدر ما كان عليه من حزم وحرص شديد على مال المساهمين ، فقد وقف فى ازمة سنة ١٩٣٠ الى جانب كثير من البيوت المصرية ، فوقاها العثار وامنها الشر ، بأن مد فى الآجال ، وخفف الأعباء ، واحجم عن التصفية ، ولم يقبض يده حيث وجب البذل ، وأزاح عن الكثيرين غاشية الكرب . وكان فى هذا كله مخرج كريم لأسر من أعز الأسر

جهاده فى تاسيس الشركات الكبرى

وهكذا نجح البنك ، واقبل المصريون عليه فى ثقة وطمأنينة فاودعوه أموالهم من نقد واقطان وحبوب ، وما احس طلعت حرب بالأموال تختزن فى البنك حتى اخذ فى تنفيذ برنامجه الذى رسمه فى خطبة افتتاح البنك من اقامة الصناعات واحيائها فى مصر . فانشا مطبعة تزود البنك بالسجلات والمطبوعات والأسهم والسندات ، وهى تعد الآن اكبر دار للطباعة فى الشرق واحدثها عددا وآلات . واقام شركة لحلج الأقطان بدات عملها فى مغاغة بوابور حليج واحد وهى الآن تدير تسعة وابورات فى مختلف المدن التجارية فى البلاد

واحس بعد ذلك حاجة البـلاد الى نقل الأقطان بأجور

معتدلة لا ترهق التاجر المصرى ، فاقام شركة مصر للنقل والملاحة . وحين كملت هذه الحلقة تطلع طلعت حرب الى غاية طالما تاق الى تحقيقها للبلاد ، وهى بحق فى المرتبة الثانية بعد الغذاء ، وقد توافرت مادتها فى البـــلاد وكانت مرتعا خصبا للدول الأخرى .. هـــذه الغــاية هى غزل القطن ونسجه واخراجه كساء للشعب بأسعار لا ترهقــه ، ومن مادة نقية متينة ، الى غير ذلك من الاعتبارات التى تحول بين اموال المصريين وتسربها الى الخارج ، فاقام شركة مصر للغزل والنسج بالمحلة الكبرى ، وانها لمفخرة المصريين الآن. وقد روعى فى اقامتها ما فات اعرق الأمم فى الصناعات ، فمن مصنع للغزل ، الى مصـــنع للنسيج ، الى مطبعة للصباغة والتلوين ، الى الاخراج سلعة تباع . كل هذا فى صعيد واحد يشغل رقعة من الارض تبلغ ٢٢٥ فدانا

كفاحه لنجاح الشركات

ومن الخير ان اشير الى حادث خطير عنى به طلعت حرب وشغل باله ، فان مصانع لانكشير وبرادفورد فزعت حين ترامت اليها اخبار هذه الشركة من حسن استعدادها وما ستكون عليه من انتاج لسد حاجة مصر وجانب كبير من الدول الشرقية ، فاعدوا العدة للقضاء عليها ، وكان ان اتحدت مصانع القطن فى انجلترا واتفقت على اقامة شركة لها فى مصر تناهض شركتنا العزيزة وهى ما تزال تحبو ، فلما احس طلعت انهم بداوا تنفيذ مؤامراتهم اوحت اليه خبرته ونفاذ بصيرته بالسفر الى انجلترا ، وبعد دراسة وبحث تم الاتفاق بينه وبين هذه الشركات على قصر عمل الشركة الانجليزية على الطباعة والصباغة للغزل والنسج الرفيع من القطن المصرى ، وعلى ان تقام الى جانبها شركة

مصرية جديدة لغزل ونسج هذا الصنف من الخامات . وفعلا انشئت شركة صباغى البيضا ، وشركة كفر الدوار ، وبهذا هدات نفس طلعت حرب

▭

ولما تمت هذه الجولة الكريمة راى طلعت حرب ان القطن فى البلاد يفيض كثيرا عن حاجة المصانع فاقام شركة لتصدير هذا الفائض

وفى العام نفسه الذى اقام فيه شركة لغزل القطن ونسجه بالمحلة ، اقام شركتين لصناعتى الكتان والحرير ، وبهذا تمت حلقة من الشركات تحقق للبلاد الفائدة المرجوة من محصولاتها الرئيسية وتضمن للشعب كساءه بأسعار غاية فى الاعتدال

ولما احس طلعت حرب ان سلع شركات القطن والحرير والكتان تواجه حربا خفية فى داخل البلاد ، اذ احجم الكثير من التجار عن شرائها ، اقام شركة لبيع مصنوعات شركاته ، فتحقق لها النجاح بفضل الله ، وكان اثرها عظيما ابان الحرب الاخيرة

ثم اتجه طلعت حرب الى نواح مختلفة من الاقتصاد القومى ، فاقام شركة لصيد الأسماك وصناعة الأزرار ، وشركة لاستخراج الرخام والجرانيت والبترول والكروم والمنجانيز . كما أقام شركة للطيران كان منها عامل عظيم فى توثيق الرباط بين مصر وفلسطين والشام والعراق ، وكذلك اقام شركة مصر للتامين ، وقد اصبحت تسد فراغا كبيرا وتقوم بالتامين لصالح شركات البنك والمصريين عامة ، وآخر شركاته شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت

لقد اساء بعض الناس فهم رسالة طلعت حرب ، ورموه بالتعصب لمصريته ، واصراره على احياء الصناعة فى مصر بأيد مصرية ومال مصرى ، كما رموه بانه يكره الاجانب لذاتهم ولا يرغب فى التعاون معهم . والحقيقة ان طلعت حرب كثيراً ما نادى بأنه يرحب بالتعاون مع الخبراء الأجانب ، وقد استخدمهم فى مختلف النواحي التى لايحسنها المصرى ، لكنه كان تعاونا موقوتا والى حين توافر لديه المصريون فسدوا الفراغ الذى كانوا يشغلونه . وتحقيقا لهذه الغاية أوفد الى الخارج بعثات فى مختلف الصناعات ، وفى مقدمتها الغزل والنسج وادارة وخدمة الفنادق والسينما ، ثم هو علاوة على استعانته بالخبراء الاجانب اشرك الأجانب معه فى كثير من الشركات ، كشركة الطيران ، وشركة التامين ، وشركة الغزل والنسج الرفيع ، وشركة تصدير الاقطان

عنايته بالمسرح والسينما

كان من يرى طلعت حرب ، وهو رجل العمل والكفاح والجد ، يظنه رجلا عبوسا لاتستهويه الفنون والموسيقى ، ولا يطربه الغناء والصوت الجميل ، لكن تاريخ هذا الرجل على النقيض من النظرة العابرة ، فانه وهو القائم علي هذه الأعمال الجبارة ، والمنشيء لهذه المشروعات الضخمة ، لم تفته ناحية الفنون وما لها من اثر فى حياة الشعوب ورقيها ، فقد اعتز بالفنانين وحباهم بعطفه وامدهم بماله . وحين راى انهيار المسرح المصرى أقام شركة مصر لترقية التمثيل العربي ، ولما طغت السينما بلفاتها الأجنبية على التمثيل انشا فى سنة ١٩٢٥ شركة مصر للتمثيل والسينما ، وجهزها بأحدث الآلات حتى ضارعت امهات الشركات فى اوربا وامريكا

وقد أبت عليه نفسه الا ان تكون الروايات والقصص أداة

طيبة للثقافة والادب الرفيع .. فأحدثت هذه الشركة فـ
لطبقة الممثلين وغيرهم من الفنانين ، حتى اصبحنا نرى بين
المصريين عددا من الممثلين والفنانين يبلغ دخله من الفيلم
الواحد آلاف الجنيهات ؛ بل لقد تجمعت لبعضهم ثروات
كبيرة ، وكان من اثر قيام هذه الشركة ان انشئت دور اخرى
لصناعة السينما ، وهي وان كانت قد توخت الناحيـ
المالية ، فان هذه الأموال كلها من المصريين واليهم ، وقد
حقق وجود هذه الشركة فوائد كثيرة فى نواح عدة

البنك الصناعى

ولطالمـــا نادى طلعت حرب بأن للبشر طاقة ، وانه
وجماعته وانصـــاره لايستطيعون النهوض باحيـــاء جميع
الصناعات على اختلاف انواعها ، وقد أهاب بالحكومة ان
تخطو الخطوة الاولى لتنمية الصناعات الأهلية وحمايتها
وذلك باقامة البنك الصناعى ، ووضع كتابا فى ٢٨ فبراير
سنة ١٩٢٩ يقع فى ٢٢٥ صحيفة اسهب فيه هو وجماعة
بنك مصر فى شرح النظم المعمول بها والمتبعة فى امهات دول
الغرب ، وكشف فيه عما يجب ان تكون عليه علاقة الحكومة
بالصناعات ، محددا نصيبها ونصيب الشعب منها ، وانتهى
الكتاب الى الضرورة الملحة لانشاء بنك صـــناعى لتمويل
الصناعات التى لم تبعث بعد ، ولتنمية الصناعات القائمة
حينذاك ، كما عاهد الحكومة على معاونة بنك مصر للبنك
الصناعى الى أن ينهض على قدميه ، فيصبح أخا وفيـا
لبنك مصر ، ويرتفع مستوى المعيشة ، وترقى حياة الأسرة
ويحس الأفراد والجماعات بالسعة فى الرزق ويعم الرخاء
ارجاء البلاد

طلعت حرب السياسى

وكان طلعت حرب سياسيا من طراز خاص ، فهو وان

كرس حياته كلها للعمل فى ناحية هى بحق اساس الاستقلال وعماد الكرامة والعزة القومية ، كان ينادى بضرورة اتحاد امم الشرق وتكتله حتى يسترد مكانته ، وقد بدا عمله لتحقيق هذه الفكرة بانشاء « بنك مصر سوريا ولبنان » ليكون منه السفير الصالح للرباط الذى يرجوه ، ثم أقام شركة مصر للملاحة البحرية تربط بين مصر والمملكة السعودية ، فضلا عما انشأته من صلات بين مصر واوربا .
وقام برحلات الى الحجاز جعلت منه اخا محبوبا لدى اهلها ، وبذلك قرب بين البلدين وقضى على ما كان بينهما من جفاء

كذلك قام طلعت حرب بزيارات عدة لكل دول الشرق ، عاملا على التوحيد بينها والألفة بين ابنائها . وهذا النوع من السياسة نوع عملي ناجح افادت منه البلاد ، وامتد أثره حتى كانت الجامعة العربية .. وكان اتحاد دول الشرق

ولم يقف نشاطه السياسى عند هذا الحد ، بل امتد الى الغرب ، اذ راى ان بلاده فى حاجة الى الدعاية الدائمة . ولن يكون هذا فى خطاب يلقى او مقال ينشر ، بل بعمل مادى ملموس واثر ظاهر محسوس ، فانشأ فى باريس « بنك مصر فرنسا » فكان منه الدعاية الناطقة بأن مصر غيرها بالأمس ، علاوة على الخدمات الكثيرة التى اداها للمصريين فى الخارج

وكان طلعت حرب الى ذلك كله حريصا على الا يخلط بين السياسة والعمل ، فصرح غير مرة بانه يجب أن تكون التجارة والصناعة فى هذا البلد فى منأى عن السياسة الحزبية

ولا يفوتني أن أسجل لطلعت حرب موقفا كريما جديرا

بالتقدير ، قمينا بأن يتخذ مثلا صالحا لمن يعمل فى مقد
الصفوف منكرا لذاته ، مؤثرا عليها العمل النافع ، فحين
اعترضت البنك تلك الأزمة المعروفة فى سنة ١٩٣٩ عق
قيام الحرب الأخيرة ، ولحقت به مفتريات ما أنزل الله ب
من سلطان ، وحينما أساء الى طلعت حرب نفسه بعض
الحساد والحاقدين ، بقى هو قوى الايمان بنفسه وبمتا
مركز البنك ، كبير الثقة بأن الحقيقة سيكشف عنها الناس
ذلك انه لم يفكر فى شخصه عند هذه الكارثة ، ومع الالحا
الكبير من مريديه عليه فى ان يتكلم ، ابى الا ان يلزم الصمت
وكان يكرر دائما : « ان الفناء مصير كل حى ، وما ار
الا الحياة للبنك وشركاته ، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب
ينقلبون »

وما هى الا فترة قصيرة بعد تنحيته عن البنـــك حت
ذهب الزبد جفاء ، وأمن البنك والشركات ماحيك لها م
دسائس ، فخرج مع شركاته منتصرا ظافرا ، ترد جمي
بحيويتها الكامنة على هذه المفتريات ، وتدل على أن هـ
المؤسسات كانت متينة البنيان ، قوية الأســاس ، وا
المهيمنين عليها كانوا من خيرة الرجال

علی مبارک



علي مبارك

« هو الطفل الفلاح الذى كافح فى طريق من الاشواك حتى عرف آخر الأمر أنه خلق ليكون معلمـــا لأبناء وطنه ، فاتجه بكل قلبه وكل عزيمته وكل اخلاصه الى التعليم »

المعلم المصرى الأول

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

كان العصر لايعرف الاستقرار، وكانت اسرة الطفل «على» لا تعرف الاستقرار كذلك . كان ابوه الشيخ مبارك من اسرة متواضعة تعرف باسم « المشايخ » فى قرية برنبال بمديرية الدقهلية . واضطر الاب أن يهاجر من قريته عندما ضاقت به الحال فيها ونزل فى قرية أخرى بمديرية الشرقية وكان ولده على طفلا فى السادسة من عمره . ولكن قرية الحماديين التى حل بها لم تكن اوسع رزقا من قريته الاولى فحمل أهله مرة اخرى وارتحل فى الارض حتى نزل فى نجع من نجوع قبيلة (السماعنة) واتخذ لنفسه ولأسرته خيمة يعيشون فيها كما يفعل اهل القبيلة . ومن حسن حظه أن (السماعنة) كانوا فى حاجة الى فقيه يعلمهم الدين فوجد الشيخ الطيب لأول مرة فى حياته مكانا يستقر فيه ، واصبح بعد قليل موضع حب القبيلة واكرامها

وكان الطفل على يمرح فى الحقول مع اطفال النجع ولايحب الذهاب الى المكتب بالرغم من نصائح والده وبكاء امه لأنه كان لايجد فى المكتب الا العصا والجمود الممل والحرمان من الضوء وخضرة المروج . واجتمع حوله ذات ليلة ابواه واخواته البنات السبع واخذوا ينصحونه ويبينون له فائدة التعليم وهو يصر على الاباء ولا يبالى بالتهديد ولا بالدموع . وسأله ابوه آخر الأمر عما يريد أن يصنع بنفسه فأجاب فى

بساطة : « لا احب ان اكون فقيها ، واذا كان ولا بد من التعلم فانى اريد أن اكون كاتبا نظيفا »

ونزل ابوه على ارادته فارسله الى كاتب فى القرية المجاورة ليعده للمستقبل الذى يريده . واقام الطفل فى بيت ذلك الكاتب بين عياله الكثيرين من زوجاته الثلاث ، فكانت حياته الجديدة اقسى عليه من الذهاب الى المكتب . كان يبيت في كثير من الاحيان يتضور جوعا ثم يخرج فى الصباح الباكر مع الكاتب ليتمرن على اعماله فيقضى كل وقته فى خدمة الرجل ولا ينال منه شيئا من التعليم

وحدث يوما أن سأله الكاتب امام ناظر القسم عن حاصل ضرب الواحد فى الواحد فأجابه انه : « اثنان » ، فما كان من الرجل الا أن قذفه بقلاة بن كانت امامه فشج راسه وسالت دماؤه . فانتهز على المسكين فرصة خروج الناس الى مولد السيد البدوى ، واندس بينهم خارجا من القرية وسار فى الطريق يسأل الناس عن قرية المطرية التى تقيم فيها خالته . ولم يقو جسم الطفل الصغير على تحمل مشقة السير وقضاء الليالى فى العراء ، فمرض فى الطريق مرضا شديدا فى قرية (صا الحجر) واشفق عليه رجل من اهل القرية فآواه عنده حتى شفى بعد اربعين يوما . ثم بلغه ان والده جاء الى القرية ليبحث عنه فتحامل على نفسه وهرب ذاهبا الى الطريق مرة اخرى حتى عاد الى قريته الاولى (برنبال) حيث كان يقيم اخ له من ابيه

وعرف اهله بمكانه بعد حين فذهبوا اليه والتفوا حوله مرة اخرى ليتشاوروا فيما يعملون من اجله واستقر رايهم على أن يدخلوه فى خدمة كاتب المساحة ليتعلم منه صناعته

وارتاح علي فى أول الأمر مع ذلك الكاتب ، وكان يفرح بالنقود القليلة التى كان الرجل يهبها له من الرشاوى التى يجمعها من الناس . ولكنه كان طفلا صغيرا لايعرف ان

المرتشى لايحب ان يتحدث الناس عن اسراره ، فكان يثر مسرورا عن النقود التى تصل الى جيبه مما يجمعه الكاتب من اهل القرى . فما كاد الرجل يسمع بما يقوله الطفل حتى طرده من خدمته. فعادعلى الى قريته حائراً لايعرف لنفسه وجهة حتى سعى له ابوه مرة اخرى فالحقه بخدمة كاتب آخر فى مامورية (ابى كبير)

□

وكان فى هذه الفترة قد اتقن الكتابة ، فعينه الكاتب مساعدا ليبيض له دفاتره بمرتب خمسين قرشا فى الشهر ، وجعله يقيم معه فى بيته . ولكن مضت اشهر ثلاثة ولم يعطه الكاتب مرتبه محتجا بانه يطعمه فى بيته . فغضب على وعزم على ان ياخذ حقه بيده واخذ من الاموال التى حصلها الكاتب اجر الشهور الثلاثة ، وكتب بها ايصالا جعله فى كيس التحصيل وبعث بذلك الى الرجل . فما كان من الكاتب الا ان دبر له مكيدة لينتقم منه ، فسعى عند حاكم المدينة لادخاله فى الجندية . وفى اليوم التالى قبض الحاكم عليه والقى به فى السجن وتركه هناك مدة عشرين يوما ذاق فيها مرارة الظلم الرخيص والجوع والأذى ، ولم يجد من احد رحمة الا من السجان الذى رق له لصغر سنه فسعى فى الافراج عنه وساعده على الاتصال بخادم مامور زراعة القطن فى (ابى كبير) وفى نظير قطعة من الذهب قيمتها عشرون قرشا سعى ذلك الخادم حتى اوصله الى مامور الزراعة

وكان مامور الزراعة رجلا حبشى الأصل اسمه عنبر افندى يمتاز بالوداعة وطيبة القلب ، فرتب للصبى خمسة وسبعين قرشا فى الشهر كما رتب له جراية من الطعام كل يوم وادخله فى خدمته . ولاول مرة فى حياته وجد على

شيئا من الاطمئنان والراحة وبعض النقود فى جيبه

ولكن المخاوف والآلام التى قاسـاها فى السجن كانت تجعله دائم الخوف من غضب سيده اذا بدا له ان يغضب عليه فى يوم من الايام . وسمع يوما وهو فى مجلس عنبر افندى ان هنـاك مدرسة فتحها الوالى اسمها مدرسة «قصر العينى» لتعليم الاولاد الخط والحساب واللغة التركية لكى يصيروا موظفين فى الحكومة بعد تخرجهم . فسأل فى سذاجة : « اهذه المدرسة تقبل ابناء الفلاحين ؟ »

ولما عرف ان ذلك ممكن لمن يساعده الحظ خفق قلبه املا واخذ يجمع كل مايستطيع جمعه من اخبار تلك المدرسة ويسأل عن طريق الوصول اليها والمسافة التى يجب عليه ان يقطعها حتى يصل اليها واسماء البلاد التى فى الطريق ، حتى اطمأن الى انه عرف مايكفى

وفى ذات يوم استأذن عنبر افندى فى زيارة اهله عازما على ان يبدأ فى تحقيق امنيته

ولكن أهله لم يوافقوه واخذت امه تبكى وتستعطفه حتى لايفارقها ، واضطر الى البقاء فى النجع يرعى قطيعا من الغنم

وبقيت صورة المدرسة تعاوده فى ساعات ليله ونهاره حتى انتهز فرصة نوم النجع فى ليلة من الليالى وخرج من بين الخيام متسللا وهو خائف يترقب ، وكان هذا آخر عهده بالاقامة مع ابويه

وانتهى به السير فى الطريق الى قرية (منية العز) وكان فيها مكتب يعد الأولاد للدخول فى مدرسة القصر العينى فسارع اليها وما زال حتى التحق بها ، واقبل على الدراسة بحماسة المجاهد فى سبيل تحقيق غاية كبرى

ولقى فى مدة الدراسة بهذه المدرسة عقبات اخرى كان يواجهها واحدة بعد واحـدة ويتخطاها منتصرا ، وكانت

العقبة الاخيرة منها يوم جاء مفتش التعليم ليختار التلاميذ اللائقين للالتحاق بمدرسة قصر العينى ، وواتاه حسن الحظ ففاز آخر الامر بأمنيته واصبح تلميذا فى المدرسة التى تعلق قلبه بها . وكانت سنه عند ذلك لا تزيد على اثنى عشر عاما

ولكن مفاجاة قاسية كانت تنتظره بمدرسة قصر العينى . ما كاد يدخل هذه المدرسة المأمولة حتى دبت الخيبة الى قلبه وكادت تحطم امله . كانت لا تزيد على معسكر يتعلم فيه الأولاد السير العسكرى ، وكان المعلمون يضربون التلاميذ ويوجهون اليهم انواع الاهانة والسب بغير حساب . وكان الفراش الذى ينامون عليه من حصير الحلفاء ، والطعام الذى يقدم لهم تافها كريه الطعم ، ولم يجد الصبى مع هذا كله شيئا مما كان يطمع اليه من التعليم . فلم يلبث ان مرض مرضا شديدا كاد يودى بحياته ، واجتمع عليه ضعف المرض وخيبة الامل والم الندم على ترك اهله بغير فائدة . ففكر فى الهرب مرة اخرى ولكن الى اين ؟ وماذا تكون نتيجة هربه من المدرسة ؟ كانت عقوبة الذين يحاولون الهرب كافية لجعله يرجع عن اية محاولة من هذا النوع لأن اهل التلميذ الهارب كانوا يساقون الى السجون ويتعرضون لألوان شتى من الاهانة والعذاب

وقد جاء ابوه ذات يوم لزيارته وعرض عليه ان يساعده على النجاة من تلك المدرسة ، وكاد يمهد له سبيل الهرب بالاتفاق مع بعض خدم المدرسة . ولكن على ابى ان يطيعه خوفا عليه من عواقب هذه المحاولة . ثم جاءت اللحظة الحاسمة فى حياة على مبارك عندما نقلت المدرسة من قصر العينى لتجعل فى مكانها مدرسة الطب الجديدة التى ماتزال الى اليوم هناك . واختير للمدرسة الاولى مكان آخر فى (ابى زعبل) بعيدا عن القاهرة فخيل الى الصبى ان كل

شيء قد انتهى الى الخيبة الكاملة . ولكن المقادير ساقت له هنا رجلا كان له الفضل فى توجيه حيـــاته وجهة اخرى وحددت له طريقه فى الحياة تحديدا شاملا . كان الناظر الجديد الذى اختير لمدرسة (ابى زعبل) رجلا له ضمير انسان وقلب مؤمن بالوطن وهو ابراهيم بك رافت . ولاشك ان اعجاب الصبى بناظره الجديد ترك فى نفسه اثرا عميقا جعله يتجه بكل قلبه الى تقديس وظيفة المعلم المخلص

□

كان ابراهيم رافت يجمع المتاخرين من التلاميذ ويتطوع بالتدريس لهم فى فرقة خاصة ، وكان من بينهم على مبارك . ومن الدرس الاول بدأ الصبى يتغير وينظر الى مدرستــه نظرة اخرى كلها امل وكلها حماسة . وبعد قليل تحول على مبارك من تلميذ متخلف بائس الى تلميذ آخر نشيط مبتهج ولم ينس فيما بعد انه مدين لعطف ذلك الاستاذ الجليل واخلاصه فى اداء واجبه فكان يبذل جهده عندما صار معلما ان يهب كل عطفه وكل نشاطه لتلاميذه

وبعد اربع سنوات تخرج على مبارك فى مدرسته ودخل فى مدرسة (المهندسخانة) ببولاق مخلفـــا وراءه الطريق المملوء بالاشواك . وفى خمس سنوات اخرى اتم دراستــه العليا ، وكان فى طليعة المبرزين من نجباء خريجى مدرسة الهندسة ، فاوفد فى بعثة علمية الى فرنسا

ولكن الشاب ابن العشرين كان اكثر من شـــاب طموح يشق طريقه فى الصخر والشوك ، لانه لم ينس عند سفره الى فرنسا ان يوصى بقسمة مرتبه الى نصـــفين احدهما لوالده الشيخ والثانى لنفقته الخاصة فى بلاد فرنسا ، وكان كل مرتبه مائتين وخمسين قرشا كل شهر

وامتدت دراسة الشاب الى ست ســـنوات فى فرنسا ، وكانت سنوات عريضة غزيرة ، مليئة بالدرس والملاحظة والنمو . ولما عاد الى وطنه بعد ذلك عين مدرسا فى مدرسة (طرة) وذلك فى ايام الخديو عباس الاول

وكان الخديو عباس الاول غريب الاطوار يجمع بين ضيق الافق والغطرسة ، وكان من اول ما بدا له ان يغلق معاهد التعليم التى انشاها جده محمد على . فامر بان (يفرز) تلاميذ المدارس جميعا ليختار منهم عددا محددا يجمعهم فى مدرسة واحدة ويغلق ابواب المدارس الاخرى

واختار هذه المدرسة الوحيدة فى (ابى زعبل) وسماها المدرسة (المفروزة) . وكان حزن على مبارك عظيما عندما راى تلاميذه يفرزون وترسل منهم مجموعة الى (المفروزة) ولم يبق له (فى مدرسة طرة) الا عدد قليل من كبار السن المتخلفين (تحت التصفية) . فكادت عزيمته تنهار من هذه الصدمة لولا انه وطد العزم على ان يبذل كل ما يملك من قوة وارادة فى تعليم ابناء وطنه ايا كانوا

وهزه عند ذلك الحنين الى وطنه ، ولم يكن راى امه منذ فارقها من سنين طويلة فعزم على الذهاب الى قريته ليلم باهله حينا . وكانت زيارته تشبه المواقف الخيـــالية فى الاساطير القديمة ، فقد طرق الباب وسمع صوت امه تنادى من وراء الباب : « من انت ؟ » ، فاجابها : « انا على ! » وفتح الباب الضخم ووقفت الام امامه تنظر اليه ولا تصدق عينيها . كان الشاب فى لباسه الانيق والسيف مدلى الى جانبه وقد اصبح طويلا ممشوق القوام يلمع وجهه بالقوة والابتهاج . ففتحت له الام ذراعيها وعانقته عناقا حارا وهى تبكى ثم وقعت مغشيا عليها

ولما افاقت جعلت تبكى حينا وتضحك حينا ثم اخذت تزغرد وتتكلم وهى تحسب انها فى حلم سعيد . واقبـــل

اهل البيت على صوتها واجتمع الجيران من كل جانب حتى امتلأ بهم البيت ولم ينصرفوا حتى طلع عليهم الصباح. كانت تلك اول مرة ترى فيها القرية ولدا من ابنائها يعود اليها وهو يلبس لباس السادة الحكام!

وارادت الام ان تطيع سعادتها وتولم وليمة عظيمة لجيرانها احتفالا بعودة وحيدها على هذه العودة التى لم يحلم احد من اهل القرية بمثلها. ولكنها لم تجد معها شيئا تعد به الوليمة وظهرت الحيرة فى وجهها وفى حركتها المضطربة، ولاحظ الشاب حيرة امه فاخرج لها عشر قطع من جنيهات الذهب لتحقق بها رغبتها

□

وعاد على مبارك الى ميدان العمل فاسندت اليه وظيفة بعد اخرى، ولكنه كان لايرتاح الا الى عمل واحد وهو التدريس. وكان سروره عظيما عندما اسندت اليه نظارة المدرسة (المفروزة) وهو يقول فى ذلك:

« وفى مدة نظارتى للمدرسة كنت اباشر تأليف كتب المدارس بنفسى مع بعض المعلمين، وجعلت بها مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها نحو ستين الف نسخة من كتب منوعة » .. وقال ايضا: « ولكن ذلك لم يشغلنى عن التفاتى للتلاميذ فى ماكلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم وغير ذلك، وكنت اباشر ذلك بنفسى حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب، والاحظ المعلم كيف يلقى الدروس وكيف يؤدب التلاميذ ولا يمضى يوم الا وادخل عند كل فرقة واتفقد أحوالها .. »

ولكن جزاء الشاب على هذا الاخلاص فى اداء عمله كان تجربة مرة قذفت به بعيدا عن ميدان التعليم وذلك ان

الخديوغضب عليه فجاة على اثر وشاية دنيئة ، فأمر بارساله مع الجيوش المحاربة الى الدولة العثمانية للاشتراك فى حربها مع روسيا . وكان عند ذلك لم يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره . وكان فى وداع تلاميذه له عند مفارقته لهم عزاء كاف له . وقفوا جميعا على شاطىء النهر ليشيعوه الى السفينة التي ستنقله الى الاسكندرية . ولم يملك التلاميذ اعينهم من البكاء ولم يستطع على مبارك ان يقاوم شعوره فانحدرت الدموع على وجهه كذلك . وسافر فى رحلته الطويلة بنفس ثابتة راضية لانه سيرى بلادا لم يرها من قبل وسيقف فى مواقف جديدة لم يقفها من قبل وسيجرب تجارب أخرى تزيده معرفة وخبرة

وانتهز فرصة وجوده باستانبول مدة اربعة أشهر فتعلم اللغة التركية ، واقام فى بلاد (القرم) مع الجيوش المحاربة عشرة أشهر انتقل بعدها الى بلاد الاناضول فأقام فى اقليم وعر جبلى شديد البرد وكان ذلك فى فصل الشتاء . فكثرت اصابات المجندين بالامراض الناشئة عن البرد الشديد ، واخذ على مبارك على نفسه ان يتعهد امور المرضى بنفسه لانه لم يجد هناك احدا آخر يتعهدهم . فأخذ يجمع الاموال تبرعا من الناس ، ولما لم يجد احدا من الاطباء يساعده فى عمله الانساني اختار رجلا ممن لهم خبرة بالعلاج على طريقة اهل الاقليم وشاركه بنفسه فى خدمة المرضى . وكانت عنايته واخلاصه فى هذه الخدمة كافية للتعويض عن جهله وجهل شريكه بفنون العلاج . فأثمر المستشفى ثمرة طيبة جعلت اهل الاقليم يكتبون له وثيقة يسجلون فيها اعترافهم بحسن صنيعه . ولكنه عاد الى مصر بعد هذا الجهاد الطويل ليستقبله مازق شديد كان له اثر عميق فى نفسه الحساسة . ولكى نعرف سر ذلك المازق لا نجد مفرا من التحدث قليلا عن حياته الخاصة

كان على مبارك قد تزوج عقب عودته من بعثته فى اوربا بابنة احد مدرسيه فى المدرسة الثانوية ، عندما توفى عنها ابوها ولم يكن لها فى الحياة من يعولها . وكانت زوجة طيبة وفية بذلت له جزاءه من السعادة فى حياتهما المشتركة ، ولسوء الحظ ما لبثت حتى عاجلها الاجل بعد قليل . وحزن عليها حزنا شديدا جعله يعزف عن الزواج حينا طويلا ، ولكنه تزوج مرة ثانية من احدى بنات الاعيان وكانت وارثة تملك ثروة كبيرة ، فوق ما كانت عليه من الجمال . وحاول الشاب جهده ان يكون زوجا شهما فاحسن معاشرتها وتعفف عن اموالها ولكنها كانت تعامله مثل طفلة مدللة . وكان اهل الزوجة لاينسون انه من اسرة قروية وانه فلاح وابن فلاح برغم ما كان عليه من النبوغ فى العلم وما امتاز به من كريم الخصال . وبدات الاحاديث السامة تفسد العلاقة بين الزوجة الصغيرة الغريرة وزوجها الشاعر بكرامته وخلا الجو لأهلها فى مدة غيابه فى بلاد تركيا فاوغروا صدر المراة على زوجها ، حتى اذا ما عاد من سفره الطويل وجد نفسه هدفا لمكيدة دنيئة واسعة النطاق لم تلبث ان انتهت بالفراق . ولم يقنع أصحاب المكيدة بذلك بل سعوا عند الخديو لفصله من خدمة الحكومة وتم لهم ما ارادوا . ويقول على مبارك عن نفسه فى هذا الموقف : « كانت حالتى بعد سبع سنين من عودتى من اوربا مثل حالتى عند اول عودتى منها وذهب كل ما كسبت من الاموال وضاع كل ما شغلت من المناصب ولم يبق بالخاطر الا ما فعل الناس معى من خير وشر وما اكسبنى الزمان من صدماته وغرائب تقلباته »

وعزم على الذهاب الى الريف ليحيا هناك بين أهله ويرتزق من كده وعمله كما يرتزقون . ولكنه لم يلبث ان طلب لخدمة الحكومة مرة اخرى فتقلب فى وظائف مختلفة لم يشعر فى واحدة منها بالاطمئنان او الرضى . ثم هيات له

الظروف ان يعود الى الوظيفة التى يحبها من اعماق قلبه وذلك عندماكان مسافرا مع الخديو سعيد فى مريوط ، واخذ الخديو يتحدث الى من حوله عن تعليم الضباط وصف الضباط ، واخذ يسالهم عمن يريد منهم ان يتطوع لتعليمهم. وكانت دهشة الجميع عظيمة عندما تقدم على مبارك متطوعا ليكون هو معلمهم . وهو يقول فى هذا عن نفسه : « كيف لا ارغب فى انتهاز فرصة تعليم ابناء الوطن وبث فوائد العلوم فيهم ؟ » واتخذ مدرسة فى خيام متنقلة مستخدما كل ما يتهيأ له من الوسائل للنجاح فى تعليمه . ولم يقتصر فى مدرسته المتنقلة على تعليم القراءة والكتابة والحساب بل علم تلاميذه الهندسة والفنون العسكرية والاستحكامات وسوق الجيوش وطرق الحرب

ولكن عصر سعيد المضطرب قذف به بعد قليل الى الخارج فوجد نفسه عاطلا من الوظيفة واضطر الى ان يرتزق بالاشتغال بالتجارة . ونجح فى هذه المرة نجاحا عظيما حتى انه فكر فى انشاء شركة تجارية لانشاء المنازل وبيعها

ثم تولى الخديواسماعيل بعد موت سعيد ، وكان من اول اعماله اعادة على مبارك الى خدمة الحكومة وعهد اليه بنظارة القناطر الخيرية ، وكان يكل اليه من الاعمال ما يحتاج الى البراعة فى فنون الهندسة . وبعد ست سنوات من اعمال هندسية مختلفة اضاف اليه اسماعيل ادارة ديوان المدارس وكانت سنه عند ذلك ستة واربعين عاما . فوثب الرجل الى فرصته بحماسة تدعو الى العجب والاعجاب معا. كانت وثبته تلك هى نقطة التحول فى حركة التعليم بمصر ومن تلك اللحظة وضع الاساس الاول للتعليم الذى نعرفه اليوم. وهو يحكى عن نفسه قائلا : « كانت كثرة اشغالى لاتشغلنى عن الالتفات الى ما يتعلق باحوال التلاميذ والمعلمين فكنت كل يوم ادخل عندهم بكرة وعشيا عند غدوى من البيت

ورواحي اليه واعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية »

ثم قال ايضا : « وقد تأسس هذا المشروع وثبت وسرت فيه الى أن انفصلت عن المدارس وحصلت منه على نتائج حسنة »

وانشا مطبعتين لطبع الكتب المدرسية كما انشأ دار الكتب المصرية الاولى ليرجع اليها المعلمون ، وجمع فيها الكتب القديمة الثمينة المتفرقة فى المساجد وغيرها . ومما يسترعى النظر انه انشا لاول مرة فى مصر معملا للعلوم جمع فيه آلات العلوم الطبيعية والرياضية ليكون عونا للمعلمين على جعل الدراسة عملية قائمة على التجربة

وقد اهتم ببناء المدارس واصلاح ما يحتاج منها الى الاصلاح ، وكان بذلك رائدا للعصر الحديث فى التعليم ، ولعل اكبر مآثره فى التعليم انشاؤه لدار العلوم حتى يعد للمدارس من تحتاج اليهم من المعلمين الصالحين تمهيدا للجهاد فى نشر المدارس فى ربوع البلاد لأنه كان معلما أصيلا يعرف ان كل محاولة فى نشر التعليم بغير اعداد المعلم الصالح لا تجدى البلاد شيئا

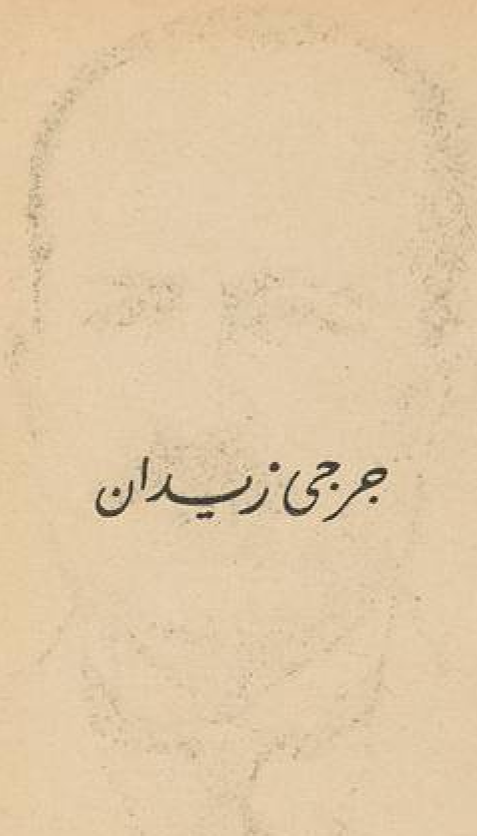
وقد شجع الشبان من خريجى المدارس العالية على الاشتراك فى التعليم ، فكان يختار خريجى مدارس المهندسخانة والمحاسبة والادارة ليكونوا مساعدين للمدرسين حتى يستطيعوا ان يشتغلوا بالتدريس بعد أن يكتسبوا المران الكافى . وكان فى الوقت الذى يجاهد فيه هذا الجهاد لنشر التعليم وارساء اساسه يبذل جهدا آخر كبيرا فى الاعمال الهندسية ، فله الفضل فى تجميل القاهرة وميادينها . وكان هو الذى يقوم بالاتفاق مع الشركات الاجنبية التى ادخلت النور والماء لأول مرة الى بيوت المدينة

فى هذه الاثناء كان الشاب على مبارك قد صار كهلا تجاوزت سنه الرابعة والخمسين ، وبدا يحس عبء السنين واثر الجهاد المضنى وتجمعت عند الافق فى الوقت نفسه سحائب سود فيها برق ورعد تنذر بهبوب عاصفة هوجاء . وذلك ان الازمة المالية المشئومة كانت قد بدات تهز قواعد حكم اسماعيل ولم تلبث ان عصفت به بعد قليل . ومع انه اصبح ناظرا لديوان المعارف فى الوزارة التى انشاها اسماعيل عندما اشتدت الازمة فانه كان يحس ان جهاده الحقيقى قد انتهى . حقا انه انشا فى مدة وزارته بعض مدارس ممتازة لتكون نماذج للمدارس الجديدة مثل مدرستى طنطا والمنصورة ، وحقا انه بذل جهده فى نشر التعليم الحديث فى المدن والقرى ، ولكن اضطراب امور الحكم كان يفرض عليه قيودا لا طاقة له بها . واخيرا قامت الثورة العرابية ثم اعقبها الاحتلال البريطانى فوقفت حركة اصلاح التعليم ثم بدا الاحتلال الانجليزى يفرض سياسة اخرى غير السياسة التى وضع اساسها على مبارك ، وكانت تختلف كل الاختلاف عما كان يقصده معلم مصر الحديثة الاول

وقد اراد الشيخ وهو فى سن السادسة والستين ان يعتزل الوظائف ويعود الى قريته ليقضى ما بقى من عمره بين حقول الريف الخضراء التى احبها منذ كان طفلا وتحت اشعة الشمس اللامعة التى كان فى صباه يمرح فى فيضها مع لداته من ابناء الفلاحين الذين لم ينس يوما انه واحد منهم وان اعظم واجب عليه هو ان يعلمهم ويسمو بهم الى مرتبة البشرية العليا . ولكنه لم يتمكن من هذه الراحة التى يستحقها ، فقد دعاه توفيق ليكون ناظرا لديوان المعارف فى عهد الاحتلال ، وما كان امر عودته الى ذلك الديوان فى ظلال الاحتلال . ولم يستطع أن يتخلف عن الدعوة ولكن كلماته التى سجلها بقلمه تنم عما كان فى نفسه من الحسرة

والالم والخيبة . فقد قال : « تركت القرية عندما طلبت لهذه الخدمة واخذت فى تادية ما فرض على قيــــاما بحق وطنى .. وها انا الآن قائم بهذا الأمر على حسب الطاقة بقدر الامكان والله المستعان ! »

فكان مثاله كالجندى الذى لايدع العلم يهوى من يده حتى يخر وهو لايزال فى يده .. وادركه الأجل بعد اربع سنوات مخلفا وراءه اسما خالدا كاول معلم مصرى خالص جاهد من اجل رفعة مصر عن الطريق الطبيعى لرفعتها ـ التعليم . ولكنه خلف وراءه كذلك معنى خالدا آخر لأنه هو الطفل الفلاح الذى كافح فى طريق من الاشواك حتى عرف آخر الأمر انه خلق ليكون معلما لابناء وطنه . ومنذ تلك اللحظة التى عرف فيها رسالته اتجه بكل قلبه وكل عزيمته وكل اخلاصه الى التعليم حتى مات وقلبه خافق من اجل تعليم ابناء وطنه



جرجي زيدان



جرجي زيدان

هذا هو العصامي جرجي زيدان نشأ فقيرا ، فلم يحل الفقر ولا تحالف الشدائد دون ما يريد ، ووثب من بيروتي صغير الى عالم نابغة كبير

العصامى الموهوب

بقلم الأستاذ طاهر الطناحى

اذا ذكر العصاميون الذين بنوا انفسهم ، وشادوا للانسانية صروحا عالية فى مختلف الميادين باعمالهم المجيدة ، وجهودهم الممتازة ، فان جرجى زيدان فى المقدمة بين هؤلاء العصاميين الافذاذ ، فقد بلغ بالعصامية ارفع مكان فى ميادين العلوم والآداب والثقافة الحرة . وكانت حياته ابلغ درس للشباب المكافح ، واعظم عبرة للذين يقفون يائسين على الشاطىء ، لاتحركهم همة ، ولا تبعثهم ارادة على اجتياز الامواج ليصلوا الى ما يريدون من رقى ونجاح

لم يقف جرجى زيدان على شاطىء الحياة المدلهمة وهو فتى صغير يائسا من النور ، لان والده امى لايعرف فضل العلم ، او لانه فقير لايملك نفقات التعليم ، او لان ظروف العيش مزدحمة بالمتاعب ، بل نظر بعقل الصبى النابغ ، فوجد ان الرغبة الصادقة تحطم اقوى العقبات ، وان الارادة النافذة تحقق المستحيلات ، وانه كما قال ابن الوردى :

لا تقل اصلى وفصلى ابدا
انما اصل الفتى ما قد حصل

نعم ، لم يقل جرجى زيدان اصلى وفصلى حتى تثبط همته وييأس من النجاح ، بل اندفع الى تحصيل العلوم والآداب ،

وشق طريقه بنفسه الى المجد والرفعة ، واتخذ من فضل العلم خير اصل ، ومن جمال الأدب احسن نسب !

حادث اليم

نشأ جرجي زيدان فى عائلة متوسطة الحال ، ولكن الايام تنكرت لها ، فذاقت متاعب الفقر ، فقد كان جده زيدان مطر وكيلا على أملاك السيدة حبوس والدة الامير مصطفى ارسلان ، وكان وقتئذ فى سعة من العيش ، اذ كانت هذه السيدة تحكم « عين عنوب » وما يليها فى لبنان فى أوائل القرن الماضي . فلما حمل ابراهيم باشا على سورية وفتح عكا واراد الاستيلاء على لبنان خافت السيدة حبوس بطشه وسطوته ، فعزمت على الفرار من وجهه ، وطلبت من زيدان مطر ان يرافقها ، فاعتذر بمن عنده من اولاد واهل ، فتركته وقد حقدت عليه . فلما ضعف شان ابراهيم باشا عادت الى « عين عنوب » وصادرت أملاك زيدان وأمواله ، وتعمدت الحط من شانه ، فشق ذلك عليه ، واثر فى صحته ، ومات قبل أوانه ، وقد خلف وراءه زوجة وابنين وابنتين اكبرهم حبيب والد جرجي زيدان

ولما كانت هذه الزوجة الارمل لا تستطيع البقاء باولادها فى هذه الحال بعين عنوب ، فقد نزحت بهم الى بيروت ـ وهى يومئذ مدينة صغيرة لا مرتزق فيها غير الاتجار وصنع ضروريات الحياة كالاطعمة والملابس ونحوها ، او خدمة الحكومة فى الكتابة والجندية

اسرة كادحة

وكان حبيب فى العاشرة حين نزل مع اسرته الى بيروت ، فلم يتسع له الوقت للتعليم ، فعاش اميا ، وانصرف لتحصيل الرزق واعانة اسرته ، ولم يزد عمله على مطعم صغير فى سوق ساحة البرج ببيروت . وكان هو وزوجته

ـ على الرغم من ضيق الرزق ـ مثال النشاط والجد فى العمل ، حتى قال عنهما جرجى زيدان فى مذكراته الخاصة :

« نشأت فى صباى وانا ارى والدى يخرج الى دكانه فى الفجر ، ولا يعود الا فى نحو منتصف الليل او قبيله ، وارى والدتى لا تهدأ لحظة من الصباح الى المساء . لا تعرف الزيارات ، ولا تغشى الاحتفالات ولا المجتمعات حتى الدينية ، فانها لم تكن تذهب للصلاة بالكنيسة الا نادرا ، وانما همها تدبير بيتها ، وتربية أولادها .. وقد شببت على ذلك والفته ، فغرس فى ذهنى : ان الانسان خلق ليشتغل وان الجلوس بلا عمل عيب كبير .. بخلاف الابناء الذين يفتحون اعينهم على والدين يقضون معظم ايامهم فى اللهو وشم الهواء . ولا يهمهم الا ماذا ياكلون ، وماذا يشربون . واذا فرغوا من الطعام عمدوا الى اللعب بالورق او غيره . ولا يقدمون على العمل الا مكرهين . يحسبون العمل عيبا او تعبا . ولو عولوا عليه لكفاهم مؤونة المرض والضعف

« فالأبناء الذين يربون بين اولئك الآباء ينشأون كسالى ، ويميلون الى الملاهى والرذائل ... »

فى هذه البيئة النشيطة ـ بيئة العمل المتواصل والجد والعصامية ـ نشأ جرجى زيدان .. ولقد كان والده كما قلنا اميا ، ولكنه شعر بالحاجة الى الكتابة والقراءة ليدون حساب مطعمه ، فاستخدم كاتبا لذلك . ودعته هذه الحاجة الى ان يرسل ابنه جرجى وهو فى الخامسة من عمره الى مدرسة حرة يديرها قسيس يدعى المعلم الياس شفيق . وكانت فى قبو وضيع ، يجلس التلاميذ فيه على حصير مبسوط على الارض . وقد امضى فى هذه المدرسة سنتين لم يتعلم فيهما شيئا غير فك الخط ، ثم نقله والده الى مدرسة تدعى مدرسة الشوام ، فتلقى فيها مبادىء الحساب

والنحو والصرف والخط واللغة الفرنسية ، وبقى فيها نحو عامين ، ثم اغلقت. فانتقل الى مدرسة المعلم طاهر خير الله فمكث بها عامين آخرين

فى مطعم ابيه

اصبح فى الحادية عشرة ، وذاق لذة العلم والتعليم وتفتحت نفسه بالامل الى المستقبل ، غير ان والده ما لبث ان دعاه الى مساعدته بالمطعم ليقيد اسماء الزبائن وحساباتهم ويلاحظ الحال ريثما يجد مساعدا غير المساعد الذى تركه وقد قال له :

« تعال يا جرجى لمساعدتى سبعة ايام او ثمانية ريثما اجد من يقوم مقامك .. » فأطاع والده وهو يعلل النفس بالرجوع الى المدرسة ، ولكن هذه الايام السبعة امتدت الى سبعة أعوام حتى خشيت والدته على مستقبله ... وقد قال فى مذكراته :

« ولما مضى على اشتغالي فى ذلك المطعم عام وبعض العام ، خافت والدتى أن يطول مقامى ويضيع مستقبلى . وكانت تكره المطاعم ، وكانت منذ طلبنى والدى لمساعدته تلح عليه الا يطول مقامى ، وهو يعدها .. فلما مضت السنة الاولى الحت عليه أن يخرجنى ، ويعيدنى الى المدرسة ، فقال لها : « انه قد اتم دروسه ، ولا فائدة من كثرة الدرس ، الا اذا كنت تنوين أن تجعليه كاتبا أو معلما . فضلا عن ان كثرة التعليم تجعله متفرنجا متأنقا لا يأكل الا بالشوكة والسكين ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الافرنجي ــ وكان هذا اللباس قليلا ، وكان الاكل بالشوكة والسكين لايزال معدودا من عادات المتفرنجين

« ولم يقل والدى ذلك فى نفور من المدنية ، ولكنه كان محبا للمحافظة على العادات الشرقية . وكان يكره التصنع

والتظاهر بمظاهر الافرنج ، فاقتنعت والدتي بهذا الجواب ، ولكنها ما زالت تكره ان أبقى في تلك الصناعة ، وقالت لأبي : ادخله في صناعة اخرى ، فاني اكره هذه الصناعة ورائحة الزفر والانحباس في الدكان ليل نهار — لا عيد .. ولا أحد — فاذعن لاعتراضها .. وبعد النظر قر رايهما على ان اتعلم صناعة الاحذية الافرنجية »

وقدكانت صناعة الاحذية الافرنجية وقتئذ حديثة العهد في بيروت ، وحجتهم في اختيارها له وهو في الثانية عشرة من عمره ان بعض البيروتيين مارسوها فاثروا منها وصار لهم اموال واملاك ، وقد مكث في هذه الصناعة سنتين تعلم فيهما اكثرها . ولكنه ما لبث بعد ذلك ان تركها لانها لم توافق صحته واصابه ضعف في معدته من الجلوس الطويل على الكرسي للعمل ، وخاف والداه عليه ، فقررا اعادته الى المطعم مؤقتا ريثما يفكران في صناعة اخرى لمستقبله !

صبر جميل

تذرع الصبي جرجي زيدان بالصبر ، فلم يكن امامه في ظلام الحياة ، ومحاربة الايام غير الصبر والامل .. ولكن اين الامل ؟ .. فليس حوله الا السدود والعقبات ، والا ما يبعث على الياس ، ولكن نفسه الكبيرة لم تعرف الياس . لذلك تذرع بالصبر وحده . والصبر محمود ، ولا سيما في هذه الحال التى لاحيلة فيها غير الصبر ، كما قال ابن الرومى :

ارى الصبر محمودا وفيه مذاهب
فكيف اذا ما لم يكن عنه مذهب
هو المهرب المنجى لمن احدقت به
مكاره دهر ليس عنهن مهرب

صبر جرجي زيدان ، وعاد الى مطعم ابيه — لا عودة الجبان المستسلم لقسوة الايام ، ولا الضعيف اليائس الذى

سدت فى وجهه الآمال ، وانهزم فى معركة الحياة ، فسئم جهاده ، وقعد كئيبا يندب حظه ، ويأسى على نفسه ، او يتعزى بغيره ممن هزمهم الدهر ، فاستسلموا للهزيمة واضاعوا اعمارهم سدى دون ان يكون لهم فى الحياة العليا سهم او نصيب .. كلا ، بل عاد الى مطعم ابيه كما يعود القائد الشجاع من الميدان ليتزود بالتفكير وانتهاز الفرص ويضع الخطط الجديدة ليواصل جهاده ، ويفوز بما قدر لهذا الجهاد الصادق من نصر فائق ومستقبل عظيم

بارقة امل

وكانت بيروت وقتئذ حافلة بأهل اللهو والبطالة ، وكان منهم من يترددون على هذا المطعم ، وكان الصبى جرجى يرى فى هذا الظلام ضياء الله ، ويلمح بالسريرة ما هيىء له فى المستقبل من مجد علمى وادبى ، فلم يلتفت الى ما حوله من فساد وجهل ولم ينزع الى ريبة ، ولم ينزلق فى مأثمة ثم ظهرت طبقة متعلمة تخرجت من مدارس الارساليات الدينية المسيحية من امريكية والمانية وانجليزية . وكانت هذه المدارس قد انشئت على اثر مذابح عام ١٨٦٠ لنشر العلم والادب على نهج التمدن الحديث ، وعلمت طائفة من الشبان الذين تكونت منهم الطبقة المتعلمة التى كان عليها المعول فى تغيير الآداب الاجتماعية فى بيروت . وكان جرجى زيدان ينظر الى هذه الطبقة وقتئذ وهو يشعر بتقصيره فى مجاراتهم فى التربية والتهذيب ، فكان يتقد غيرة ورغبة فى ان يأخذ مثلهم بنصيبه من العلم والتعليم

يتعلم الانجليزية فى المطعم

واتفق ذات يوم ان زار المطعم المعلم مسعود الطويل ـ احد المعلمين فى بيروت ـ فذكر انه فتح مدرسة يعلم

فيها الشبان اللغة الانجليزية ساعة قبل الغروب ، فرغب جرجي زيدان فى تعلم هذه اللغة لقاء ما يتناوله المعلم مسعود من طعامه فى المطعم ، وكانت سنه لا تزيد على خمسة عشر عاما ، فصار يتردد عليه فى بيته مع ١٤ تلميذا ، ومكث هناك خمسة اشهر ، قال له المعلم مسعود فى نهايتها انه تعلم الانجليزية جيدا ، فجرب قوته فى مطالعة كتاب « رحلة كوك فى جزائر المحيط » فرأى نفسه اقل كثيرا مما كان يظن ، فاخذ فى الدرس لنفسه حتى كان لا ينام الليل فى كثير من الايام

ولما شعر بانه على نصيب وافر من هذه اللغة لمعت فى نفسه ملكة التاليف التى ظهرت فيما بعد قوية عارمة ، فاخذ فى وضع قاموس انجليزى عربى فى ذلك الحين . وقد وصل فى تاليف هذا القاموس الى حرف (E) ولم يكن قد ظهر مثل هذا القاموس ، ثم مل هذا العمل لقلة وسائله . . على ان ذلك لم يثن عزمه عن العناية بتقوية نفسه فى اللغتين العربية والانجليزية ، فاخذ يطالع فيهما كتب اللغة والأدب

كتاب مجمع البحرين

وكان اول كتاب عنى به فى اللغة العربية واحب اقتناءه ، كتاب « مجمع البحرين » للمرحوم الشيخ ناصف اليازجي. وهو كتاب ادبى وضعه مؤلفه فى ستين مقامة على طراز مقامات الحريرى . وكان قد ابتاعه من احد باعة الكتب المتجولين . ولهذا الكتاب قصة طريفة يرويها جرجي زيدان فى مذكراته ، فيقول :

« كنت اسمع بكتاب مجمع البحرين ، واحب اقتناءه . لكنى كنت استغليه ، لان ثمنه على ما اظن كان اربعة فرنكات او خمسة ، ففى ذات يوم كنت جالسا بالمطعم ، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملا ، وهو يعرضه للبيع ، فاشتريته

منه بتسعة قروش بيروتية اى اقل من نصف ثمنه ، وفرحت به كثيرا . ولما رجع والدى سألنى عنه ، فاخبرته انى اشتريته بتسعة قروش ، فزعل ، وقال : « اتدفع فى هذا الكتاب تسعة قروش ، وتبدل الدراهم بورق » !

« فزعلت ولم أجبه ، ولما انصرفنا للبيت فى المساء ، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء ، اظهرت انى لا اريد الطعام ، وذهبت للنوم ، وانا اتوقع ان يدعوانى ، ولا يتركانى انام جائعا . وسمعت والدتى تعنف والدى لاغضابى حتى نمت بلا اكل ، ولكنه اصر على رأيه .. واتفق أن جاء أمين فياض احد اصدقاء والدى للسهرة عنده فى تلك الليلة ، وكان يتودد الى ، فسأل عنى ، فقيل له انى نمت. واغتنمت والدتى هذه الفرصة ، وشكت اليه عناد والدى ، فسأله عن سبب غضبه ، فقال : « انه يصرف الدراهم فى شراء الورق بلا فائدة » !.. فأجابه : « أشكر الله يا ابا جرجى ان ابنك ينفق الدراهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه . انها نعمة يجب ان تشكر الله عليها »

« وسمعت كلمات هذا الصديق وانا اتظاهر بالنوم . وللحال اشتد ساعد والدتى ، وقامت فايقظتنى، واجلستنى الى المائدة ، وطيبت خاطرى ، وكذلك والدى .. ولا تزال هذه الحادثة نصب عينى .. »

غرام بالعلم وهمة وارادة

وقد دفعه غرامه بالعلم والتعليم الى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا واستعان ببعض المتعلمين ممن يترددون على مطعم والده . وكان الى ذلك الحين لايعرف النواميس الطبيعية كدوران الارض والكواكب ، وخسوف الشمس والقمر واسباب السحاب والمطر وغيرها . وقد اطلع فى احدى المجلات على مقالة فى سبب الخسوف والكسوف ،

بعثت فى نفسه الرغبة فى مطالعة هذه الكتب ، فاقبل عليها حتى استوعبها بهمة وارادة قوية . وكان وقتئذ يلبس السروال البيروتي ويعتقد ان لابسى البنطلونات ارقى عقلا واوسع معرفة واصح حكما من لابسى السراويل ، لان اكثرهم من المتعلمين ، فلما استنار بنور العلم ضعف عنده هذا الاعتقاد ، وشعر انه انسان له شخصية وارادة ، وصار لايستبعد مجاراة اهل السراويل لاهل البنطلونات !

وقد كان به جنوح غريزى الى العلم والادب ، وكانت والدته كلما رات منه ذلك ساعدته عليه ، غير ان العقبة فى اخراجه من محل ابيه ان يجد عملا آخر يستغنى به عن عمله ، ففكر فى تعلم حساب مسك الدفاتر ليكون كاتبا فى احد المخازن ، فوافقه والده على ذلك . وكانه راى فى هذا العمل منجاة ومهربا من المطعم ريثما تتاح له الفرصة ليواصل جهاده فى سبيل العلم والادب ، لا فى سبيل المادة ، ولا فى سبيل الارقام الصامتة التى يجمعها ويحسبها فى هذه المحنة النفسية التى يعانيها فى ذلك الحين ..

يقضى على المرء فى ايام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

امنية حققتها الايام

تعلم مسك الدفاتر على معلم معروف فى بيروت حتى اتقن هذا الفن فى نحو شهرين ، ثم وظف فى احد مخازن القماش ، ولكنه لم يرتح الى هذه الوظيفة التى لم يلبث فيها غير نصف نهار عاد فى مسائه الى مطعم ابيه . وكان هذا المطعم قد أصبح مقصدا ومرادا للطبقة المتعلمة فى بيروت ، وكان يزوره بين حين وآخر بعض العلماء والادباء والصحفيين كالشيخ ابراهيم اليازجى والمعلم عبد الله البستانى ، فكان يجتمع بهم ويستفيد منهم ، وكان يميل الى مباحثة الطلبة

الذين يترددون عليه وخاصة طلبة الطب فى « المدرسة الكلية » التى اصبحت فيما بعد الجامعة الامريكية ببيروت. وكانوا يرون فيه استعدادا عجيبا ، وقد يدخل معهم فى بحث علمى ، فيسمعون منه اقوالا لا يعهدونها فى أمثاله ، فأحبوا صحبته ، واخذوا يدعونه الى الاحتفالات التى تجرى فى المدرسة على أثر الامتحانات ، فيسمع الخطب ، ويشاهد التلاميذ الناجحين ، فيتقد قلبه غيرة وحمية ، ويود لو اتيح له يوما ان يكون بين هؤلاء الناجحين . وكان كلما حضر احتفالا فكر فى نفسه ، وما يعترضه من العقبات فى سبيل تحقيق امنيته ، فيخرج منقبض الصدر ، ويلاحظ عليه أصدقاؤه ذلك ، فيسألونه ، فلا يبوح لهم بما فى سره وما تنطوى عليه جوانحه من الآلام . وذات يوم صارح احد أصدقائه قائلا :

ــ الا يأتى يوم اقف به موقف اولئك المتعلمين ؟

ثم سكت صابرا ، واخذ يفكر فيما يوصله الى ما يريد

سر النجاح

من الاقوال الحكيمة التى ما زالت من دروس الحياة ، وهى نتيجة التجارب قول البحترى :

لا يلبث الممنوع تطلبه
حتى يثوب اليك ممتنعه

وكذلك كان جرجى زيدان يتعشق التعليم ويغرم بالعلم ويلح فى طلبه حتى ثاب اليه ما منع عنه وأسلس قياده . وقد ضاعف همته ، واثار بواعث نشاطه ما قرأه من سير الرجال الذين نالوا المجد والعظمة بجدهم واجتهادهم ، واعتمادهم على انفسهم ، وفيهم من كان حلاقا ، او حدادا ، او نجارا ، او عاملا من العمال ، وقد اتيح له وقتئذ ان يقرا كتاب « سر النجاح » الذى نقله الى العربية الدكتور يعقوب

معروف ، فاطمأنت نفسه ، وشعر بحافز قوى الى المضى فى عزمه على تعلم الطب

وكان قد انتظم فى عضوية « جمعية شمس البر » ببيروت . وهى جمعية ادبية اكثر أعضائها من تلاميذ المدرسة الكلية ببيروت ، فأفضى بعزمه الى بعض أصدقائه ، فدهشوا لأن طالب الطب ينبغى أن يمتحن عند دخوله هذه المدرسة فى الهندسة والحساب والجبر وعلوم الطبيعة ، ولم يكن جرجى زيدان قد الم بها الماما يساعده على النجاح فى الامتحان – هذا عدا الامتحان فى اللغتين الانجليزية والعربية – ولم يكن امامه الا عطلة الصيف ، وهى نحوأربعة أشهر .. وقد حق لأصدقائه ان يدهشوا لو ان جرجى زيدان كان طالبا عاديا ، ولم تكن الاقدار قد زودته بهمة عالية ونبوغ فائق . ولهذا لم تثنه هذه الدهشة أو هذا التثبيط عن تحقيق امنيته ، فاقبل على هذه العلوم يدرسها ويذاكرها ليل نهار ، وتقدم لامتحان القبول بمدرسة الطب ، وكانت دهشة أصدقائه لنجاحه اشبه باعترافهم بنبوغه . وكانت وثبة من « سوق الطويلة » ببيروت الى ساحة « المدرسة الكلية الامريكية » جعلته يشعر بمواهبه وانه لايقل عن لابسى البنطلونات مقدرة وذكاء ..!

ثورته الحرية الفكرية

انتظم فى دراسة الطب فى المدرسة الكلية عام ١٨٨١ ، وكان مثال الاجتهاد والتفوق على قرنائه . ونال فى الامتحان السنوى درجات الامتياز ، وقد حضر الاحتفال هذه المرة ، لا زائرا ولا متفرجا كما كان فى الاحتفالات الاخرى ، بل ناجحا ممتازا يشار اليه بالبنان ، وحققت له الارادة القوية ما كان يتمنى فوقف « موقف اولئك المتعلمين » . بل وقف بينهم موقف الممتازين

وكانت السـنة الثانيـة للطب ، فانتظم مع اخوانه فى الدراسة ، ولكن لم يمض غير شهرين حتى وقعت حادثة الحرية الفكرية فى المدرسة الكلية ، وكان جرجى زيدان من اكثر المتحمسين لها ، بل كان اكثرهم تحمسا . وقد انجلت عن خروجه مع معظم تلامذتها ، غير انه ثابر على دراسة علوم الصيدلة بعد خروجه ، وادى امتحانا فى هذه العلوم امام لجنة حرة تالفت فى بيروت من اشهر اطباء سورية ولبنان تحت رئاسة الكولونيل مراد بك حكيمباشى المعسكر ، ومن اعضائها الدكتور فانديك ، والدكتور لويس ، والدكتور رابوطاجى، وغيرهم. ونال شهادة الصيدلة فى العلوم الآتية اللغة اللاتينية ، والطبيعيـات ، والحيوان ، والنبـات والجيولوجيا ، والكيمياء العضوية والمعدنية ، والتحليـل الكيميائى ، والمواد الطبية ، والاقرباذين العلمى والعملى

هجرته الى مصر

وبعد ان حصل على هذه الشهادة من هذه اللجنة الطبية الحرة اعتزم ان يتم دراسة الطب البشرى فى مدرسة قصر العينى بمصر ، وكان ناظرها وقتئذ الدكتور عيسى باشـا حمدى ، ولم يكن عنده ما يتزود به من النفقة فى الايام الاولى من الرحلة الى البلاد المصرية ، ولقد غامر بمستقبله فى سبيل الحرية الفكرية التى ثار لها هو وزملاؤه فى المدرسة الكلية ، وكانت اول ثورة واضراب للطلبة فى الشرق ، اذ كان يتعلم الطب ليعيش ، وكان يتزود من التعليم ليحقق آماله فى العلم ، فلما خرج من هذه المدرسة شعر كانما انقطع حبل آماله ، وان جهاده ذهب سدى ، ولكن ما لبثت عزيمته ان استردت قوتها ، وما عتمت ارادته ان تغلبت على ضعف نفسه ، وكان له جار ببيروت يعلم حاله وما آل اليه فاقرضه ستة جنيهات ضمها الى ما كان معه من قليـل النفقة ، وسافر الى مصر ، ولم ينس اريحية هذا الجار

فرد له الجنيهات الستة بعد عام حينما مارس العمل لأول مرة فى مصر

اشتغاله بالصحافة

وكانت سنه حينما هاجر الى البلاد المصرية ، لا تزيد عن اثنتين وعشرين سنة ـ اذ ولد فى ١٤ ديسمبرعام ١٨٦١ ـ فركب احدى البواخر التجارية . وهى أول مرة يركب فيها البحر، ووصلت به الباخرة صباحا الىالاسكندرية فى اكتوبر عام ١٨٨٣ . وكان ذلك عقب الثورة العرابية ، فشاهد هذه المدينة فى حالة يرثى لها على اثر الحريق وحوادث التدمير التى حلت بها من العدوان البريطانى . وكان لذلك أثره فيما بعد حين دون حوادث هذه الثورة فى كتابه « تاريخ مصر الحديث »

وبعد ان استراح بالاسكندرية قليلا شخص الى القاهرة ، وتقدم لمدرسة الطب . غير ان طول المدة لنيل شهادتها ، حول عزمه عن صناعة الطب الى صناعة القلم ، فتولى تحرير «جريدة الزمان». وكانت حينئذ الجريدة اليومية الوحيدة بالقاهرة . وقد مكث فى تحرير هذه الجريدة عاما أو يزيد. ثم استقال منها ليعمل فى الحملة النيلية الى السودان

الفلسفة اللغوية

سافر الى السودان مترجما فى الحملة النيليـة لانقـاذ غوردون باشا فقضى فيه عشرة أشهر شهد فى اثنائها اعظم الوقائع الحربية مثل واقعة ابى طليح والمتمة وغيرها . وقد قاسى فى هذه الرحلة الوانا من المشقات ، ولكنها كانت فرصة له لاستطلاع احوال هذا القطر ، ولما عاد الى مصر نال ثلاثة اوسمة مكافأة له على جهوده .. غير انه لم يستقر فى مصر بعد عودته من الحملة ، بل سافر الى بيروت عام ١٨٨٥ ، فانتدبه المجمع العلمى الشرقى ليكون عضوا عاملا فيه فمكث

فى بيروت عشرة اشهر يطالع اللغات الشرقيـة ، فدرس العبرانية والسريانية . ووضع على اثر ذلك أول كتاب له بل أول كتاب من نوعه فى الشرق ، وهو كتاب « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية» ولم تكن سنه قد تجاوزت الخامسة والعشرين . .!

وفى هذه الاثناء الف احد اصدقائه رواية سماها « رواية البطلين » جعل جرجى زيدان أول بطليها ، وجعل غوردون باشا البطل الثانى . وقد وصف المؤلف فيها عصامية جرجى زيدان وانتصـاره فى معركة الحياة ، وبطولته فى التغلب على العقبات حتى وصل الى ما يريد مع المحافظة على الفضائل والآداب الراقية

عمله فى « المقتطف »

كانت مجلة « المقتطف » فى ذلك الحين هى ارقى المجلات العلمية واشهرها فى الشرق العربى ، وكانت تجتذب أقلام العلماء والادباء ، وقد راسلها جرجى زيدان ببعض مقالاته الأدبية وبحوثه العلمية ، فقدرت جهوده فى صناعة الفكر والقلم . وكان قد سافر فى صيف عام ١٨٨٦ الى عاصمة الانجليز ، وترددعلىأندية العلم فيها وزار المتحف البريطانى ثم عاد فى الشتاء الى مصر ، فاختير مديرا عاما لادارة مجلة « المقتطف » فقبل ، ومكث فى هذه الوظيفة حتى عام ١٨٨٨ وكان يقوم بجميع شؤونها الادارية ويسـاهم فى التحرير ببحوثه القيمة

ولعلمن الطريف ان نذكر انجرجى زيدان فى أول نشأته وهو فى بيروت بعث بمقالة الى هذه المجلة ينتقد فيها الآباء الذين لايعلمون أولادهم ، وكانت أول مقالة كتبها فىحياته ، فلم تنشرها المجلة وصادف ان جاءه مديرها فى الصيف ، وتناول طعامه فى مطعم أبيه ، فساله عنها ، فأجابه : « انه يرجو ان تكون المقالة الثانية خيرا من الاولى . .! » وأراد الله

ان يكون جرجي زيدان مديرا للمقتطف بعـــد نحو عشر سنوات من هذه الحادثة

انصرافه للتاليف

مكث جرجي زيدان عامين مديرا للمقتطف ، وكان مرتبه فى تلك الوظيفة ثمانية جنيهات فى الشهر . ولعل القارىء يظن ان هذا المبلغ فى ذلك الزمان يعد مبلغا ضخما اذا قيس بقيمة العملة فى عصرنا الحاضر ، وهـذا صحيح اذا كان جرجي زيدان تناوله لقـاء اعمال ادارية فقط او اعمال تحريرية فقط ، او اعمال خاصة بالمطبعة وشؤون الورق والحبر والبريد والمشتركين والعمال فقط ، بل كان يتناوله لقاء هذه الاعمال كلها ، فقام بها خير قيام ، ثم راى وقته قد ضاق عما يغرم به من متابعة البحوث والتـاليف ، فاستقال من المقتطف ، وانصرف لوضع نفائس المؤلفات ، فالف كتاب تاريخ مصر الحديث فى جزءين وعانى فى تاليفه صعوبات جمة ، وفى عام ١٨٨٩ الف تاريخ الماسونية العام . وهو اول كتاب من نوعه كتب فى العربية ، ثم كتاب التاريخ العام وهو مختصر تاريخ آسيا وافريقيا القديمة والحديثة

وفى اواخر تلك السنة انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الارثوذكس بمصر ليتولى ادارة التدريس العربي فيها ، فتولاها سنتين . وفى اثناء هذه المدة الف رواية : «المملوك الشارد» . وهى اولى رواياته التاريخية ، فصادفت اقبالا كبيرا حتى طبعت عدة طبعات . وكانت سنه لا تزيد عن ثمانية وعشرين عاما !..

تاسيسه للهلال

اغرم جرجي زيدان بتحصيل العلوم والآداب ، فدرس كثيرا ، وقرا طويلا ، وكان جهده هواستاذه الاكبر، واعتماده على نفسه هو رائده الاعظم . وكما وهب نبوغا فى دراسة

العلم والتاريخ وتحصيل الادب ، وهب ملكة ممتازة ، ونبوغ فائقا فى البحث والتاليف ، وصبرا عجيبا على مشاقهما . وقد عرف فى التاريخ نوابغ كانوا نادرة الزمان فى ذكائهم وعلمهم ، ولكنهم لم يخلفوا وراءهم آثارا ، او لم يخلفوا كثيرا من الآثار النافعة تتناسب وما اشتهروا به من نبوغ وعبقرية .

ولكن جرجى زيدان النابغة بعد ان درس واطلع واصاب على حظ وافر من العلم اراد ان يكون نافعا للناس وللغة العربية وللعرب والاسلام بوجه خاص ، وكان من هؤلاء النوابغ القلائل فى تاريخ الشرق ، بل فى تاريخ العالم الذين اضافوا الى تراث العقل الانسانى ثروة جديدة

ولما كانت الطباعة اهم ما يعتمد عليه فى اداء رسالته ، فقد عنى بأن تكون له مطبعة ، واستحضر فى ذلك الحين بعض الادوات المطبعية ، وتنحى عن التدريس وادارته فى المدرسة العبيدية . واخذ يستعد لتاسيس مجلة يحقق بها هذه الرسالة الى جانب ما يضعه من مؤلفات

وفى اول سبتمبر عام ١٨٩٢ اصدر العدد الاول من هذه المجلة . وقد صدره بمقدمة قال فيها :

« لابد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يرمى اليها . اما فاتحتنا فحمدا لله على ما أسبغ من نعمه ، وافاض من كرمه . والتوسل اليه أن يلهمنا الصواب وفصل الخطاب . واما خطتنا فالاخلاص فى غايتنا ، والصدق فى لهجتنا ، والاجتهاد فى وفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة أصحاب الاقلام من كتبة هذا العصر فى كل صقع ومصر

« اما الغاية التى نرجو الوصول اليها ، فاقبال السواد على مطالعة ما نكتبه ، ورضاؤهم بما نحتسبه واغضاؤهم عما نرتكبه ، فاذا أتيح لنا ذلك كنا قد استوفينا اجورنا ،

فننشط لما هو اقرب الى الواجب علينا .. » . وبعد أن تحدث عن ابواب المجلة قال : « وقد دعونا مجلتنا هذه الهلال لثلاثة أسباب : أولا ـ تبركا بالهلال العثمانى الرفيع الشان .. ثانيا ـ اشارة لظهور هذه المجلة مرة فى كل شهر . ثالثا ـ تفاؤلا بنموها مع الزمن حتى تتدرج فى مدارج الكمال . فاذا لاقت قبولا واقبالا أصبحت بدرا كاملا باذن الله »

خدماته للعرب والاسلام

وكان فى النشاة الاولى لهذه المجلة يتولى كل امورها بنفسه من تحرير وادارة ومكاتبات مما لايستطيعه الا جماعة من الرجال ، ولكنه كان يواصل العمل بلا ملل . ولما اتسعت شؤونهما عهد بادارتها الى شقيقه ، واستخدم معه آخرين وعكف هو على التحرير والتاليف . وقد وضع بعد تاسيس الهلال روايات تاريخ الاسلام ، وكتاب التمدن الاسلامى فى خمسة اجزاء وكتاب العرب قبل الاسلام ، وعلم الفراسة الحديث ، ومشاهير الشرق فى جزءين ، وتاريخ آداب اللغة العربية فى اربعة أجزاء ، وانساب العرب القدماء ، وطبقات الأمم ، وعجائب الخلق والجزء الأول من تاريخ انجلترا

وقد صدر من روايات تاريخ الاسلام ثمانى عشرة رواية عدا اربع روايات خارجة عن هذه السلسلة ، وهى : المملوك الشارد ، واسير المتمهدى ، واستبداد المماليك ، وجهاد المحبين . وقد نقلت معظم مؤلفاته الى كثير من اللغات

والذى يطلع على آثار هذا العصامى النابغة من بحوث ومؤلفات يدهش كيف استطاع ان يقوم بها مع اعماله فى الهلال خلال اثنين وعشرين عاما فقط ، ولكنه النبوغ الذى لايقف عند حد ولايعرف للزمن حسابا ، والجهود المضنية ،

والنفس العظيمة التي يتعب الجسم في تحقيق مرادها حتى يذوب ويفنى . ولقد ذابت روح زيدان وفنى جسمه قبل الأوان ، وهو لم يتجاوز من عمره الثالثة والخمسين

لم يعرف جرجى زيدان التعب طول حياته ، وقد انتفع ونفع بكل ساعة من وقته ، فكانت حياته على رغم قصرها مباركة ، وكانت جهوده على رغم صعوباته مثمرة . ولقد جاءه يوما مستشرق يزوره ، فلما رآه ساله مستغربا « انت جرجى زيدان ؟ » فاجابه : «نعم» فقال المستشرق « كنت انتظر ان ارى شيخا ذا لحية بيضاء ، لان من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك باقل من ثمانين سنة » !

هذا هو العصامى جرجى زيدان : نشأ فقيرا سدت امامه ابواب المعارف ، فلم يحل الفقر ولا تحالف الشدائد والعقبات دون ما يريد ، ووثب من الصناعة والعمل الى عبقرية الفكر ومجد العلم والأدب ، ومن ساحة البرج ببيروت ، الى ميادين الثقافة العليا ، ومن بيروتى صغير لابس السروال ، الى عالم كبير ونابغة جليل يفخر به الشرق اجمع ، ومن فتى مجهول يكافح فى سبيل العيش وفى سبيل التعليم ، الى كهل عظيم يضع انفس المؤلفات فى تاريخ الشرق وتاريخ الاسلام وآداب اللغة العربية ويبتكر من المؤلفات ما لم يسبقه اليه احد ، ويخطب وده العلماء والادباء ومعاهد العلم الكبرى ، وتنتدبه الجامعة المصرية القديمة ليدرس لطلبتها تاريخ الاسلام ، ثم تحتفظ بما وضعه لها من دروس حين وقف فى سبيل انتدابه الجامدون !

هذا هو العصامى جرجى زيدان الذى سجل تاريخ الشرق اسمه بين العلماء الخالدين والعصاميين البارزين ، والذى صح فيه قول القائل :

ان الفتى من يقول هانذا
ليس الفتى من يقول كان ابى

علی ابراهیم



على ابراهيم

« كان فى بداية حياته طبيبا فقيرا ، وكان نفوذ الطب الاجنبى يكاد يخنق الطب المصرى ، فانتصر على هذه الظروف وعاش حتى طب لملوك وامراء ووزراء وزعماء »

زعيم النهضة الطبية الحديثة

بقلم الدكتور سعيد عبده

وضـئيل من اســاة الحى لم
يعن باللحم وبالشحم اختزانا
ضـــامر فى ســمرة تحسبــه
نضو صحراء ارتدى الشمس دهانا
او طبيبــا آيــا من طيبــة
لم تزل تنــدى يداه زعفــرانا
تنكر الأرض عليــه جســمه
واســمه أعظم منهــا دورانا

شوقى

توفى على ابراهيم فى ســنة ١٩٤٧ ، عن ســبعة وستين عاما — او هكذا قيل — وعن ولدين وبنت، وبيت فى جاردن سيتى وخمسة عشر فدانا ، و ١٠٠٠ سهم فى بنك مصر ، ومجموعة قيمة معدومة النظير من التحف والسجاجيد ، وبحر من دموع تلاميذه ومرضاه ، وكلية طب مصرية مائة فى المائة من غرس يديه ، وســجل حافل بمئــات من آيات المجــد العصامى ، كتبه بهمة نفسه، وانامل راحتيه ، وعرق جبينه، فى حوالى نصف قرن من الزمان

كان على ابراهيم يقول انه ولد فى سنة ١٨٨٠ ، وعلى هذا الحساب بلغ الستين فى سنة ١٩٤٠ ، ولكنى لا ادرى كيف اوفق بين هذا المولد وبين ما كان يروى عنه من وعيه وعى

الصبي لضرب الاسكندرية فى سنة ١٨٨٢ !!

ولا ادرى كيف اوفق بين هـــذا المولد وحصوله على الشهادة الابتدائية سنة ١٨٩٢ - اى فى الثانية عشرة من عمره - فى وقت كان التلميذ لا يدخل المدرســة فيه الا والصقر يقف على عذبات شاربيه !!

ولا ادرى كيف اوفق بين هذا المولد وحساسيته المرهفة فى اواخر ايامه من ناحية عمره ، ولقائه اياى وانصرافه عنى بوجه متجهم ، عندما قلت له مداعبا فى الاحتفـال بعيد ميلاده الستين :

« ستين سنة ازاي يا الفة فصل امحوتب ؟ ؟
يا مداوى توت عنخ م الحصوة وذو القرنين !!
ستين سنة ازاى ؟.. دنا قربت ع الخمسين
ون كنت خمسين انا «معاليك» تكون كام ؟ سن
فين جدول الضرب ؟ فين مسك الدفاتر فين
داسجل مجدك لوحـده ينقرا قراية
فى اثنين وسبعين سنة وبلاش اقول ثمانين !!»

اكبر ظنى ان الابدال والاعلال جـرى عمدا على تاريخ ميلاده ، فقلب السبعة ثمانية ، وجعل التاريخ ١٨٨٠ بدلا من ١٨٧٠ ، التى يمكن ان تستقيم بها الامور ، كما يمكن ان نفسر بها كيف أن هذا الجسد الضامر النحيل لا يعيش غير سبعة وستين عاما ، وهو متحدر من اصلاب ابوين مات احدهما عن ٨٢ سنة ، ومات الآخر عن ٩٢ سنة

لقد رايت فى صباى على ابراهيم يقف على فراش مريض ، يشبهه فى الجسد سمرة وضمورا وقلة ، وكان مصابا بخراج فى الكبد فى وقت كان هذا الخراج فيه بابا من ابواب الآخرة لا يؤوب منه الذاهبون ، وكان الأطباء قد نصحوه ان يسافر الى بلده ليقضى نحبه هناك ، فيقول له ضاحكا من عينه التى كانت تقطر عذوبة لمرضاه : « لا تبتئس يابنى ولا تسمع

ـا يقولون ... ان مثلك ومثلى لا يموتون الا شـيوخا او بضرب الرصاص ! » وقد صدقت نبوءته فى هذا المريض كما كانت تصدق على الدوام ، فانفجر الخراج فى الرئة ، ونفذ قيحه الى الفم ، على وعثاء الطريق ، وعاش المريض حتى بكى على قبر على ابراهيم !

كان على ابراهيم فى بداية حياته الطبية سنة ١٩٠١ طبيبا مصريا فقيرا من مدرسة طبية منحلة ، اضطر ان يعيد دراسته وهو طبيب حتى يقوى على طراد عصر ، كانت نفس المواهب المصرية فيه تواد عمدا ، وكان نفوذ الطب الأجنبى يطغى فيـه على الطب المصرى حتى يخنقه او يكاد ... وانتصر على هذه الظروف جميعا ، وعاش حتى طب للملوك وامراء ووزراء وزعماء ، واحصى ما اجراه من جراحات فى عياداته الخاصة بما يزيد على ٣٥٠٠٠ جراحة غير ما اجراه منها فى المستشفيات الحكومية ، وهو يفوق اضعاف هـذه الآلاف ، واستطاع ان يحظى بثلاثة عشر وساما من بلاد اجنبية متعددة ، وان ينال ــ دون تقدم لامتحان ــ ارقى ثلاثة مؤهلات فخرية من كبرى الدوائر الطبية فى مصر والعالم ، وان يرقى سلالم المجد بمواهبـه الشخصية ، وبعصا مصرية صميمة ، وبخطوات عبقرية جبارة ــ من طبيب اوبئة ، الى مدير مستشفى اقليمى ، الى رئيس للبعثة الطبية المصرية فى حرب البلقان ، الى مساعد جراح بمستشفى قصر العينى ، الى جراح به ، الى استاذ للجراحة فيـه ، الى مدير له ، الى عميد لكلية الطب الى رئيس او عضو عامل فى حوالى عشرين جمعية او معهد تسهم كلها فى ايقاظ الوعى القومى او الطبى او الاقتصادى فى البلاد ، الى صديق شخصى لمئات من اكابر الجراحين فى العالم ، الى وزير للصحة ، الى مدير للجامعة التى خرج من ارحامها سنة ١٩٠١ باجازة علمية تافهة ، طالما قادت فى ذلك العهد كثيرا من زملاء على ابراهيم الى القبر فى الكفن الرخيص

نعم ان الحظ طالما سطع نجمه فى حياة على ابراهيم ، وطالما أضاء له السفح فصعد على هداه .. لقد خدمته النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ ، والجهود التى بذلتها لتعويض دعاة النفوذ الاجنبى ، كما خدمه انتحار ناظر مدرسة الطب الانجليزى فى سنة ١٩٢٩ ، كما تلقى خدمات كثيرة من هذا النوع من نجمه المشرق اللماع ، سنرى بعض آثارها هنا وهناك فى تاريخه الطويل ... ولكن ما أكثر الذين يلمع الحظ فى حياتهم من الضعفاء ، فيعشيهم ضوءه لا يقودهم ويتركهم وراءه حيث كانوا يتساقطون حيرة وحسرة

الانسان الطبيب

ركب على ابراهيم فى مستهل حياته الطبية الحمار والقارب وغاص فى وحول الريف، ومشى على قدميه تحت شمس الصعيد وعطش وجاع ، وخاض وباء الكوليرا سنة ١٩٠٢ وانتدب فى سنة ١٩٠٤ وهو مدير لمستشفى بنى سويف ليكافح وباء الحمى الفحمية فى طوخ . وبين مشاهد البؤس فى عيادانه الخاصة يوم كان دخله منها لا يتجاوز ثمانين قرشا فى الشهر، ومشاهد النعيم فيها يوم جاوز دخله آلاف الجنيهات ، ادرك على ابراهيم كنه الآلام البشرية ولم تكن غريبة عليه ، وقدر مرارة الثمار التى يزرعها المرض فى بيوت الفقراء ، فكان – قبل ان يكون طبيبا يتكسب – انسانا على الدوام

ففى الوقت الذى تقاضى فيه من السلطان حسين كامل الفا من الجنيهات الذهبية عن جراحة اجراها له ، لم يتقاض شيئا من موظف ارسل له خمسة جنيهات فى خطاب ، وقال له ان ابنته ووحيدته مريضة ، وانها فى حاجة الى جراحة ليس لها الا هو ، وانه غير قادر على ان يأجره باكثر من هذا المبلغ التافه ، فان قبله فبها ، والا فليرده مشكورا ، ولكل مريض رب لا ينساه ... وقد رده اليه فعلا على ابراهيم ،

ولكن بعد ان اجرى الجراحة المطلوبة للفتاة ، وتكفل لها بأجر المستشفى وثمن الدواء

واكتظ المستشفى الاسرائيلي الذى كان على ابراهيم جراحه يوما ما ، بقصاده ، وتجاور فى غرفة واحدة منه ثرى من اسرة الشواربى المعروفة ، وقاض من قضاة المحاكم المصرية ، واستاصل على ابراهيم فى نفس الوقت لكل منهما كلية مريضة ، وعندما برئا واوشكا على الخروج ، طلب من الشواربى خمسمائة جنيه ، وطلب من القاضى الذى بدا عليه الذعر من فداحة الاتعاب ، أن يمر به فى عيادته ، فاستعد القاضى لهذا اللقاء بمائتى جنيه معظمها قروض ، وبسط يده بما فيها قائلا : « هذا كل ما استطعت جمعه والأمر لك »

وساله على ابراهيم : « كم مرتبك » ؟

فقال : « خمسة واربعون جنيها . . . »

قال : « اذن تدفع خمسة واربعين ، وتعيش هذا الشهر محتميا ، فالحمية لمثلك من ذوى البدانة تفيد ! ! »

▭

ان حياة على ابراهيم الطبيب والانسان والادارى كانت مسرحا لكثير من امثال هذه المفارقات

وعندما قال شوقى فى تكريمه :

«يد ابراهيم لو جئت لها — بذبيح الطير عاد الطيرانا»
«لم تخط للناس يوما كفنا — انما خاطت بقاء وكيانا»

ضحك على ابراهيم ضحكته الخرساء وقال : آه لو عرف شوقى ان قتلاى فى القطر كان يمكن ان يملؤوا مقابر المجاورين ! !

وقلت لشوقى ذلك فاختلجت عينه كما كانت تختلج عندما يمرح وقال :

ــ لقد نسى ان يقول لك : لو اجتمع من احياهم فى صعيد واحد لكان منهم عاصمة جديدة للنيل !!

ولما توسلت اليه يوما ان يجرى لى جراحة فى المخ تنقذنى من عذاب كافر طويل قال لى ببساطة ... اننى لم اجر هذه الجراحة فى حياتى قط ، ولا اريد ان تكون اول قتلاى فى هذا المجال !

فخره بابيه الفلاح

وفى الوقت الذى بلغ فيه التفاخر بالانساب والاحساب اشده وزراعة النخل الطويل على قبور الاباء المغمورين ، كان على ابراهيم لا يفتأ يفخر باصله المتواضع ... بأبيه الحاج ابراهيم عطا الفلاح ، وبامه السيدة مبروكة خفاجى الاسكندرانية ، وباخواته من امه ، واخوته من ابيه ، وكلهم فلاح وابن فلاح ، لا يضيق يوما بواحد منهم ، ولا يتنكر لواحد ، ولا يحاول وهو واقف على ربوة المجد ان يتحلل من فضل البرقع المقصب عليه ، وفضل الزعبوط الفضفاض ..

كانت صورة امه تعلو مكتبه لآخر ايام حياته ، وكانت المرة الوحيدة التى ابتذل فيها دموعه يوم وفاتها ، وقد جعل مستشفاه الخاص فى شارع الصنافيرى ، بعد ان انتقل منه الى المستشفى الاسرائيلى ، مضيفة لاستقبال من يفد عليه من اقاربه هؤلاء ، واوصى اولاده على سرير الموت الا ياخذوا مليما من غلة الأرض التى تركها لهم فى الريف ..

وقال لى الاستاذ الدكتور عبد الله الكاتب ــ الخليفة الحالى لعلى ابراهيم على عمادة الطب ــ ان هذه الناحية من حياة على ابراهيم كانت تفضح اكثر من اى شىء عصاميته الفذة وشخصيته القوية ، وانه ما احترمه قط اكثر مما احترمه يوم ارسل له ــ وهو يعمل نائبا له فى قسم الجراحة بقصر العينى ــ فلاحا ومعه هذه الرسالة : « هذا زوج اختى فليكن له من رعايتك نصيب »

وكان على ابراهيم فى ادارته يرق احيانا حتى يستحيل الى اب ، ويقسو احيانا حتى يستحيل الى طاغية ، ويقدم حتى يظن اقدامه حماقة ، وما هو الا ايمان الواثق من ثبات الارض تحت قدميه . . . ويحجم حتى يخال احجامه جبنا ، واكثره انحناء للعاصفة حتى تمر وتفوت ، وكل هـذه التصرفات المتناقضة كانت تترجم من معاصريه ومرءوسيه بطرق متعددة ، تختلف باختلاف عقليات واهواء المترجمين ؛ ولكن ما من شك ان الوازع الاكبر لها كان ضخامة آماله للطب المصري والأطباء المصريين ، وحرصه على الوصول الى اهدافه من ايسر طريق مهما تعرج وطال ، ولو تكلف لها شراسة النمر احيانا ، او نعومة الثعبان

دروس من المحن

ان المحن التى مرت عليه طوال حياته علمته الكثير ونبوغه نفسه اعتقد ان قسطا كبيرا منـه كان تعويض النفس الكبيرة عن طفولة لم يكن نصيبها من السـعادة بالنصيب الكبير

لقد عاش على ابراهيم وهو طفل مع والدته بالاسكندرية، وكانت على غير وفاق مع ابيه منذ حملت به ، ومع جدته لأمهوكانت كفيفة البصر . وكان لديها « زلعة » تختزن فيها ما كانت تدخر من ذهب ، فكانت الأم اذا احتاجت الى مال تآمرت مع الصبى على أن يأخذا من الزلعة مقدارا من القطع الذهبية ، ويضعان فى مكانها بعددها وحجمها قطعا فضية ؛ حتى لا ينفضح الأمر بالعد والاحصاء ، فاذا تيسر الحـال استبدلا من الفضة الذهب ، وكان الذى كان ما كان !

وعندما نال الابتدائية فى سنة ١٨٩٢ ، وكانت من اكبر المؤهلات لوظائف الحكومة فى تلك الايام،اراد ابوه ان يستحوذ عليه ، وان يلحقه بوظيفة فى البريد ، وجاء ليأخذه من امه

قسرا ، فحمل على ابراهيم ملابسه ، ومقدارا من المال من أمه — ولعله من الزلعة ! — وقفز من سطح البيت الى اسطح الجيران فرارا من ابيه . وفى القاهرة دخل المدرسة الخديوية بوساطة بعض اصحاب الجاه من زملاء المدرسة الابتدائية فى راس التين

واراد كتشنر — سردار الجيش المصرى يومئذ — ان يختار ضباطا للجيش فى حملة السودان من تلاميذ المدارس الثانوية فى القاهرة ، فمر بها واحدة واحدة ، وعرض طلابها جميعا ، ليختار اقواهم جسدا ، وافرعهم طولا ، واشدهم قدرة على الكفاح ... فلما عرض طلاب الخديوية اخذ على ابراهيم يشب على امشاط قدميه ، ليلفت اليه نظر السردار ، الذى ضحك ضحكة العارف بما وراء هذا الطول المصطنع ، وهذا الجسد الضامر النحيل ! !

لقد عاصر على ابراهيم وهو طفل ثورة عرابى على طغيان الدخلاء ، وضرب الاسطول الانجليزى للثغر الأعزل بالقنابل ، وهاجر مع امه من الاسكندرية فى جنح الليل هربا من النيران الماحقة ، والقذائف المدمرة ، والفوضى التى اجتاحت المدينة الثائرة من هذا الزلزال السياسى القاصم العنيف

وعاصر وهو شاب لؤم الاحتلال الانجليزى وهو يقتلع نبت الحرية من ضفاف النيل ، ويصبغ باللون الاحمر كل معالم الحضارة المصرية الخضراء كما عاصر جهاد مصطفى كامل ومحمد فريد ضد السرطان المتغلغل بقسوة فى احشاء البلاد

وراى فى تلك الايام وهو يعمل مديرا لمستشفى بنى سويف فى سنة ١٩٠٤ تحت اشراف مفتش الصحة الانجليزى ... راى مسرح الجراحة بالمستشفى يستعمل طريقا مفتوحا لموردى اللحوم والخضراوات ... فثار على هذا الوضع ، وسد الباب الموصل الى المطبخ ، وهيا لموردى الطعام طريقا مستقلا اليه ، ينقذ مسرح العمليات من الاوساخ والاقذار . فعد المفتش الانجليزى هذا الاجراء اعتداء على سلطانه ،

وعنف كل منهما على صاحبه ، ودفع على ابراهيم ثمن هذا العنف نفيا الى مستشفى اسوان !!

وعاصر وهو كهل تمرد مصر على اغلالها الحديدية سنة ١٩١٩ ، كما عاصر محن السياسة الحزبية واعاصيرها على مصر فيما تلا ذلك من السنين حتى مات ، وكاد يحرق اصابعه على جمرها عندما رشح نفسه حزبيا لمجلس النواب الاول فى سنة ١٩٢٤ نائبا عن دائرة عابدين ، لولا ان الجمر لسعه فى الوقت المناسب ، فاجفل ، وابتعد فى الحال

وفى هذه المدرسة ذات الموج المتلاطم تعلم على ابراهيم ان السباحة مع التماسيح تغرير ، وان الاحتيال على الامور خليق ان ينيله من غاياته ما لا ينيله العنف وضرب الرءوس فى الجدران ... تعلم كيف ينحنى للعواصف ، وكيف يحاور ويداور ، وكيف يقدم ويحجم ، وكيف يظهر على المسرح عندما يشمر الظهور ، وكيف يختفى عندما يحس بوادر السخط على وجوه المتفرجين ...

عندما اراد ان يسافر الى السودان ليعالج الزعيم الدينى الكبير السيد على الميرغنى ، وكان كبار الاطباء الانجليز فى السودان قد اشفقوا من مغبة هذا العلاج ، تعلق به اولاده وهم صغار ليسافروا معه الى السودان ... فلم يعنفهم وقال لهم ببساطة : هلموا معى الى السودان !.. وصحبهم الى جروبى ، وملأ افواههم حلوى ، وقال هذا هو السودان !! ثم اعادهم الى البيت فرحين ، وتركهم نياما يحلمون بحلاوة السودان ، وذهب فاستقل القطار !!

وكانت هذه طريقته فى مواجهة المشاكل ...

مستشفى المنيل

ولما عجز اسلافه مديرو مستشفى القصر العينى الانجليز اكثر من مرة عن اغراء السلطات بانشاء مستشفى المنيل

الجديد (فؤاد الاول الجامعي سابقا) ووضع هذا المشروع على الرف ، وقيل يومئذ ان الملك السابق فؤاد كان يطمع فى ارض المستشفى ليقيم عليها قصرا لولى عهده فاروق ، لم يكد على ابراهيم يتولى عمادة الطب سنة ١٩٢٩ حتى راح يجاهد جهاده الخفى ، ويحتـــال ويجامل ، ويحرك الاحجار بلطف ، حتى اتيح له ان يحصل على الاعتمادات اللازمة لبناء المستشفى ، واصلاح الكلية كذلك ، جزءا جزءا ، واعتمادا وراء اعتماد ، وكلما فرغ من بناء ، بدأ فى آخر ووضع السلطات امام الامر الواقع ، ولم تستطع حتى ازمة سنة ١٩٣٠ الطاحنة ان تحول بينه وبين الحصول على اكثر من مليون من الجنيهات لانشاء الفى سرير فى هذا المستشفى الجديد

لقد كان يقضى حاجة كل وزير صاحب نفوذ فى الكلية باسرع من البرق ، ولكن بعد ان يكون قد نال منه للكلية مزية او حصل لها على اعتماد

ومن المتفق عليه ان عبقرية على ابراهيم ونجمه المتلالىء على الدوام ، وانفه الذى كان يشم العواصف والنسمات بحساسية البارومتر الدقيق ، يعود اليها اكثر الفضل فى تقويض نفوذ الطب الاجنبى الذى سيطر بعد الاحتلال الانجليزى على هذه البلاد ، وانتشـال الطب المصرى من وهدة الذل والهوان التى كان يتردى فيها على ايدى اطباء غرباء ، من كل بقاع الارض ، لا يعلم الا الله من اين جاءوا ، ولا كيف تعلموا ، ولا باى كفاية جمعوا ما جمعوا من كنوز

منافسته للأطباء الأجانب

عندما نقل على ابراهيم مديرا لمستشفى اسيوط سنة ١٩٠٤ وجد الأطباء الاجانب يحتلون مسقط الضـوء ، ويحتكرون الطب فى اسيوط ، لهم وحدهم علاج السادة ،

وللاطبــاء المصريين علاج الخدم ، لهم على المائدة ما لذ وطاب ، ولزملائهم المصريين النفاية والفتات .. ولبث على ابراهيم فترة يرقب الموقف ، ويكسب من عيادته ثمانين قرشا فلا يتململ ، حتى اذا سافر هؤلاء الأطباء فى الصيف انتهز الفرصة السانحة وشمر عن ساعديه ، ولكن احـدا من كبار المرضى لم يأت، فاذا أتى فانما ليستشير ، ويؤجل الجراحة المطلوبة حتى يعود فلان أو علان ، وكان اليأس خليقا ان يجرفه ولكنه صمد ، وكانت هناك يومئذ بعثة اجنبية تبحث عن الآثار فى اسيوط ، فمرض رئيسـها بالتيفود ، فتطوع على ابراهيم لعلاجه حتى شفاه ، وبدأ البندول يتحرك نحوه ببطء ، واخذت الظروف تواتيه ، فلم يلبث غير قليل حتى نافس الأطباء الأجانب على ثقة المرضى المصريين ، ثم بزهم ، ولم يترك اسيوط فى سنة ١٩١١ ، الا وهو يكيل لهم بنفس مكيالهم القديم : يأكل ، ويلقى اليهم بالفتات !!

وتكررت المأساة بالقاهرة بعد ان نقل اليها مساعد جراح بمستشفى قصر العينى ، وكان قبوله لهذا النقل مجازفة يقامر فيها بدخل وصل الى ٥٠٠ جنيه شهريا فى اسيوط على مستقبل فى القاهرة غامض مجهول ...

ولكن اية مجازفة لم يكن يقدم عليها على ابراهيم ؟

لقد كان خوف الأطباء المصريين من الأطباء الاجانب فى القاهرة آخذا بالنواصى والرقاب ، وظل سنتين فعلا يمص ابهامه فى عيادته الاولى بباب الشعرية ويعـد الطير فى السماء ، ولكن سرعان ما واتته الظروف والتمع نجمه ، فأعلنت الحرب الاولى ، ونزح الى بلادهم كثير من الأطباء الانجليز ، فخلا له الجو ، وراح يصعد السلم على عصاه المصرية ، بخطوات الفرعون الثاوى فى جسده النحيل .. ولم يصعد وحده فقد جر معه الى القمـة سمعة الطب المصرى ، وكثيرا من اساطينه الحاضرين ...

وما هو الا قليل حتى كانت الثورة المصرية تقطف جناها الاول فى سنة ١٩٢٤ ، فتمكن لبلابل الدوح مكانا على أغصانه بين البوم والغربان ، ويصبح على ابراهيم استاذا للجراحة فى كلية الطب بعد ان كان كرسى الاستاذية وقفا على الاجانب، مستحيل المنال على المصريين . ومنذ ذلك اليوم اخذ الدم المصرى يملأ شرايين كلية الطب على يد على ابراهيم

مصرى صميم

فى قامة على ابراهيم القصيرة ، وجسده الضامر ، ولونه الأسفع، وجبينه العريض، وعيونه الواسعة وشفاهه الغلاظ ، شىء ما كان يجعل الناظر اليه — دون ان يكون شاعرا — يتوهمه كما توهمه شوقى : طبيبا آيبا من طيبة ، يداه لا تزالان نديتين بالزعفران

ولكن اشد ما كان يوحى بانحداره راسا من اصلاب الكهان فى طيبة ومنفيس تلك الأنامل العبقرية التى كانت ترفو الحياة بمهارة فنان ، وهذه الشخصية المبهمة الجبارة التى قهرت الأعاصير والزوابع بخبرة ملاح من ملاحى الأساطير

لقد حطمت هذه الأعاصير ما حطمت، واغرقت ما اغرقت، ثم انداحت فى النهاية عن مصر المتحررة من اسارها الطويل ، ومجموعة من العصاميين المصريين طفوا فوق العباب المتلاطم، بقوة السواعد وعمق الوطنية ، ونور الالهام ... وكان من ابرزهم دون شك الدكتور على ابراهيم

جبران خليل جبران



جبران خليل جبران

« كم عصر قلبه اكتئاب أخته على الوشي والتطريز لتستطيع ان تقوم باودها واوده . فكل شكة ابرة منهـا انما كانت تشك في صدره وتخزه بوخزات الأسى والألم . . »

الفنان الخالد والأديب المبدع

بقلم الاستاذ عادل الغضبان

من الأودية العظيمة فى شمال لبنـــان واد مهيب رائع عميق الغور بعيد القرار يســمى « قاديشا » أى الوادى المقدس ، قامت على جانبيه جبال عالية ضخمة تنوع أديمها بين الحجر الصلد المسنون الاطــراف والريود وبين التربة الخصبة المكسوة بالغابات والكروم والخمائل تسقيها العيون المتفجرة من بطون الهضاب أو شلالات الماء المنحــدرة من رؤوس الجبال الى ذلك الوادى المقدس فى دوى يأخــذ بالمسامع والالباب ورشاش يتطاير فى الفضاء على أجنحة من الوان الضياء

وعلى كتف من أكتاف الجبل الناهض فوق عدوة الوادى الغربية تناثر فى ثنايا الاشجار والمراعى عدد من البيــوت المتواضعة وقد ألبست سطوحها بالآجر الاحمر وبدت لعين الرائى فى حلتها القرمزية حبات رمان متناثرة بين زبرجد الشجر وسندس الاعشاب

تلك المجموعة من المنازل تتألف منها قرية صــغيرة من قرى لبنان الشمالى تدعى «بشرى» وفى تلك القريةالوديعة الغافية عند سفح غابات الأرز الخــالد والمطلة على الوادى

---

* المراجع : « جبران خليل جبران » لميخائيل نعيمة . « رسالة المنبر الى الشرق العربى » لفلكس فارس . « رسائل جبران » تقديم جميل جبر . « كلمات جبران » جمع انطونيوس بشير .

المقدس تجثم عند أقدامها مواكب السحاب وتتوج فرعها نجوم السماء ولد جبران خليل جبران فى السادس من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، فكان مولده فى قريته المتواضعة ميلاد لؤلؤة فى صدفة لن تلبث يد الزمن حتى تشق عنها الغلاف فيبهر حسنها البصائر والابصار

فى مدارج الجمال

نشأ الصبى جبران فى تلك البقعة الجميلة فوقعت عيناه منها على مفاتن من الجمال واخذ من السحر ، تملت نفسه منها وافعم بها ذهنه الصغير وخاطره ، فكانت اول احتكاك بزناد العبقرية الكامن وراء نفس قدر الله لها ان تحلق يوما فى أجواء الفن والنبوغ

وترعرع الصبى جبران فى كنف أسرة لاتتميز بسبب من اسباب العلم والرقى والحضارة ولا تنعم بشىء من متع الغنى والثراء ، فانما هى اسرة فقيرة يتلمس فيها الآب رزقه ورزق عياله من التزام عد الغنم فى مدارج الجبال ومن تفتيت الصخور واستنباتها بعض الخضر والثمار . وكان من الطبيعى ان ينشأ الفتى مضطلعا بشؤون الغنم والماعز على غرار ابيه بل كان لابد له أن يحترف تلك المهنة التى نوى أبوه أن يدربه عليها ليستقل بها يوما ويكسب منها رزقه لولا أن الأقدار تداخلت فى مصير الفتى وأعدته لغير ذلك من المهن والحرف

كان الفقر مخيما على اسرة خليل جبران ، ولكنه الفقر الذى لا يتطاول الى الكرامة والوقار ولا يرقى الى الاستقامة ومكارم الاخلاق ، فلئن التقط رب الاسرة رزقه من شقوق الصخور وطيات الثرى ولملمه من تحت اظلاف الاغنام والمعيز فانه كان يقدر نفسه حق قدرها وينزلها المنزلة الكريمة بين الاقارب والجيران ، فمهما ضاقت الدنيا فى وجهه ومهما نأت به الحياة عن مباهجها ومهما تناول هو وأفراد أسرته الطعام

على خوان من الحصير المجدول ، فما بخل على طفله بالعلم يتلقاه فى مدرسة القرية

جبران الصبى

اختلف الصبى جبران الى مدرســة القرية حتى الحادية عشرة من عمره ، واستطاع فى خلال سنوات الحداثة ان يظفر بنصيب ضئيل من اللغتين العربيه والسريانية. وما من شك فى أن اختلافه الى المدرسة وتعلمه القراءة والكتابة وتفتح ذهنه الصغير لاستيعاب العلم كل هذا قد عمل على ابراز المواهب اللدنية فيه فتراه منذ نعومة أظفاره يميل الى الرسم والتصوير ، وانه لحدث عظيم عجيب فى قرية نائيــة عن العمران لم ينبغ فيها رسام ولا مصور بل لم يعرف بنوها ولا المدرسون فيها هذا الفن الجميل

وبرزت بوادر هذا الفن في جبران الصغير يوم قدر له أن يكون موضع القصاص والعقاب لانه لم يحسن قــراءة مثالية السريانية ، فيغضب قس المدرسة عليه ويحبسه فى قاعة الدرس ويفرض عليه أن يكتب المثاليــة عشر مرات تأديبا له وعقابا ولشد ما أســـقط في يد القس وأثار فى نفسه سورة من الغضب والرضى معا عندما وقعت عينه على دفتر جبران فرأى فيه أن الطفل لم يكتب القصاص المفروض عليه بل استعاض عنه برسم «شبه حمار نائم وعلى رأسه قلنسوة سوداء وفى أذنه الواحدة قد علق كتاب وفى الاخرى مخلاة»

لم يكن هذا الرسم هو اول ما رسم الصبى جبران ، فقد سبق له أن اعتمد على قطع من الفحم رسم بها على جدران المنزل أشكالا وصورا ثارت لها ثائرة أبيه فانهال على الطفل توبيخا وتقريعا ، غير انا نستطيع ان نعد رسم الحمار المقدس الشرارة الاولى التى انطلقت من جـــذوة الفن الكامنة فى جوانحه وضلوعه فدلت على موهبة الله ، ولعل علماء النفس الذين يغوصون فى أعماق النفس البشرية ويصلون كبـــائر

الرجولة والكهولة بصغائر الطفولة والحداثة يرون فى ذلك الرسم البادرة الاولى التى حفزت جبران في مستقبل الايام الى معاداة القسيسين وشن الحملات عليهم فى بعض مؤلفاته. ولعل علماء النفس اذا علموا أيضا أن الطفل جبران خرج وهو في السادسة من عمره الى البرية يوم الجمعة الحزينة ليتعذب مع المسيح على حد قوله ثم عاد منها في المساء بباقات الازهار والرياحين ليزين بها قبر السيد المسيح . اذا علموا هذا وعرفوا أن فكرة الألم والعذاب كانت مغروسة فى نفس جبران منذ طفولته سهل عليهم الكشف عن أغوار نفسه وتفسير صيحات الألم التى جار بها طول حياته ..

مغامرة في سبيل الرزق

ما أضيق الرزق ينقب عنه المرء فى طبق الارض وجلامد الصخور ، وما أشقى العزائم الكبيرة اذا حصرها القدر فى نطاق ضيق من ميادين الحياة ولقد أثر عن اللبنانيين أنهم قوم ذوو عزائم وهمم كبار تقسو الحياة عليهم فلا تلين قناتهم ولايدركهم فى قسوة الحياة ضعف ولا خور ، اثر عنهم كذلك وهم حفدة الفينيقيين حبهم لركوب البحر ومعاقرة الاسفار وعرفوا مع هذا وذاك بنفوس أبية تقدس الحرية ولا تستنيم للذل والهوان . ويشاء القدر أن يضيق الرزق بلبنان فى عهد المترجم له وأن توأد فيه الحرية وتنشر أعلام الظلم والاستبداد ، فهب فريق كبير منهم يركب غارب البحر سعيا وراء الرزق أو نشدانا للحرية

وحذت أسرة جبران حذو الالوف من الأسر فحزمت أمرها وشدت الرحال الى أمريكا وكانت الاسرة تتالف من جبران واخيه الاكبر وشقيقتيه الصغيرتين وامهم جميعا .. اما الوالد فبقى فى القرية يدبر شئون رزقه القليل

اختارت الاسرة مدينة « بسطن » فالقت فيها عصا التسيار ، وكان الامل الباسم يضىء جوانح الأم فقد انقذت

بكرها وكان فى الثامنة عشرة من عمره من عمل يتصل برعى الغنم وحراثة الارض وأنقذت أخاه الصغير جبران، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، من مصير لا يختلف عن هذا المصير ورجت أن يكون لهما ولشقيقتيهما متى بلغتا أشدهما مجال رحب فى العمل الكريم والحياة الهانئة. وقضى الفقر وضيق ذات اليد أن تحل الأسرة فى حى وضيع من أحيـاء بسطن فكان حى الصينيين

جهاد فى سبيل العلم

وينتظم الفتى جبران فى سلك احدى المدارس ويقبل على الارتشاف من مناهل العلم بنهم لا مزيد عليه، فتفتح له اللغة الانجليزية آفاقا جديدة من التفكير لا عهد له بها قبل ذلك الحين . وكان فى خلال الدراسة لا يفتأ يجيل قلمه راسما مصورا فيلقى من مدرس الرسم ضروبا من التشـــجيع والاعجاب ويقدمه الى رسام من كبار الرسامين فيعجب به ويلمح فى هذا الفتى الشرقى عبقرية متوارية لابد أن تنجلى يوما مشرقة وضاءة

ويعود الفتى جبران الى بيروت ليستكمل دراسته العربية ويقضى فى وطنه أربع سنوات ثم يرجع بعدها الى بسطن وهو فى الربيع العشرين ليبدأ حياة الجهاد والكفاح وليتلقى ضربات الدهر واحدة تلو أخرى

لم تنقطع أمه «كاملة» ولا انقطع «بطرس» أخوه الاكبر عن العمل ليل نهار ليمكنا جبران من أسباب العلم وها هى ذى شقيقته الكبرى «مريانا» وشقيقته الصغرى «سلطانة» تنضمان الى العاملين وتقفان ابرتهما على انتزاع الرزق من أشداق القدر القاسى فى ذلك المزدحم الذى يمشى فيه القوى على هام الضـــعفاء . فكم من مرة ناجت الأم ربها قائلة : «سبحانك اللهم أنترك قريتنا الهادئة الوادعة الى هـــذا المصطخب المدوى بعزيف الجن ؟ أنهجر أهلنا وجيراننا وبنى

جلدتنا الى قوم غرباء عنا فى الجنس واللغة والعاطفة ؟ أين
بيتنا الجميل الملألىء بأشعة الشمس تحف به الغاب والرز
والخمائل الى هذا الكهف المظلم المتداعي وهذه الأزقة الملتوية
فأى مغنم كان لنا من هجرتنا ؟ فنحن لا نزال فريسة الفقر
وشظف العيش ، بل زادنا الزمن شقاء وبؤسا بهذا العمل
المتواصل الذى يستنزف نور العين ودم الفؤاد وبهذه
الادواء التي بدأت تنشب أظفارها فينا فرحماك ربي
رحماك ٠٠٠ »

ثلاث كوارث !٠

رجع جبران الى بسطن فاذا داء السل قد اختطف شقيقته
الصغرى منذ أيام فترنح من هول الفجيعة ، ولكنه تماسك
وتمالك نفسه رحمة بأمه واشفاقا عليها ثم ما عتم القدر أن
فجعه بعد زمن قصير بأمه وشقيقه الاكبر ذهبا ضحية ذلك
الداء الوبيل فتقطعت نفسه حسرات واظلمت الدنيا فى عينيه
وهاله أن يجر أثقال الحياة أسير الحزن والفقر، غير أنه سرعان
ما ألم بنفسه المتضعضعة وسرعان ما أهابت به عزيمته
الجبارة الى الجلاد والكفاح ومواجهة أحداث الزمان بالصبر
الجميل والعمل المتواصل ٠ وكان له فى شقيقته « مريانا »
الأسوة الحسنة فقد أصبحت عائله الوحيد يتلقى رزقه من
ثقب ابرتها الضيق ، فكم عصر قلبه انكبابها على الوشي
والتطريز آناء الليل وأطراف النهار لتستطيع أن تقوم
بأودها وأوده فكل شكة ابرة منها انما كانت تشك نفسه
صدره وتخزه بوخزات الأسى والألم

في ميدان الجهاد

كان الشاب جبران قد بدأ ينشر نفثاته فى الصحف
العربية بعنوان « دمعة وابتسامة » فتلقى الرضى والاعجاب
وتبقى عند حد الرضى والاعجاب لا توفر له ولشقيقته صبابة

أمن قوت . وكان فى أثناء ذلك قد وطن النفس على التماس الرزق من نتاج ريشته فانصب يرسم ليل نهار على أمل أن يعرض رسومه فى معرض عام لعله يبيع منها شيئا يدفع بثمنه عنه غائلة الفقر

عز على الاقدار أن ترأف بالشاب النشيط العامل وأن تبدله من يأسه أملا ومن عسره يسرا ، فقد أخفق المعرض اخفاقا ذريعا واضمحلت معه الآمال الجسام ومر الزوار بالرسوم والالواح فما استرعت انتباههم ولا وجدوا فى فنها ما يحملهم على شرائها وربما كانت مسحة الكآبة المتجلية فيها ورموزها الخفية سببا فى اعراض القوم عنها

لا عجب أن يستوحى جبران الألم ويصوره فى الواحه فهل كانت حياته حتى ذلك اليوم الا كأسا من الآلام شربها حتى الثمالة . ان فجيعته بشقيقته الصغرى أولا اوحت أليه برسم لوح جعل عنوانه : « عودة الروح » وفجيعته بامه واخيه الأكبر الهمته برسم لوح سماه «فوارة الألم» واضطرابه فى محيط الحياة بلا سند ولا عون وتخبطه فى اثباجها تخبط الغريق أوحى اليه بصورة « رقصة الأفكار » وقد جلا كل هذه المعانى فى فن جديد يعتمد على الرمز ولا يحفل بالبيان والوضوح فكان علة الاخفاق

قد تكون الجدة فى صور جبران علة اخفاقه فالناس أعداء لما جهلوا ، وقد تكون العلة اعتماد جبران على موهبته الاصيلة التى لم تصقل بالدرس والتهذيب وكأنما قد رق القدر لحال الفتى بعد اذ شهد عذابه وجهاده الطويل ورآه لم يبع صورة واحدة من صوره ، فدفع اليه فى أخريات أيام المعرض بسيدة أمريكية تدعى « مارى هسكل » رئيسة مدرسة « مس هسكل » وصاحبتها وكانت على شىء من الدراية بالفن فاعجبت بفن جبران كل الاعجاب وابتاعت من الواحه « عودة الروح » و « فوارة الألم » وازداد اعجابها بفنه لما شرح لها من معانى الرموز ودقائقها وحاضرها فى الفن وروحه

ومراميه بلهجة فصيحة قوية مستمدة من قوى نفس تعتقد ما تقول وتعرب عنه أجمل اعراب ، فنعمت السيدة بكلامه ورفرفت روحها فى أجواء من الفن والروحانيـــة ودت لو أطالت فيها التدويم والتحليق فكانت زيارة هـذه السيدة للمعرض البسمة الاولى من فجر النجاح ...

جبران فى باريس

توثقت عرى الصداقة بين جبران ومارى هسكل فعرض الواحه فى مدرستها وكان الفن محور الحديث بينهما يفيض جبران فى وصف آياته وخوافيه وتنصت مارى هسكل اليه تعب من ذلك الينبوع المتدفق وتروى منه روحهـا الظامئة حتى اقترحت عليه يوما أن يسافر الى باريس ويتصل بزعماء الفن فى مدينة النور ويأخذ عنهم طرائقهم وخوافى فنونهم ويعود بعد ذلك مصقول الملكة وضاء العبقرية،فتبسم جبران ابتسامة حزينة فانى له تحقيق تلك الأمنية الغالية وهو فقير معدم لا يكاديكسب قوت يومه،ففهمت السيدة الامريكية معنى ابتسامتـه وهز الفن والخير أريحيتها فأغرته بالسفر ووعدته بأن تبعث اليه فى مطلع كل شهر بخمسة وسبعين دولارا يستعين بها على مواجهة الحياة بباريس ، فشكر لها يدها البيضاء وأنساه معروفها نكبة جـديدة حلت به وهى احتراق رسومه وألواحه كأنما قدر لهذا الشاب التعس أن يكون دائما أبدا حليف الرزايا والنكبـــات وأن لا يذوق جرعة من هناءة الا ممزوجة بصاب البؤس والشقاء

وما هى الا أيام قلائل حتى كان جبران أحد سكان الحى اللاتينى بباريس وتلميذا من تلامذة معهد الفنون الجميـلة ينهل من معين الفن ولا يرتوى

قضى جبران بباريس ثلاث سنوات لم ينقطع فى خلالها عن الدرس والتحصيل والوقوف على أسرار الفنون واستيعاب مذاهب الجهابذة الاعلام ممن طار لهم صيت جميل فى أجواء

الفنون ولم يكتف بما في باريس من متاحف يقضى فيها الساعات الطوال من بياض نهاره فاحصا دارسا متأملا بل أراد أن يلم بروائع العواصم الاوربية فزار روما وبروكسل ولندن ووقف في متاحفها وقفة العابد المتخشع يتملى مما تقع عليه عينه من آيات يلألىء فيها وحى العبقرية فى سماء الادهان والالوان أو فى تجاليد الصم الصلاب من الانصاب والتماثيل

ولم تكن حياة جبران بباريس وقفا على دراسة الفن بل كان للادب فيها نصيب كبير فطالما قضى سواد ليله منكبا على الكتابة والتاليف يسكب فى كؤوس الحروف روحه التى يسكبها مع طلاء صوره وألواحه

بين التصوير والادب

وكان جبران حتى ذلك العهد قد أصدر عدة كتب منها « الموسيقى » و « عرائس المروج » و « الارواح المتمردة » فضلا عن الفصول والمقالات التى كان ينشرها فى مختلف الصحف العربية فى الوطن العربى والمهجر · وطالما رجع الى نفسه وفكر فى شانه وتساءل أيطلب رزقه من شق القلم ام من لمة المنقاش · لقد زاول الكتابة فما درت عليه بشىء وزاول التصوير فما فتح له أبواب الرزق · انه يهوى التصوير مثلما يهوى الكتابة، أفحتم عليه أن يتخصص بأحد هذين الفنين ويهجر الآخر ؟ ترى أتسعفه القريحة لو زاولهما معا أم تذهب بددا فلا يصيب فيهما الا نجاحا ضئيلا ؟ كانت مثل هذه الاسئلة تراود فكره فلا يستطيع عنها جوابا فكلا الفنين حبيب الى نفسه وكلا الفنين يغريه بمتع الوصال وكلا الفنين أوحى اليه بآثار جميلة فأيهما يهجر وأيهما يؤثر وهو الذى يقول فى رسالة بعث بها الى ابن عمه : « ... انا أصرف حياتى بين الكتابة والتصوير

ولذتي في هذين الفنين تفوق كل لذة ... » على أن تفكيره في الانقطاع الى أحد الفنين لم يطل فقد صمم أن يخلص للحبيبين وأن يعيش لهما ويتخذهما أداة للتعبير عما يجيش في صدره من عاطفة متقدة ، فان كانت الالوان والاصباغ قد وفرت له أسلوب التعبير فالحبر والورق يهيبان به أيضا الى أن يجعلهما رسول الفكر الى العقول والقلوب . وفي ذلك يقول لابن عمه في نفس الرسالة التي أشرنا اليها : « ... ان هذه الشعلة التي تغذي عواطفي تريد أن تتخذ لها ثوبا من الحبر والورق »

بقي جبران زمنا مشغول الفكر مقسم الفؤاد بين التصوير والكتـــابة حتى قدر له أن يزور يوما هو ونفر من زملائه المثال العظيم « رودان » أقبلوا عليه في مرسمه ومنحتـه يسالونه ويأخذون عنه، فاستفاض الرجل يحدثهم عن الفن وأهله وعن أسراره وعباقرته وتطرق به الحديث الى الكلام عن « وليم بلايك » ذلك المتفنن العظيم والمصور الشاعر الذي اتخذ التصوير والشعر أداة يعرب بهما عن خلجات فكره ونبضات قلبه فكان في كليهما الامام المبرز

خرج جبران من لدن « رودان » والدنيا لا تسعه من شدة الفرح فقد نزل كلام الاستاذ بردا وســلاما على فؤاده فلا حيرة بعد اليوم ولا تردد، فلسوف يظل يكتب ويصور ولسوف يكون له من « وليم بلايك » القدوة الحسنة والمثال الجميل

ولكن سرعان ما شاب هذه الفرحة حزن جديد ، كأنما الفرح أمر محرم على هذا الفتى الا اذا تحلب بعصارة البؤس والألم ، فما أن يشعر بانطلاق أجنحته في عالم الفن مصورا وكاتبا ، حتى يفاجئه القـــدر القاسي بنعي والده فيشرب لوعته وينثني على قلبه الدامي المفجوع بأمه وأخيه وشقيقته الصغرى ، فاذا هو في غشاء من نبال ـ كما يقول المتنبي ـ

واذا نصل الفجيعة بأبيه يتكسر فى فؤاده على النصال السابقات

عزيمة تتغلب على النكبات

قفل جبران عائدا الى بسطن بعد أن تزود بخير زاد من الفنون الاوربية وآدابها ومكث فى هذه المدينة نحوا من اثنى عشر شهرا فريسة البرم والتأفف وضيق الحال ، وكانت الذكريات السود ماثلة لعينيه وفؤاده كلما أجال طرفه فى ذلك المنزل التاعس وذكر أحبابه الذين صرعهم فيه داء السل،فخرجوا منه الى سكنى المقابر والاجداث. وكان يزيد نفسه ألما وعذابا أنه لا يزال وهو فى الثامنة والعشرين من عمره عالة على شقيقته وعلى المحسنة الامريكية مارى هسكل فيثور فى وجه القدر ثورة دفينة تقطع نياط قلبه يأسا وتعذيبا ويهتف بنفسه قائلا : « شربت كأس البؤس حتى الثمالة وفجعنى الدهر بأعز الناس الى وذقت مرارة الغربة ورضيت بالاحسان أنهله من كف شقيقتى العاملة ويد السيدة الامريكية الخيرة،ونذرت نفسى للفن وبلغت فيه مقاما اغبط عليه وعملت منذ صباى ليل نهار ولما أظفر بفتات من موائد الفوز ، فحتام هذه الحرب أيها الدهر الغليظ الكبد »

على أن المصائب والنكبات ماكانت لتفت فى عضده وانما كانت تشحذ عزمه وتزيده قوة وجلدا على الجهاد والكفاح وفى هذا يفتح صدره لابن عمه ويقول له فى احدى رسائله:

« تأمل قليلا يا نخلة بحياة جبران ترها نوعا من الجهاد والنزاع بل هى شبيهة بسلسلة مصائب آخذة حلقاتها بعضها برقاب البعض . أقول هذا وأنا صابر متجلد ، بل فرح بوجود المصاعب فى حياتى لاننى أرجو وأريد أن أتغلب عليها اذ لولا المصاعب لما وجد الجهاد والعمل ولكانت الحياة قفراء باردة مملة »

ومهما أوتى الانسان من قوة الصبر والعزيمة وقوة

النضال والجهاد فقد يضعف أحيانا ازاء النكبات المتوالية ويدفعه الاخفاق فى الحياة الى تلمس مواضع علل الاخفاق الذى منى به فى صدر حياته فبدت له فى قسوة الغربة عن وطنه الارضى ووطنه الروحانى. وأعرب عن تلك الغربة فى احدى كلماته فقال :

« أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير أنها تجعلني أفكر أبدا بوطن سحرى لا أعرفه وتملأ أحلامى بأشباح أرض قصية ما رأتها عيني

أنا غريب عن نفسي فاذا ما سمعت لساني متكلما تستغرب أذني صوتي

أنا غريب عن جسدى وكلما وقفت أمام المرآة أرى فى وجهى ما لا تشعر به نفسي وأجد في عيني ما لا تكنه أعماقى

أنا غريب وليس في الوجود من يعرف لغة نفسى

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ما تنظمه ولهذا أنا غريب وسأبقى غريبا حتى تخطفنى المنايا وتحملنى الى وطنى »

رأى جبران أن مدينة بسطن تقسو عليه بذكرياتها الاليمة وتضيق فى وجهه مجال المعاش فهجرها الى نيويورك لعله يجد فى مجاليها الفساح تحقيق ما يصبو اليه من الآمال

كان الرجل صاحب آمال وأحلام وهو القائل فى احدى كلماته : « أفضل أن أكون أحقر الناس ولى أحلام أرغب فى تحقيقها من أن أكون أعظمهم ولكن بدون أحلام ولا رغبة »

ضرب فى نيويورك مع الضاربين في مناكب الرزق وعاش فيها نحوا من تسعة عشر عاما يقدس العمل ولا شيء غير العمل . وتلك خلة أثرت عن الامريكيين فالوقت عندهم أثمن شيء فى الحياة كما ان العمل هو أقدس مقدساتها ولقيت تلك الخلة من فؤاد جبران هوى حبيبا فاقبل على العمل لا تأخذه فيه ونية ولا هوادة

وفلسفة جبران فى حب العمل وتقديسه بارزة في متنوع

آثاره فلنجتزىء منها بأثرين اثنين ، أولهما فقرة من رسالة كتبها الى ابن عمه بلبنان يقول فيها :

« أنا أحب العمل يا نخلة ولا أدع دقيقة من وقتي تمر بلا عمل . أما الايام التي تكون فيها نفسي راقدة وفكرتي خاملة فهى أمر عندى من العلقم وأشد قساوة من نياب الذئاب »

وثانيهما قوله عن العمل :

« ان العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة فاذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجرا ملولا فالاجدر بك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة لانك اذا خبزت خبزا وأنت لا تجد لك لذة في عملك فانما أنت تخبز خبزا علقما لا يشبع سوى نصف مجاعة الانسان وان أنت أنشدت أناشيد الملائكة ولم تحب أن تكون منشدا فانما أنت تصم آذان الناس عن الاصغاء الى أناشيد الليل وأناشيد النهار »

ذلك راى من يحب العمل ويقدسه فاذا حالت دونه يوما عقبة من العقبات او علة من العلل ملأ الاسف صدره وصاح مثل هذه الصيحة التي بثها جبران صديقه الحميم ميخائيل نعيمة فى احدى رسائله اليه قائلا :

« أنا فى هذه الايام بين ألف عمل وعمل مثل نحلة مريضة فى حديقة أزهار . ما أكثر العسل وما أجمل أشعة الشمس على الازهار . ولكن النحلة مريضة مشوشة . صل من أجلى واكتسب أجرى ... »

انتصار ونجاح

عمل جبران وكافح وطالع الناس بأفكاره الجديدة مبثوثة فى كتبه ومقالاته وبفنه الجديد متألقا فى ألواح صوره حتى بهر الزمن وفرض نفسه على عصره وجيله فطارت له شهرة فى التصوير فاقبلت عليه الدنيا وذاع له صيت فى الفلسفة والادب فلفت اليه الانظار والقلوب

وكان صاحب رسالة بثها الناس بصوره فاستوعبتها الخاصة من أهل الشرق والغرب على السواء فلغة التصوير لغة عالمية لا تستعصى على فهم الحاذقين من عشاق هذا الفن وعارفيه مهما اختلفوا مواطن وبلادا ، وقام كذلك يبث الناس رسالته فى أدب جديد أطلع على الشرق العربى فجرا جديدا زاهر الاشعة واللألاء وكان قوام ذلك الادب الجديد الغوص فى أعماق النفس وتطويع اللفظ للفكرة المثمرة والعاطفة المتقدة ، ثم شاء جبران أن يكون رسول الشرق الى الغرب يحمل اليه كنوز الحكمة الشرقية وذخائر الفكر العربى فكتب باللغة الانجليزية عدة كتب منها «المجنون» و «السابق» و « النبى » و « رمل وزبد » و « آلهة الارض » فغزا نفوس أهل الغرب وحملهم على أن يتطلعوا الى الشرق ويكبروا شان عباقرته. وكثيرا ما زين جبران كتبه برسومه فاجتمع فيها قلم الاديب وريشة المصور فدرت عليه تلك الكتب مالا وافرا استطاع به وبما كان يكسبه من ألواح صوره أن يطأ بقدميه الفقر وينعم هو وشقيقته بحياة هانئة ميسورة وتصل ثروته الى نحو من مئة الف دولار وهى ثروة ما حلم بها فى عهده ولا بعد عهده كاتب ولا مصور من كتاب هذا الشرق أو مصوريه وانها لثمرة الجهد والعمل وجزاء المثابرة

ذلك الصبى القروى المولود فى قرية متواضعة من قرى لبنان يصبح بجده واجتهاده وعمله المتواصل وصبره على مقارعة الاحداث علما من أعلام الفن والادب يلهج بذكره المشرق والمغرب وينزلانه فى الذروة من مساحب النجوم

وليست هذه العجالة دراسة لفنه وأدبه حتى نمضى فيهما باحثين متقصين معللين وانما هى ضربة منقاش تحاول أن تصور لنا العصامية كيف تكون والعمل كيف يقدس والعزيمة الجبارة كيف تاكل نيرانها وقود المصاعب والمصائب فى هذه الحياة

واذا نحن تجاوزنا عن الدراسة المستفيضة نعرض بها

ادب جبران وفنه في عالمي الادب والتصوير ، فلا أقل من أن نحلي هذه الترجمة ببعض أقوال العظماء فيه

قال الكاتب الامريكي الكبير « برزباين » وهو من هو : « لو كنت من المؤمنين برجوع المسيح الى الارض مرة أخرى لأيقنت أنه عاد بشخص جبران خليل جبران »

وقال الزعيم الديني « فرنكل » عن كتاب « النبي » :

« أعترف أنه لم يسبق لي قط أن تحركت نفسي من أعماقها كما تحركت بعد أن تلوت كتاب النبي مرات كثيرة »

ولئن كان للنحات الفرنسي العظيم « رودان » فضل القضاء على تردد جبران يوم حاضره عن « وليم بلايك » انه نظر بعين الفاحص الخبير الى هذا العبقري الشرقي فقال عنه :

« يجب أن يتوقع العالم شيئا كبيرا من جبران شاعر لبنان ونابغته فهو وليم بلايك القرن العشرين »

ومع هذا كله فجبران فيما رسم ونثر ونظم وفيما جاء به من بدائع وروائع لم يكن راضيا عن نفسه لانه رأى أعماله دون الكمال الذي سعت اليه نفسه الكبيرة ، وهكذا العظماء يأتون بالنفائس بل بالمعجزات ويرونها مع ذلك أبعد ماتكون عن الكمال الذي ينشدونه وتتطلع اليه نفوسهم . وجبران واحد من هؤلاء العظماء المغرمين بالمثال الأعلى فقد عرض لآثار قلمه وريشته في عددها وروعتها فوجدها ضئيلة صغيرة لا تصور الشعلة المقدسة التي تضطرم بها جوانحه وفي هذا يقول في رسالة بعث بها الى الآنسة مي :

« أنا يا مي بركان صغير سدت فوهته، فلو تمكنت اليوم من كتابة شيء كبير أو جميل لشفيت تماما ... لا تقولي لي : انشدت كثيرا ، وما أنشدته كان حسنا ، لا تذكري أعمالي الماضية لان ذكرها يؤلمني لان تفاهتها تحول دمي الى نار محرقة ... لقد ولدت وعشت لأضع كتابا - كتابا واحدا صغيرا - لا أكثر ولا أقل ، قد ولدت وعشت وتألمت لأقول كلمة واحدة مجنحة ، ولكنني لم أصبر ، لم أبق صامتا حتى

تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتي . لم افعل ذلك بل كنت ثرثارا فيا للأسف ويا للخجل وبقيت ثرثارا حتى انهكت الثرثرة قواي . وعندما صرت قادرا على لفظ اول حرف من كلمتي وجدتني ملقى على ظهري وفي فمي حجر صلد ...»

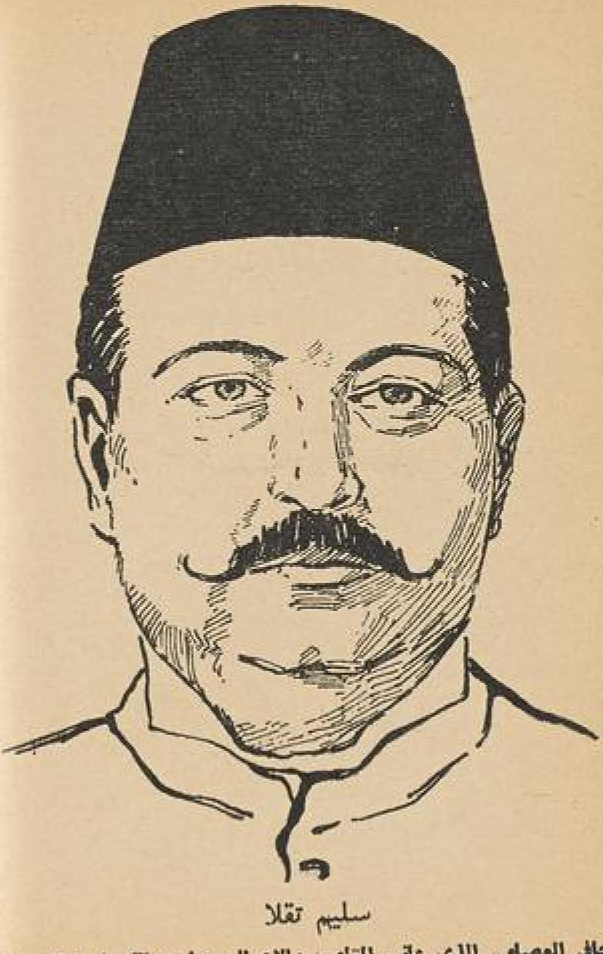
ذاك تقدير نفسه الكبيرة الظامئة الى ينابيع الكمال في الفردوس السرمدي.. على أن للعبقرية تقديرا آخر كله رضى وانصاف واعجاب فقد كتبته في سفر الخلود وقالت فيه ان جبران قال كلمته وادى الرسالة ...

وفي ليل اليوم العاشر من شهر أبريل سنة ١٩٣١ استرد الله وديعته في مستشفى القديس منصور بنيويورك وسكنت حركة النسر بعد طول التدويم والتحليق وعادوا به بعد أشهر قلائل الى لبنان الذي طالما حن اليه فاستقبلت بيروت جثمانه استقبالا ما عرفه الغزاة الفاتحون وسارت وراء نعشه الى مسقط رأسه أرتال من السيارات سدت الطرق والشعاب بين العاصمة وبشرى ، وأودع دير مار سركيس المطل على الوادي المقدس ...

واحتفل القوم بعودة النسر احتفالا امتزجت فيه عبرات الحزن ودموع الفخر ، فمن يزر تلك البقعة اليوم يهده أهلها الى متحف جبران وقد زخر بآثاره الفنية والادوات التي كان يستعملها في الكتابة والتصوير الى المنضدة التي كان يجلس اليها والمقعد الذي يقيل فيه ثم يسيرون به الى ضريح جبران في خشوع ووقار ولقد حملهم الزهو والخيلاء الى أن يكتبوا على الضريح يوم أقاموه : « هنا يرقد نبينا جبران » فعدلوا بعد ذلك عن الغلو في الفخر الى الغلو في المحبة ونقشوا على الضريح :

« هنا يرقد بيننا جبران ١٩٣١ »

سليم تقلا



سليم تقلا

الصحافى العصامى الذى عانى المتاعب والاهوال وواجه الكساد والاضطهاد بعزيمة صادقة وايمان ، حتى تحقق ما كان ينشده من نجاح وبلغ ما كان يسعى اليه من اهداف

الصحافى العصامى

هو عصامى فى الصحافة المصرية ، اسس جريدة الاهرام فى وقت لا يعرف سواد الجمهور من الجرائد اليومية الا اسمها ، ولا تسمح الحكومة بالاذن بنشرها الا بعد تردد طويل ، فمكث عاما كاملا يسعى فى الحصول على امتياز الجريدة حتى سمحت الحكومة المصرية بامتياز جريدة الاهرام سنة ١٨٧٥

وليس جهاده فى ذلك الحين للحصول على امتياز الاهرام هو الجانب الوحيد من متاعبه وعصاميته ، بل لقد لاقى فى سبيل الوصول الى غايته من انشاء جريدة ناجحة صعوبات جمة

ولقد عانى الكساد والاضطهاد والأزمات المالية ، وسهر الليالى الطوال ، بل تحمل السنوات العجاف التى لا تدر ربحا فى الاعمال الصحافية ، ولا تثمر غير الخسائر المادية ، ولم يكن عنده من الوسائل ما يخفف عنه من تلك الصعاب ، ولم يكن له من معين غير شقيقه بشارة تقلا الذى كان يتولى اعمالها الادارية . ومع ذلك فقد كان سليم تقلا يعمل أعمال عدد من الموظفين والعمال فى الشؤون التحريرية والادارية

ولقد هوى الصحافة منذ نزل مصر ، ولم يكن من قبل صحافيا ، بل كان مدرسا رقيق الحال ، تعلم فى مدارس لبنان ، وكان لا يجد نفقات التعليم ، فاخذ يستعين عليها بما كان يقوم به من أعمال فى ساعات الفراغ

فى كفر شيما

ولد سليم تقلا فى أواسط سنة ١٨٤٩ بقرية فى سفح لبنان تدعى « كفر شيما » نبغ فيهـا جماعة من العلماء والادباء فى الشرق العربى ، منهم المرحوم الشيخ ناصيف اليـازجى ، والشيخ ابراهيم اليازجى والشيخ خليل اليازجى ، والمرحوم أمين شميل وشقيقه الدكتور شبلى شميل وغيرهم من الأدباء والعلماء والأطباء والشعراء

وقد تلقى سليم تقلا مبـادىء العلوم فى مدرسـة تلك القرية ، ثم انتقل منها الى مدرسة عبية بلبنان ، ولـكن هذه المدرسة لم تكن تقبل فى صفوفها من كان دون الخامسة عشرة من عمره ، فاستنجـد والده الدكتـور فان ديك فانجده وتوسط فى ادخاله ، فقبلته المدرسة وتجاوزت عن صغر سنه لما توسمته من نجابته ، وحسن استعداده ، فاقام فى هذه المدرسة يتلقى علومـهـا ومعارفها ، واعجب اساتذته بتوقد ذهنه ، وجمال اخلاقه ، وحسن سيرته وعظم نشاطه فى الاهتمام بدروسه ، ومنافسته لاقرانه

ولقد بقى مثابرا فى مدرسة عبية على اجتهاده ونشاطه حتى وقعت ثورة سنة ١٨٦٠ فى ربوع الشام ضد استبداد الاتراك بالحكم واضطهادهم للاحرار ، فاتصل لهيبها بعبية وما جاورها ؛ فبرح سليم المدرسة ، وهاجر الى بيروت ، ودخل « المدرسة الوطنية » وسنه وقتئذ أحد عشر عاما

وكانت المدرسـة الوطنيـة قد انشأها المرحوم بطرس البستانى الاديب اللبنانى الكبير ، فعكف فيها على الدرس والتعليم حتى اتم دروسه ، وكان اثناء وجوده بها يشتغل فى ساعات فراغه ليستعين بذلك على نفقات التعليم

مدرس فى مدرسة

وبعد أن حصل على اجازة هذه المدرسة عين استاذا فى

المدرسة البطريركية ببيروت . وقد كان فى هــذه المدرسة يتعلم ما اتقنه ، ويتقن ما فاته من العلوم خصوصــا العلوم العربية ، التى كان يتلقاها على الشيخ ناصيف اليازجى ، الذى كان من اساتذة تلك المدرسة . ولقد كان يعتمد عليه الشيخ ناصيف كثيرا فى شرح بعض الدروس على طلبتــه دلالة على ثقته به ، واعجابا بذكائه وسمو مداركه

ولم تمض مدة طويلة على تدريســه فى المدرسة البطريركية حتى صار وكيل اعمالها ، ومدير شؤونها . وقد الف فى اثناء ذلك كتابا فى النحو والصرف على اسلوب مبتكر طبع ونشر . وكان الاعتماد عليــه فيما بعد فى تدريس هذين العلمين فى المدرسة البطريركية

وكان سليم تقلا طموحا ميالا الى الرقى والتقدم ، فلما وجد نفســه قد وصل الى غايته فى مهنة التدريس ، تاقت نفســه الى الاشتغال بالـكتابة والادب ، ورغب فى انشاء صحيفة ادبية وسياسية لتروى ميوله الخاصة

الاهرام الاسبوعية

وكانت مصر فى اواخر القرن التاسع عشر قد نشطت فيها حركة ادبية ، وانشئت بها عدة مجلات محدودة كان البعض منها حكوميا ، والبعض الآخر تشجعه الحـكومة ، فلاح له ان يرحل الى مصر ، فنزلها سنة ١٨٧٤ واتصل برجال حكومتها واهل الفضل والادب والعلم فيها . واعتزم ان ينشىء جريدة عربية . وكانت الجرائد كما قلنا لا يعرف سواد الجمهور منها الا اسمهــا ، وليست من المشروعات المربحة ، ولكنه على الرغم من ذلك اخذ يسعى ويتردد بين مصر والاسكندرية سنة كاملة للحصول على امتياز جريدة حتى سمحت له الحكومة بامتياز جريدة الاهرام ، فأصدرها اسبوعية بمدينة الاسكندرية ، ولم يستطع اصدارها يومية الا بعد سنوات !

اصدر سليم تقلا الاهرام اسبوعية ، ولم يكن لديه من معدات التحرير والتحبير والنشر والطبع الا ما فطر عليه من الثبات وحسن التصرف والاستقامة ، وما اكتسبه من العلم والاختبار مع شيء يسير من المعدات المادية ، فقاسى في سبيل نشر الاهرام مشقات كبيرة ، ولكنه ذلل كل تلك الصعاب بالصبر والمثابرة ، فضلا عما كان يلاقيه اصحاب الجرائد فى ذلك الحين من استهجان الناس للصحافة وقلة عنايتهم بالقراءة والاقبال على تثقيف انفسهم وذويهم ، واهمالهم لتتبع الحوادث وما ينبغي ان يعرفه الانسان من تاريخ حياته اليومية ، وما يجب عليه من تثقيف مداركه ومسايرته للتطور الحديث. ولقد قال سليم تقلا مرة لاحد اصدقائه :

« انشات الاهرام وانا عالم بما يحول دون نشرها من المصاعب ، فكنت اقضي النهار والليل عاملا بدنا وعقلا ، وكنت احررها واديرها ، والاحظ عمالها ، واتولى معظم اعمالها مما يقوم به الآن عشرة من الموظفين »

الاهرام اليومية

بقيت جريدة الاهرام فى الاسكندرية تصدر اسبوعية ، ثم راى مؤسسها ان يصدر جريدة يومية سماها صدى الاهرام ، فلاقى من المتاعب فى اصدار هذه الجريدة اضعاف ما لاقى فى اصدار جريدة الاهرام . ومما يحكى عنه انه لما اصدر صدى الاهرام اليومية طبع من عددها الاول اربعة آلاف نسخة ، وزعها على نخبة من اهل القطر واعيانه وشخصياته كجارى العادة فى الجرائد فى ذلك الحين عند اول صدورها ، فرجعت اليه الا عشرات منها . على ان ذلك لم يثن من عزمه ، بل واظب على اصدارها ، حتى وقع الخلاف بينه وبين الخديو اسماعيل ، واستاء هذا الخديو من اخبار نشرها عن سياسته ، فامر بوقف جريدته وسجنه ومصادرة مطبعته ، ثم شفع له بعض ذوى النفوذ عند الخديو ، فعفى

عنه وعن صحيفتيه ، فعاود اصدار صحيفة ثالثة سماها « الوقت ». ولكنها لم تعش طويلا ، فاكتفى بالاهرام اليومية

وما زال سليم تقلا يصدر جريدته الاهرام بالاسكندرية حتى كانت الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ فاضطر الى المهاجرة الى سورية كما فعل غيره من النزلاء غير المصريين . فلما احرقت الاسكندرية أصابت النيران مطبعة الاهرام بالمنشية فاحرقت كثيرا من اعماله وكتاباته ومؤلفاته . ولما انقشعت غياهب الثورة عاد الى الاسكندرية واعاد نشر الاهرام

وفى سنة ١٨٩١ سافر الى فرنسا فزار عاصمتها ، وكثيرا من مدنها وكان يكاتب الاهرام منها ، وفى السنة التالية سنة ١٨٩٢ أصيب بألم فى القلب ، فاشار عليه الأطباء بالسفر الى لبنان لتغيير الهواء فسافر اليه ، ولكنه لم يلبث أن توفى ولم يخلف ذرية

الصحافى الأديب

وكان رحمه الله كاتبا مخلصا واديبا مسالما ، وديع النفس، كريم الاخلاق . وقد استكتب فى جريدته كبار العلماء والادباء المشهورين من امثال الشيخ محمد عبده وغيره

وكان رائع التنظيم لصحيفته حتى امتازت على الصحف اليومية الاخرى بحسن تنظيمها وعنايتها بالبرقيات الخارجية ، والاخبار الداخلية ، وكان ينتخب البرقيات الهامة ، فيجعل لها الصدارة

ولما اصدر الاهرام يومية سنة ١٨٨١ اذاع سليم تقلا مبادئها وخطتها وهى تتلخص فى انه سيرفع منها القاب التمجيد والتقريظ مثل : « الوطنى النزيه » ، و « الهمام النبيه » و « الشريف الوجيه » وما الى ذلك من الالفاظ . وسيكتفى بالرتب الرسمية

وقد قرر أن يلحق بذيل الصحيفة ترجمة طيبة لناحية

من نواحي الادب الرفيع في التراجم والقصص ، ثم مضى يعيد نشر هذا في كتب تصدر عن الاهرام ، وتباع للناس ، فساهم بتعريبه الكتب ونشرها في اذاعة لون من الوان الثقافة العامة كانت مصر وسائر بلاد الشرق في اشد الحاجة اليه . وخصص يوما من ايام الاهرام لمراجعة النشاط الاقتصادي في مصر ومعالجة الامور المالية معالجة قدمت محررها في هذه الناحية على جميع محرري عصره . وافرد في الاهرام جزءا لنشر انباء الشرق الادنى وشرح مختلف نشاطه العلمي والأدبي والسياسي

ولم يكن سليم تقلا صحافيا او سياسيا فحسب ، بل اديبا وشاعرا ايضا . وهو القائل في الأساطيل الحربية :

تلك الأساطيل فوق الغمر سابحة
والغمر منها كسهل ، وهي كالقلل
دانت لهيبتها الأنواء خاضعة
فحيثما قصدت حلت بلا مهل

وله في الدعابة شعر لطيف ، قال في التدخين :

عذل التدخين قوم قد راوا
بيدي سيكارة اعشقها
قال دعها ، فهي سم ناقع
قلت لا والله لا اعتقها
ان تكن سما فاني محرق
شرها بالنار اذ احرقها
وعليه فاعذلوا او فاعذروا
فعلى الحالين لا اطلقها

(ط ١٠)

حافظ ابراهيم



حافظ ابراهيم

شاء القدر أن يبدأ « شاعر النيل » مواجهة الاحداث ومقارعة الخطوب وهو لم يجاوز العام الرابع من عمره ، فقد ذاق فى طفولته وشبابه ما ذاق من بؤس وصعوبات وتشريد

شاعر النيل

نشا حافظ ابراهيم فى بيئة شعبية يتيما فقيرا ، وذاق فى طفولته وشبابه ما ذاق من بؤس وصعوبات وتشريد

كان ابوه ابراهيم فهمى احد المهندسين الموظفين بالحكومة المصرية ، وهو مصرى صميم ، ذو دخل محدود . وكانت امه السيدة هانم احمد البورصه لى من اسرة تركية تسكن المغربلين ، وهو حى شعبى بالقـــاهرة . وتعرف باسرة الصروان ، اذ كان والده امين الصرة فى الحج ، فلقب بالصروان اى (القيم على الصرة) . ولقبت الأسرة به

ومع ان الدم التركى كان يجرى فى عروق حافظ ابراهيم كالدم المصرى الا انه لم يمدح الأتراك كما مدح مصر والعرب . وكان ابوه وقت ولادته مشرفا على بناء قناطر ديروط ، وقد انتقل اليها هو وزوجته . وهناك سفينة راسية على شاطىء النيل فى اقصى الصعيد ولد شاعر النيل ، وتفتحت عيناه اول ما تفتحت على صفحـاته الخمرية الجارية . واستنشق النسـمات الاولى من نسـماته العاطرة التى تهادى على ضفتيه ، وتمر بين مروجه الخضراء ، ورياضه المخضلة الحسناء

طفولة بائسة

وشاء القدر ان يبدا حافظ ابراهيم مواجهة الأحداث ، ومقارعة الخطوب ، وهو لم يجاوز العام الرابع من عمره ، فقد توفى ابوه فى ديروط ، ولم يخلف له مالا ولا جاها ، ولم

يترك له الا اليتم والعدم المريرين وهو فى هذه السن الغضة ، فاضطرت امه الى الانتقال به الى القاهرة ، حيث التجات الى اخيها « محمد نيازى » وعاشت هى وولدها اليتيم المسكين فى كنفه . ولا شك فى ان مؤونتهما كانت واجبا اثقله اداؤه ، اذ كان هو الآخر موظفا صغيرا ، يعمل مهندسا للتنظيم

وكان على خاله هذا ان يعلمه حين بلغ السن التى تؤهله لبدء الدراسة ، فلم يسعه الا ان الحقه بمكتب لتعليم القراءة والكتابة وشىء من العربية والحساب كان فى حى القلعة بالقاهرة حينذاك ، ويعرف باسم « المدرسة الخيرية »

ومن هذا المكتب ، او « الكتاب » الاولى المتواضع البسيط ، انتقل حافظ الى «مدرسة القربية الابتدائية» . وكانت فى ذلك الحين تعلم تلاميذها ما يتعلمه تلاميذ « الكتاتيب » ولكن بطريقة اقرب الى النظام الحديث فى التعليم

ثم انتقل حافظ الى مدرسة « المبتديان » . كما التحق بعدها « بالمدرسة الخديوية » . ولكنه لم يلبث فى هذه المدرسة الاخيرة الا فترة قصيرة ، ثم تركها وغادر القاهرة كلها الى مدينة طنطا ، ليعيش هناك مع اسرة خاله الذى نقل اليها فى ذلك الحين

وفى خلال هذه السنين العشر او نحوها ، التى قضاها حافظ متنقلا بين « الكتاتيب » والمدارس الابتدائية فى القاهرة ، تأصلت الشعبية فى نفسه ، وامتلأ ذهنه وقلبه بمختلف الصور الصادقة الناطقة عن الحياة القاتمة لطبقات الشعب الكادحة الفقيرة . ولا شك فى ان تجاربه الخاصة فى هذه السن المبكرة كان لها اكبر الاثر فى حياته ، وكانت هى المنبع الغزير لما ردده فى شعره من شكوى وعتاب ورثاء لليتامى والمساكين

ولعله كان يصف طفولته البائسة المشردة ويتمه الأليم فى المحاورة التى جرت بينه وبين صديقه وزميله المرحوم خليل مطران شاعر القطرين فى حفل اقامته جمعية رعاية الاطفال بالأوبرا سنة ١٩١٣ ، اذ قال فيها :

هـــــذا صبى هائم تحت الظلام هيام حائر
ابلى الشــقاء جديده وتقلمت منــــه الأظافر
فانظـــر الى اســماله لم يبق منهــا ما يظاهر
هو لا يريد فراقهـــــا خوف القوارس والهواجر
لـكنهـا قد فارقتـــه فراق معـــذور وعاذر

ولعل تلك الصورة لنفســـه فى ذلك الحين كانت نصب عينيه حين نظم قصيدته التى انشدها فى حفلة الجمعيـــة الخيرية سنة ١٩١٦ ، وفيها يقول على لسان يتيم بائس ممن كفلتهم هذه الجمعية :

قضيت عهــد حداثتى ما بين ذل واغتـــــراب
لم يغن عنى بين مشـــرقها ومغربها اضـــطراب
صفرت يدى فخوى لهــا راسى وجوفى والوطـــاب
وانا ابن عشر ليس فى طوقى مكافحـــة الصعاب

بل اكبر الظن أن حياة حافظ التلميذ اليتيم الصغير ، وما اشتملت عليه من آلام وآمال فى البيت والمدرسة ، كانت فيها مشابه من حياة الطفلة التى وصفها فى احدى قصائده قائلا على لسانها :

اخشـــى مربيتى اذا طلع النهـــار وافزع
واظل بين صـــواحبى لعقـــــابها اتوقع
لا الدمع يشفع لى ولا طول التضرع ينفـــع
واخاف والدتى اذا جن الظـــلام واجزع
وابيت ارتقب الجــزا ء واعينى لا تهجـــع
ما ضرنى لو كنت اســتمع الـكلام واخضـع

ما ضرنى لو صنت اثــوابى فلا تتقطــع
وحفظت أوراقى بحـــفظتى فلا تتـــوزع

ذلك لأن توقع العقاب فى المدرسة يبدو طبيعيا من تلميذ مثل حافظ ، عرف بين اترابه « بالشقاوة » والانصراف الى المطالعات الادبية التى تشبع ميله الخاص ، كما أن توقع العقاب فى البيت على تقطيع ثيابه وتوزيع اوراقه ليس بالشىء الغريب او المستبعد فى الوقت الذى كان يعيش فيه هو وامه ضيفين على خاله الموظف الصغير !

ومما يؤيد هذا ، انه هو نفسه قد شعر بثقل مؤونته على خاله ، بعد انتقالهما الى طنطا ، وتركه الحياة الدراسية الى غير عمل يتكسب منه ، مكتفيا بالمطالعات الادبيــة ، والاجتماع بهواة الادب من شبان المدينــة مثــل الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار الذى كان طالبا وقتئذ بالمعهد الاحمدى هنــاك ، للمذاكرة فى نوادر الأدب ، والمطارحة للشعر . وقد سجل حافظ شعوره هذا فى بيتين خاطب فيهما خاله فقال :

ثقلت عليــك مؤونتى انى اراها واهيــــه
فافرح ، فانى ذاهب متوجه فى داهـيــه

كرامة نفسه

كان حافظ فى السادسة عشرة من عمره حين ابت عليه نفسه أن يعيش عالة على خاله ، وكان عليه ان يجد لنفسه عملا يعيش منه بكده وجهده ، ولما كان لم يحصــل على شهادة دراســية تؤهله للالتحاق بعمل حكومى ، وكانت مطالعاته الكثيرة ومحفوظاته من جيــد الشعر ومختــاره ، لا تغنى غناء الشهادات فى هذا الشان ، فقد اتجه الى ميدان الاعمال الحرة ، والتحق بمكتب لاحد المحامين فى طنطا هو الشيخ محمــد الشيمى ، على امل ان يصبح محاميا ناجحا

مثله ، ولا سيما انه كان يحس فى نفسه انه على حظ عظيم من طلاقة اللسان ، والخبرة بفنون الكلام . وكانت المحاماة فى ذلك العهد مهنة مفتحة الأبواب لكل من أراد ممارستها . وقد لقى فيها حافظ اول الامر حظا مبشرا بالنجاح ، وترافع فى قضايا كثيرة بالمحاكم الجزئية القريبة من عاصمة الغربية فظفر بالحكم لصالح موكليه ، او موكلى المحامى الذى عمل فى مكتبه . غير انه ما لبث قليلا حتى اختلف معه ، فترك مكتبه الى مكتب محام آخر فى طنطا هو المرحوم محمد ابو شادى ، بعد أن ترك له بيتين ضمنهما « استقالته المسببة » من العمل فى مكتبه هما :

جراب حظى قد افرغته طمعا
بباب استاذنا الشيمى ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوء ، فقلت له :
مما .. فقال من الحسرات واحربا

ولقد وجد حافظ فى صاحبه الجديد اديبا يقدره حق قدره ، فيطارحه بالشعر ، ويناديه بالادب ، ولكن نفسه الشاعرية الملول سرعان ما سولت له مغادرة هذا المكتب ايضا ، وان لم ينس ما لقيه عند صاحبه من مودة واكرام ، فقال فى الاحتفال بذكرى وفاته سنة ١٩٢٥ :

عجبت ان جعلوا يوما لذكراكا
كأننا قد نسينا يوم منعاكا

اذا سلت يا ابا شادى مطوقة
ذكر الهديل فثق انا سلوناكا

قد عشت فينا نميرا طاب مورده
أسمى سجايا الفتى ادنى سجاياكا

فما كأولاك فى بر وفى كرم
أولى كريم ، ولا عقبى كعقباكا

الضابط الشاعر

وانتقل حافظ بعد ذلك الى مكتب محام آخر هو المرحوم عبد الكريم فهيم ، غير انه سرعان ما ترك العمل فى المحاماة كلها ، ثم عاد للقاهرة حيث التحق بالمدرسة الحربية ، وواصل الدراسة فى هذه المرة الى ان تخرج فيها برتبة الملازم سنة ١٨٩١ وهو يومئذ فى حوالى العشرين من عمره

□

عين حافظ بعد تخرجه فى المدرسة الحربية ضابطا بالجيش، فأمضى فيه نحو ثلاث سنوات ، ثم نقل الى وزارة الداخلية وعين ملاحظا للبوليس فى مركز بنى سويف ثم فى مركز الابراهيمية . ولم تكن مدرسة البوليس قد أنشئت بعد فكان ضباط البوليس يؤخذون من بين المتخرجين فى المدرسة الحربية . واعيد بعد ذلك الى وزارة الحربية

والى هنا ، كان حافظ الضابط الشاعر ، ما زال يداعبه الأمل فى ان يبلغ ما بلغه الضابط الشاعر الذى اتخذه مثلا وقدوة ، وهو المرحوم محمود سامى البارودى . وكان حافظ على حق فى هذا الأمل ، فهو فى ميدان القلم والشعر كان قد صار شيئا مذكورا فى الأوساط الادبية ، وهو فى ميدان السيف والحرب كان قد بلغ رتبة الملازم الاول !

على ان صرح آماله بدأ ينهار فجاة ، اذ احيل الى الاستيداع منذ اعادته الى وزارة الحربية ، فعاوده بؤسه القديم منذ ذلك الحين ، لان مرتبه فى الاستيداع لم يكن يزيد على اربعة جنيهات فى الشهر !

سفره الى السودان

ولبث كذلك خمسة أشهر او نحوها ، ثم كللت مساعيه

فى سبيل الخروج من أزمته النفسية والمادية بالنجاح ، فعين بادارة التعيينات ، واضطر خلال عمله فيها الى السفر الى السودان فى الحملة الاخيرة بقيادة لورد كتشنر . وهناك قضى فى السودان الشرقى حوالى سنتين ، عانى فيهما الأمرين . وكتب خلالهما الى صديقه المرحوم محمد بيرم يصف حاله ويشكو مآله ، قال :

نزحت عن الديار أروم رزقى
واضرب فى المهامه والتخوم
وما غادرت فى السودان قفرا
ولم اصبغ بتربته اديمى
وها انا بين انياب المنايا
وتحت براثن الخطب الجسيم

كما كتب من هناك الى بعض اصدقائه يقول :

من واجد منفر المنام
طريد دهر جائر الاحكام
مشتت الشمل على الدوام
ملازم للهم والسقام
يا ليت شعرى بعد هذا العام
اليكمو ترمى بى المرامى
ام ينتوينى رائد الحمام
فانطوى فى هذه الآكام
وتولم الضبع على عظامى
ولائما للوحش فى الاظلام

وزاد فى شقائه خلال عمله فى السودان ، انه كان مغضوبا عليه من كتشنر نفسه ، ذلك الجبار العنيد كما وصفه هو فى كتاب ارسله الى الاستاذ الامام قال فيه : « وقعدت همة النجمين ، وقصرت يد الجديدين ، عن ازالة ما فى نفس ذلك الجبار العنيد ، فقد نما ضب ضغنه على ، وبدت بوادر

السوء منه الى ، فأصبحت كما سر العدو ، وساء الحميم »

وفى الوقت نفسه ، كان رئيس فرقته حاقدا عليه ، لا يفتأ يذكره بالسوء فى تقاريره الرسمية ، وذلك لأن حافظا لم يكن يطيق غطرسته ، وكثيرا ما نظم فى ذمه اراجيز ينشدها زملاءه الضباط ، وفى احداها قال فيه :

تراه اذ ينفخ فى المزمار تحسبه فى رتبة السردار
يجتنب العاقل والنبيها ويعشق الجاهل والسفيها

هذا الى قسوة القيظ فى السودان ، وحرمان حافظ هناك من اصحاب سمره ومجالس انسه فى القاهرة ، مما دعاه الى ان يواصل الكتابة الى الاستاذ الامام وغيره ممن يؤمل فى توسطهم لاعادته الى العاصمة ، فكتب الى بعض اصدقائه يشكو تلك الحال :

رميت بها على هذا التباب
وما اوردتها غير السراب
وما حملتها الا شقاء
تقاضينى به يوم الحساب
وما اعذرت حتى كان نعلى
دما ، ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبدا
صبيغا بعدما دبغت اهابى
وحتى قلم الاملاق ظفرى
وحتى حطم المقدار نابى

احالة الى الاستيداع

واخيرا عاد حافظ الى القاهرة ، ولكنه عاد محالا مرة اخرى الى الاستيداع بعد ان حوكم وسبعة عشر ضابطا من زملائه بتهمة العصيان ، وهكذا تبخرت آماله وتبددت فى ان يكون رب السيف والقلم مثل محمود سامى البارودى ، وتراءى

لعينيه ما ينتظره من عيش ضنك بالجنيهات الشهرية الاربعة التى هى مرتب الاستيداع ، فكتب بعد سنتين واربعة اشهر الى الجهات المختصة طالبا احالته الى المعاش ، ذاكرا فى طلبه هذا « انه مكث بخدمة الجيش ١٢ سنة ، ولم يحصل فيها على غير رتبة ملازم اول ، ومضى عليه اربع سنوات وهو فى الاستيداع ، وانه فقد الأقدمية ، ويلتمس احالتـه على المعاش ليتمكن من وجود شغل له يقوم بنفقته ونفقة عائلته الكبيرة التى لا يقوم مرتب الاستيداع بلوازمها » . وقبل طلبه فاحيل الى المعاش فى أول نوفمبر سنة ١٩٠٣

حيرته وفقره

لبث حافظ بعد عودته من السودان يواصل السعى فى سبيل الحصول على عمل ملائم يعيش منه . ولكنه فشل فى سعيه هـذا اكثر من عشر سـنين ، لم يدع خلالها بابا الا طرقه ، ولا وسيلة الا اتخذها . وكان حاله فيها كحاله حين كان صبيا يعاني اليتم والبؤس ، وكحاله وهو يقاسي الوحشة والاضطهاد وفراق الأخدان والأخلاء فى السودان ، وفيهـا يقول :

سعيت الى ان كدت انتعل الدما
وعدت وما اعقبت الا التندما

لحا الله عهد القاسطين الذى به
تهـدم من بنياننا ما تهـدما

اذا شئت ان تلقى السعادة بينهم
فلا تك مصريا ، ولا تك مسلما !

وكقوله عند تهنئته للمرحوم عبد الحليم عاصم امير الحج سنة ١٨٩٥ :

يا لقومى اننى رجـــل حرت فى امرى وفى زمنى
أجفـاء اشـتكى وشقا ان هـــذا منتهى المحن

وقد صقلت هذه الأعوام نفس حافظ ومواهبه الشعرية بما اتيح له فيها من تجارب ودراسات فى صميم الحياة وتوفر على صوغ الشعر وتجويده لاتخاذه وسيلة الى بلوغ الغاية التي يريدها ، وكانت غايته أول الامر أن يحظى بمنصب فى القصر ، فأخذ يزجى الى الخديو عباس الثانى مدحة بعد مدحة فى مختلف المناسبات

تشجيع الاستاذ الامام

على انه وقد يئس من نيل متمناه عند الخديو وشاعره ظل يلقى عند الاستاذ الامام محمد عبده صدرا رحبا وعطفا كريما وتشجيعا عظيما . وقد سجل حافظ ما لهذا المصلح الكبير عليه من مآثر فى كثير من القصائد والرسائل . كقوله من قصيدة طويلة :

لى كل حول لبيت الجاه منتجع
كما تشد لبيت الله ارحال
وزهرة غضة القى الامام بها
لها على اختها فى الروض ادلال
يا من تيمنت الفتيا بطلعته
أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال

وبفضل تشجيع الاستاذ الامام محمد عبده استطاع حافظ ان يزداد تألقا ولمعانا بين نجوم الشعر فى ذلك الحين ، كما استطاع ان يتالق بين نجوم النثر باخراجه « كتاب البؤساء » للشاعر الفرنسى فيكتور هوجو فى حلة عربية فاخرة كانت ولا تزال موضع الاعجاب لدى الأدباء والمتادبين

ولم يكن عجبا ان يكون حافظ اشد اصحاب الاستاذ الامام وتلاميذه حزنا وفجيعة ولوعة عند موته فى سنة ١٩٠٥ فقد ضاعت بفقده بقية ما كان للشاعر العصامى البائس من امل فى الحياة ، كما عبر هو نفسه عن ذلك فى رثائه للمرحوم قاسم امين بعد ذلك بعامين فقال :

واها على دار مررت بهـــا
قفرا ، وكانت ملتقى السبل
ســاءلتها عن قاسم ، فأبت
رد الجواب فرحت فى خبــل
متعثرا ، ينتــابنى وهن
مترنحا كالشـارب الثمل
متـــذكرا يوم الامام به
يوم انتويت بذلك البطــل
يوم احتسبت ، وكنت ذا أمل
تحت التراب بقيـــة الأمل

وقد حرص حافظ على ان يسجل ذلك فى رثائه للأستاذ الامام فى الحفلة الاولى التى اقيمت لذلك فقال :

فيا منزلا فى « عين شمس » اظلنى
وارغم حســادي وغم عداتى
دعائمه التقوى ، وآساسه الهدى
وفيه الأيادى موضــع اللبنات
لقد كنت مقصــود الجوانب آهلا
تطوف بك الآمال مبتــهلات
مثابة أرزاق ، ومهبط حكمة
ومطلع انوار ، وكنز عظـــات

حافظ فى دار الـكتب

ومهما يكن من أمر تلك السنين العجاف فى حياة حافظ المادية ، فلا شك فى انهـا كانت خيرا وبركة على حيــاته الادبية والاجتماعيــة ، ففي خلالهــا انشأ كثيرا من غرر قصائده فىالسياسة والوطنية والاخلاق والعادات والتقاليد ، واخرج كتابه الثانى « ليالى سطيح » . كمـا اشترك مع صديقه شاعر القطرين خليل مطران فى ترجمة كتاب فى

« الاقتصاد » . هذا الى ان اتصالاته من طريق ادبه وشع[ره]
بكثيرين من الكبراء داخل الحكم وخارجه ، انتهت اخيرا با[ن]
عينه المرحوم احمد حشمت ناظر المعارف رئيسا للقس[م]
الادبى فى دار الكتب فى سنة ١٩١١ بمرتب شهرى قدر[ه]
ثلاثون جنيها ، ثم ثبت فى هذا المنصب بعد عام وانعم علي[ه]
برتبة البكوية ، وفى ذلك قال من قصيدته فى الحفل الذ[ى]
اقيم لتكريمه فى هذه السنة الاخيرة :

وما كنت احلم لولا الوز ‏ ‏ ير بهذا الهناء ، وهذا اللقب
على اياد له جمة ‏ ‏ وفضل قديم شريف السبب
فآنا اقال به عثرتى ‏ ‏ واورى زنادى ، وآنا وهب
تفيأت منه ظلال النعيم ‏ ‏ وأصبحت أعرف ابس الفص[ب]

حافظ الكريم

وكانما شاء القدر الا ان يبقى حافظ الشاعر العصامى
طول حياته شاعرا بما يشعر به البائسون والمعدمون ، لكى
يبقى لهم نعم النصير ، وليختصهم من شعره الذائع بالشيء
الكثير .. ومن هنا عاش حافظ بعد ذلك ما عاش وهو
ينفق باليمين ما يكتسبه باليسار ، وقد يسخو بكل
ما يملك من مال على صديق او زميل بائس ، وفى الوقت
نفسه كانت عزة نفسه تأبى عليه ان يذل لغير الله

عبده الحمولي



عبده الحامولى

« اذا استطاع انسان ان يحلق فى جو الابداع والابتكار فى مثل البيئة التى عاش بها الناس فى خاتمة عصر المماليك ، كان هو المعجزة حقا .. وكان هو عبده الحامولى »

زعيم الغناء فى الشرق

بقلم الدكتور محمود احمد الحفنى

لا تكون العصامية جديرة بالتخليد حتى تبدأ نفسها بنفسها مستغنية بعنصر القوة فيها عن العلل والاسباب جميعا ، وان كانت سير العظماء خاضعة فى كثير من شأنها لمقدمات من البيئة والظروف المحيطة والأوضاع الاجتماعية والنظم السياسية والمستوى الثقافى والفنى . بيد ان الشخصية تسمو على الاسباب والعلل ، يختفى تأثرها بها ، وكأنها خلقت من لا شيء لتكون شيئا جديدا باهرا لعصرها الحاضر وللعصور الآتية

لم يكن القرن التاسع عشر ليسمح للعبقرية المصرية ان ترتفع هامتها ، فالأفق قاتم والظلام مخيم . وهب ان ألوانا من العبقريات شقت الطريق لنفسها ، فما كان للموسيقى يومئذ طريق تشقه ولا جو تتنفس فيه الصعداء . ولا يعلم أحد الا الله ما يعانيه رجال الموسيقى من الجفوة والاستبعاد عن كل ندوة عالية ووسط رفيع . وقد يتيسر الطريق أمام جاهل فينال فى العلم مكان العظمة ، أو أمام فقير بائس ملتصق بالتراب فيجتمع له الثراء من كل مكان ، ويدخل هذا فى زمرة أقطاب المعرفة وينخرط ذاك فى سلك أقطاب الثراء . ومهما يكن من أمر فقد كانت العظمة على أى حال غير مستحيلة على المكافحين المجدين . ولكنها بالنسبة لرجل الموسيقى تتطلب الكفاح مضاعفا والجهاد متواصلا

والصبر مريرا طويلا للوصول الى الخطوة الاولى فى طريق
بناء الشخصية ، ولا سيما فى مثل البيئة التى عاش بها
الناس فى خاتمة عصر المماليك وبداية حكم يكرر نفسه
بصورة اخرى . فاذا استطاع انسان ان يبنى شخصيته
بين تلك القيود والأغلال ، وان يطلق العنان لروحه الوثابة
ليحلق فى جو الابداع والابتكار كان هو المعجزة حقا ، وكان
هو « عبده الحمولى »

نهضة فنية

منذ بداية القرن التاسع عشر كانت مصر قد بدات تراجع
حسابها مع التاريخ وتتطلع الى التخلص من كابوس الظلام
الجاثم على صدرها ، وتلتمس لنفسها منفذا من المظالم ومن
الوان التدهور الذى اصيب به الشرق والعالم الاسلامى
معه . آن لمصر الا تصبر على التخلف عن الأمم وهى ام
المدنيات ومؤسسة الحضارات . وكان من الحوافز لها الى
النهوض تلك الجولات والاتصالات الحربية والعلمية بينها
وبين دول الغرب ، فكل شىء يأخذ سبيله الى التطور
ويمضى فى طريقه الى التجدد والاختراع والابتكار .
وسرعان ما وثبت مصر تنفض عنها الغبار بقوة من سواعد
ابنائها ومن مواهب العبقريين فيها . وكانت الفنون فى
مقدمة ما اتجهت اليه المشاعر فى هذه النهضة القومية
الحديثة . والموسيقى من النهضة فى الصميم والصدارة ، ومن
الفن فى الذروة والقمة ، لانها المعبرة بلغتها عن لغة الحياة
ولانها هى التى تصحب القافلة فى طريقها الى المجد .
فما لبثت مصر ان ظهرت بها مدرسة فنية التقى فيها رئيس
الملحنين محمد القبانى وكبيرة المطربات سكينة وغيرهما .
والى جانب هؤلاء اشرق الوعى الادبى الذى يغذى الموسيقى
بتراث الشعر القديم ويعيد الى الغناء العربى مجموعة

صالحة من ثروته المشتتة. فصنف فى تلك الآونة السيد محمد شهاب الدين ، وكان شاعرا مجيدا وموسيقيا ماهرا ، كتابه « السفينة » وقد جمع فى مصنفه هذا عددا عظيما من الموشحات العربية كانت عاملا قويا على انعاش الفن القومى

نشاته بطنطا

فى هذه الفترة من بداية اليقظة بعد سبات عميق ، وفى هذه الظروف التى لا تزال حالكة قاتمة الا قليلا من بصيص النور الآخذ فى الازدياد ، شب « عبده الحمولى » وترعرع بمدينة طنطا حيث كان مولده بها فى نحو عام ١٨٤٣ . وقد ولدت معه موهبة النبوغ الصوتى التى تنمو بنماء جسم الصبى الفنان رويدا رويدا ، حتى تسامع به من حوله ، وبدا الناس يتحدثون عن صوت جديد لا عهد لهم به من قبل

ولا شك ان الصبى الفنان قد اتخذ لصوته حللا لفظية من الاهازيج الشعبية والأغنيات الريفية والمواليا الوطنية. انها ثروة الريف والطبيعة الساكنة فى هذه المدينة المحوطة بالمياه والأشجار ، المليئة بالمساجد والمشاهد والموالد التى استمع فيها وفى حلقات الذكر الى اصوات المنشدين وترتيل القارئين . كان للقصائد النبوية والتواشيح الدينية بتلك الحلقات اثرها السحرى الفعال فى تلك الفطرة الناشئة فما اعظم ما حبته به الطبيعة فى تلك الرقعة التى جمعت بين سكون القرية وحضارة المدينة

هروبه من وجه ابيه

ما كاد ابوه المشتغل بتجارة البن يلمس الاتجاه الجديد فى حياة نجله الصبى حتى ثارت ثورته وضاق ذرعا بهذا العار الفنى الذى سيلحق به وبأسرته فيسىء الى السمعة ويصيب الكرامة فى الصميم . وما لبث تاجر البن أن انهال على ولده بالتنكيل والتنكيد والايذاء المستمر والمعاملة النابية

القاسية. وادركت رحمة الله ذلك المسكين باخ شقيق يكبره كان له خير معوان فى محنته وخير مواس على احتمال شدته. فاتفقا معا، وسرعان ما نفذا تعهدهما، على ان يغادرا الوالد ويتركاه للبن يساوم فيه وللسمعة الطيبة يحتفظ بها ويصونها من خطر الموسيقى الداهم. واذا سمعت بان اخوين شقيقين قد اجمعا على الرحيل والانفصال من احب الامكنة اليهما، ومن ظل الأبوة التى كان مفروضا أن تكون ابر الظلال بهما.. اذا سمعت بذلك فثق ان وراء الاخوين هموما لم يطيقا الصبر عليها ففرا من وجهها الى المصير المجهول. وهنا تتجلى العصامية على حقيقتها. فلو قد رايتهما لهالك منظر فتيين يضربان فى الارض، فلا ثياب ولا طعام، يحمل كبيرهما صغيرهما اذا عجزت القدم وكلت الهمة عن مواصلة السير، فى ارض موحشة وليال مظلمة، بين قطاع طريق ومخاطر مختلفة، فى غربة وفاقة ودموع... كل ذلك كان سبيل العصامية الى الظهور بعد كفاح مرير

مع الاستاذ شعبان

انتهى المطاف بعبده الحمولى الى « شعبان » فمن هو هذا ؟.. انه مهاجر من طنطا كذلك، وهو يحترف الغناء والعزف كيفما كان. وتستطيع ان تقول انه كان مدرسة للاستقبال والتعليم والتوجيه والتخريج، والاستغلال قبل كل شىء. فما كاد يتعرف مواهب « عبده » حتى التقطه وقبض عليه بيد قوية. فقد استطلع بفراسته الفنية ماوراء تلك الموهبة من ثروة يمكن ان يستنزفها اذا استخدم هذا الفنان بعد تدريبه والتعريف به والاعلان عنه. وكذلك صنع به. فقد مكنه من الالمام بالفن بالقدر الذى يمكن معه اقامة افراح وحفلات واشتراك فى سهرات. وكان شعبان هذا قد خشى ان يفلت من يده هذا الصيد السمين، ولعله لمح وجوه منافسين جدد يحاولون أن يختطفوا

الفريسة من بين يديه ، فأسرع الى تقييد « عبده » بالزواج من ابنته ليغلق بتلك المصاهرة باب المنافسة ويأمن على الصيد ان يطير . وفاته ان العبقرية اقوى من ان تكبل بمثل هذا الزواج المفرض المصطنع

مع الفنان محمد المقدم

وقد ذاع امر « الحمولى » بين الجمهور وبحكم طموحه الفنى كان لا بد ان يلتمس المزيد من رسالته . فمن هو هذا المعلم الذى يقصد اليه ويستزيد من منهله ؟ ان ذلك المعلم هو « محمد المقدم » ذلك النجم اللامع فى سماء القاهرة غناء واداء ، ولقد اعجب بعبده وشجعه لا على الفن وحده بل وعلى التخلص من المصاهرة المستغلة المتحكمة فى كسبه وحياته . فوقعت الفرقة بين الزوج والضحية وتحرر الفنان والتحق بتخت « المقدم » واجاد ما لم يكن يحسنه من الفن المألوف فى عصره . وكان لا بد له من تلك الفترة ، يستكمل فيها خبرته ويستوعب الموجود فى زمنه

ولكن ما لبث « المقدم » استاذه الجديد ان اعاد فى استغلال مواهب الفنان الفتى سيرة سلفه. الا ان ذلك الاستغلال لم يدم له طويلا ، فقد استيقظ وعى الموسيقار الصغير ، وبدأ يتنبه لاستقلال شخصيته والثقة بمقدرته . ولم يمض عليه كبير وقت حتى اصبح له تخته الخاص بآلاته ومنشديه

بزوغ نجمه

بدأ نجم « الحمولى » يسطع واخذ صيته ينتشر ويأخذ سبيله الى الاوساط الثرية وقصور الأعيان وذوى المنزلة ، حتى اختصه اسماعيل بمجلسه وصحبته وضمه الى من حوله . والذى يعنينا من هذه الصحبة هو ذلك الوسط الموسيقى الراقى من الفن التركى الذى تمكن « الحمولى » من الاتصال به سواء فى القاهرة او فى الاستانة . لقد كان

زعماء الموسيقى التركية وقتذاك يوجهون الموسيقى الشرقية كلها بما كان لهم من انتاج ومقدرة ومهارة . وقد ساعدت الزعامة الاسلامية والسيطرة السياسية على التمكين لهذه الموسيقى فى كل بلاد الشرق . وكانت مصر اقرب الممالك الشرقيـة استعدادا لقبول ذلك الانتـاج الفنى . وكانت موهبة « الحمولى » خير مرآة اعدت لقبول جميع الصور الفنية من الموسيقى التركية وغيرها من موسيقات الاقطار العربية الاخرى . ولم تكن عملية هـذه الموهبة تقليـدا ومحاكاة ، بل كان الامر اعظم من ذلك شأنا . فان ما كان لعبده من سمو الذوق وسلامة الفطرة وقوة الابتكار وقدرة الارتجال ، مع حنجرة مواتية وصوت بارع مطاوع ... كل ذلك ساعده على الحفظ ثم الهضم ثم الخلق والابداع

وكما استطاعت « جميلة » فى صدر عهـد بنى أمية ان تحفظ الالحان الفارسية من سائب خاثر ثم تعربها ، وان تضعها اوضاعا عربيـة سليمة تجعلها صاحبـة مدرسة ومذهب جـديد ، فكذلك كان صـنيع « الحمولى » مما استوعبه من الغناء الشرقى عامة والتركى خاصة ، حيث اخذ بعد الحفظ يجدد ويمصر الموسيقى والغناء بما اظهر هذا الفن فى طابع جديد اخرجه من النواح والبكاء والتخاذل والضعف الى القوة والرجولة والطرب المشرق الباسم الذى يخلق جوا من المرح والحبور . وقام بتهذيب الحان التواشيح والقصـائد وقدم الحانا هى مزاج من اذواق متقابلة متلاقية دون اخلال بالطابع العربى والذوق المصرى

رسالته الفنية

كانت ثروة النغمات فى مصر محدودة ، وكانت الاصوات تجرى فى مجال ضيق من المقامات لا تتعـداه ، ويبقى سير اللحن على وتيرة واحـدة لوقت طويل فى حال تدعو الى

السأمة والملل . فاخذ « الحمولى » يسلك فى تلحينه وغنائه سبيل التلوين والتنويع ، وراح يتنقل من مقام الى مقام ومن نغمة الى اخرى فى سير اللحن . فخرج من جمود الترديد والاطالة الى فسحة التجديد والانتقال والتغيير فى توافق وانسجام وبراعة تستأثر بالسمع وتملك على النفس المشاعر وعلى القلوب مواطن الاعجاب

لم يكن الغناء المصرى يصور المعانى او يقدر الارتباط بين الشعر والموسيقى كما ينبغى ، فقام « الحمولى » بهذه الرسالة ولعب الدور الهام فى ايجاد تفسير وشرح لمعانى الالفاظ باسلوب اغانيه وحمل النغم مسئولية التعبير والايضاح . وشعر المستمع بأن عليه ان يتابع المعانى فى الاداء الفنى بما لا تستطيع الأداة المجردة اداءه ، بل تجاوز ذلك الى التمثيل فكانت معالمه وملامحه وحركاته تساعد الغناء وتفسر الأداء . وكان ذلك تطلعا الى الموسيقى المسرحية التى كان له الفضل فى توجيه صديقه الشيخ سلامة حجازى اليها

قلما عرف احد فى تلك الآونة منطقة صوتية رحيبة الجنبات كالتى تمتع بها « الحمولى » بين المغنين . وما أشبه تلاعبه فى حنجرته القادرة بأصابع « بجانينى » فى حركاتها على الكمان تلك الحركات التى اعجزت عصره وجعلته الفرد المثالى بين انداده . لشدما كان يكافح العازفون على تخت « عبده » فى ملاحقته صعودا وهبوطا ، والسير معه فى تعاريج النغمات والتواء المقامات ، وهو يتسرب من بعضها الى البعض الآخر فى مهارة ودقة وتفوق طالما اعجز الآلات فى منطقتها الصوتية المحدودة عن ملاحقته والتجاوب معه

ان تفرد « عبده » فى مكانته الموسيقية اتاح له فرصة الانتاج المركز المتواصل من ابتكار وتصرف وبديهة حاضرة

لها مقــدرة الارتجـــال والتصرف المفــاجىء الذى يفوق الاستعداد والتحضير

ومن طرائف ما يروى فى ارتجاله حادثة اشبه بالقصص الخيالى منها بالوقائع . جهز سرادق فخم لبعض حفلات الزفاف واعدت لذلك بطاقات الدعوة تحديدا للعدد وتفاديا من الزحام . وكان ثمة حاجب لا يسمح بالدخول لمن لايحمل بطاقة . وحدث ان دخل رجال التخت واستعدوا للحفل ، وحضر « عبده » متأخرا عنهم فطالبه الحاجب ببطاقة الدعوة وهو لايعرفه ونشأ بينهما اخذ ورد احس به الجمهور ومعهم صاحب العرس . فحملوا الفنــان الـكبير واجلسوه مع اصحابه فى صدر السرادق . فما اسرع ما ارتجل « موالا » لمس فيه الموضوع ، واستغل الحادثة فاضفى عليهــا من براعة فنه ما يجعلها صالحة للغناء ، وخلق منهــا موضوعا وجدانيا جميلا جديرا بالتقدير والتحليل ، فقال :

ليه حاجب الظرف يمنعنى وانا مدعى
لرى روض المحــاسن من دما دمعى
كم افتكر فى احتجابك واشتكى وانعى
سلمت بالروح ورضيت باللام والنوح
قول لى بحق المحبة ما سبب منعى

عبده والمظ

ولم يكن احد من المعاصرين يساميه فى المنزلة الفنيــة سوى الفنــانة البارعة « المظ » . كانت تجرى معــه فى منهاجه ، وتعزف الصــوت على قيثارته ، وان كان لهــا مدرستها واسلوبها النسوى فى الغناء ، وقد بدات المنافسة بينهمــا ردحا من الزمن قليــلا . وسرعان ما هدات تلك المنافسة لأن باعثها الفن الجميل ، ولا يمكن ان يكون الفن مثار حقد او كراهية ، كما قد يحدث فى بعض الأحيان من صغار النفوس . بل استحالت المنافسة الى تجاوب قلبى

استخدم فيه الغناء على ان يكون مطارحة غرامية أفاد منها الفن والمستمعون اليه . كانت هـذه المطارحات فى ليالى الافراح الساهرة التى يلتقيان بها ، وبينهما حجاب مسدول ان منع الرؤيا والمشاهدة فلن يمنع الاستماع الى الأصوات. كان هو يغنى للرجال بينما تختص هى ببنات جنسها . ويتبادلان معا ادوار الغناء على التعاقب ، ولكل منهما « المطيباتى » الخاص به . وكم كانت هذه المنافسة مجال تسابق وارتجال ، وخلق وابداع ، ثم تشوق وتعلق . وما أسرع ما اصبح المغنيان شاعرين مبدعين يناجى كل منهما الآخر فى غنائه بشعر لا يقل فى روعته عما كان يصنعه لهما اسماعيل صبرى والشيخ على الليثى والسيد محمد الدرويش وغيرهم من اقطاب الشعر

وقد سمعها « عبده » فى احدى تلك الليالى الساهرة وهى تغنى :

يا سيدى انا احبك لله وربنا عالم شاهد
لاصبر على احكام الله لما يبان لى معاك شاهد

خبط الهوى ع الباب ، قلت الحليوه اهو جالى
اتارى الهوى كداب يضحك على القلب الخالى

فما كان منه الا ان غناها ارتجالا الدور الآتى :

روحى وروحك حبايب من قبل دى العالم والله
واهل الموده قرايب الخ ... الخ ... الخ ...

وبعد ان كانت تضمهما أفراح المتزوجين ، ضمهما فرحهما وحفل زواجهما . وكانت طليعته ليلة فخمة عظيمة اجتمع لها أقطاب الفن احتفاء بأكبر علمين من أعلام الغناء المصرى يلتقيان فى قران سعيد . واذا قيل « عبده » و « الملظ » فالنجوم لهما تبع والفن لاسميهما نشيد . فهذا هو احمد الليثى كبير العازفين بالعود وابراهيم سهلون أمير الكمان ومحمد خطاب شيخ الآلاتية وغيرهم من اساطين الف.

يحتشدون فى ليلة الزفاف . وهذا هو « عبده » نفسه يغنى لنفسه ويطرب المدعوين ويحييهم ويشركهم فى ليلته التى جاد عليه بها الزمن الضنين

الا ان زواجهما هذا كان خسارة على الفن فقد سكتت البلبلة الفريدة واحتجبت بزواجها عن قبول اقامة حفلات العرس . اما هو فقد اصبح تاجرا يبيع الاقمشة الى اجل ويغنى متبرعا بغير اجر . ثم لا تمضى سنتان حتى تذهب تجارته وتفدحه الديون فيعود الى المهنة يسترحمها ويستجدى كفها السمح المعطاء ، فتعوض على ابنها البار كثيرا مما خسر

ولم تشأ الاقدار لتلك السعادة الزوجية ان تدوم فتوفيت سكينة المشهورة بالمظ زوج عبده الحمولى ، قرينته الوفية المضحية . وكانت لوفاتها كما كان لعرسها ضجة ادبية اشتركت فيها الموسيقى والشعر . وبدا لنا ان الزوج كان وفيا وان سعادته بها لم تكن قاصرة على الايام الاولى ، بل كانت عشرة هنيئة قدرها هو وحزن عليها ، فبدا يغنى بعد وفاتها :

شربت الصبر من بعد التصافى
ومر الحال ماعرفتش اصافى
يغيب النوم وافكارى توافى
عدمت الوصل يا قلبى على

دور

على عينى بعاد الحلو ساعه
ولكن للقضا سمعا وطاعه
لان الروح فى الدنيا وداعه
عدمت الوصل يا قلبى على

مصائب الفنان

ولم يكن « عبده الحمولي » بمعزل عما اصاب النابغين فى كل عصور التاريخ من نكبات وآلام . ولكي يكون واحدا من هؤلاء الأفذاذ لا محيص له من تجرع الكاس المريرة التى ذاقوا بها الهموم والأكدار . وقد فاز « الحمولي » بنصيب الأسد من ذلك ... طارده ابوه صغيرا ، واستغله المعلم شعبان صبيا ، واحتكره المقدم فتي ، وحاربه زملاؤه بعد ذلك رجلا وفنانا ، ثم قسى عليه القدر فافقده « الحظ » . ثم امعن القدر فى قسوته فسلبه فلذة كبده من زوجة ثالثة وهو فى ملابس العرس وافراح الزفاف . فخلقت تلك الجراح القاتلة من المغنى شاعرا يصور الكارثة افدح تصوير لمأساته فى ولده محمود فيغنى مرتجلا :

ليه يا عين ليه ليه يا عين   يا حليوه يا نور العين
كبدى يا ولدى يا جميل يا جميل
لما رايت البدن داب منى   ودمع عينى بعد ان نشف منى
كبدى يا ولدى آه يا جميل يا جميل

ومما غناه فى مصابه ايضا :

زاهى جمالك فتنى   لما بدا نور جبينك
ونبل الحاظك تجرح   من سهم قوس حاجبينك
كبدى يا ولدى

احسانه الى الفقراء

وكانت تلك الآلام الفادحة الأستاذ الاول للعصامي الفنان فجعلت منه رجلا تقيا متعبدا يقيم الصلوات لأوقاتها فيا لها من موسيقية تذكرنا بما كان فى عهد بنى العباس — حيث العصر الذهبى للغناء العربى — من قيام طائفة من الموسيقيين الممتازين الورعين الأخيار الابرار . الا ان «عبده» امتاز بغناء ليس فيه حرص « الموصلى » . فقد كان

« الحمولى » ذا كرم وسماحة ومروءة وايثار ، حتى بلغ الحديث عنه ما يشبه النوادر . ولا ريب أنه فى ذلك انبل واشرف من ارباب الثروات الذين ينفقون ما لا يخشون خسارة فيه . اما هو فقد كان ينفق من كسبه اليومى ، ويعطى كل ما فى يده للفقراء ولمن افتقروا بعد غنى . جاد مرة لمدين بخاتم من زمرد فى قيمة الف جنيه حين لم يجد من المال عنده ما يسد حاجة المدين حين التجأ اليه . كما ترك اقامة حفل لغنى بخيل وذهب فغنى فى فرح رجل فقير قدم له الغناء وانفق تكاليف العرس على حسابه الخاص . ولم تكن هذه وحدها بل لقد أقام عشرات وعشرات من حفلات غنى بها وجمع فيها النقود لأصحابها ، فأغاث فقيرا بائسا ، او اعان صديقا مال به الدهر ، حتى لقد جلس الى جانب بائعة بائسة فى الطريق المؤدى الى شارع شبرا الآن ونادى بسلعتها فى صوته الرخيم حتى امتلأ الطريق بعربات الأعيان وتدفق المال سيلا على البائعة البائسة ، وعادت الى منزلها وهى من اصحاب الثراء

ومن خير ما يؤثر عنه ارتفاعه بنفسه وبالموسيقيين ودأبه المتواصل على اعلاء نظرتهم الى فنهم ونظرة الناس الى اشخاصهم . من ذلك ان السراة والاعيان كان من عادتهم ان يقذفوا بالذهب والجواهر فى حفلات الزفاف والاعراس فيسرع الحاضرون الى التقاطها . وهنا تتجلى نزاهة « الحمولى » وعفته وتساميه فيطلب الى رجال تخته وتابعيه الا ينحدروا الى مثل ما يصنعه غيرهم من التقاط شىء مهما غلا ثمنه لأن الفن عنده أغلى من كل شىء

ابداعه

ولقد ابدع « عبده » ثروة فنية من ادوار ومواليا وتواشيح وقصائد اخذت منه وحفظت عنه ، ثم اصبحت بعد ذلك تراثا يخلد اسمه ويعلى ذكراه

ومن اشهر ادواره غير ما قدمناه :

دور مطلعه :

الله يصون دولة حسنك — على الدوام من الزوال
ويصون فؤادى من نبلك — ماضى الحسام من غير قتال

وآخر مطلعه :

مليك الحسن فى دولة جماله
ملك عقلى وافكارى وروحى
ومن تيهـه اسر قلبى دلاله
وزاد فى محبته وجدى ونوحى

وآخر مطلعه :

يا منيـــة الارواح — جد لى بوصلك يوم
العقـــل منى راح — وهجر عيونى النوم
والمدامع مطـــر — يا شقيق القمـــر
والقلب انفطـــر — وازداد عذولى لوم

وآخر مطلعه :

متع حيـاتك بالأحبـاب — انســـك ظهـــر
شان الطرب يشفى الأوصاب — للى حضـــر
وكيـد زمانك واتهنـا — وافرح وطيـــب
وانفى همـومك بالأكواب — ســـعدك امر

وآخر مطلعه :

شربت الراح فى روض الأنس صافى
على زهر الغصـــون وردى وصافى
وهنـــانى الزمان والوقت صـــافى
ســمح بالوصـــل محبـوبى الى

المطر يبكى لحالى ، والقمر يطلع يكيدنى ، وعذولى ما رثى لى

اما المقامات التى كان يجرى فيها غناؤه لهـذه الادوار وامثالها فقد كانت فى الأهم : الحجاز كار والعجم والنهاوند

والراست والبياتى والعراق والسيكاه والعشاق والجهاركا

ولقد سمعت الآذان المصرية من « عبده » جمال تصفية هذه المقامات وروعة نغماتها ورقة الحانها فى صوت سحرى والفاظ عربية وروح مصرية واعجاز بلغ به الغناء غايته والفن الشرقى منتهى مداه

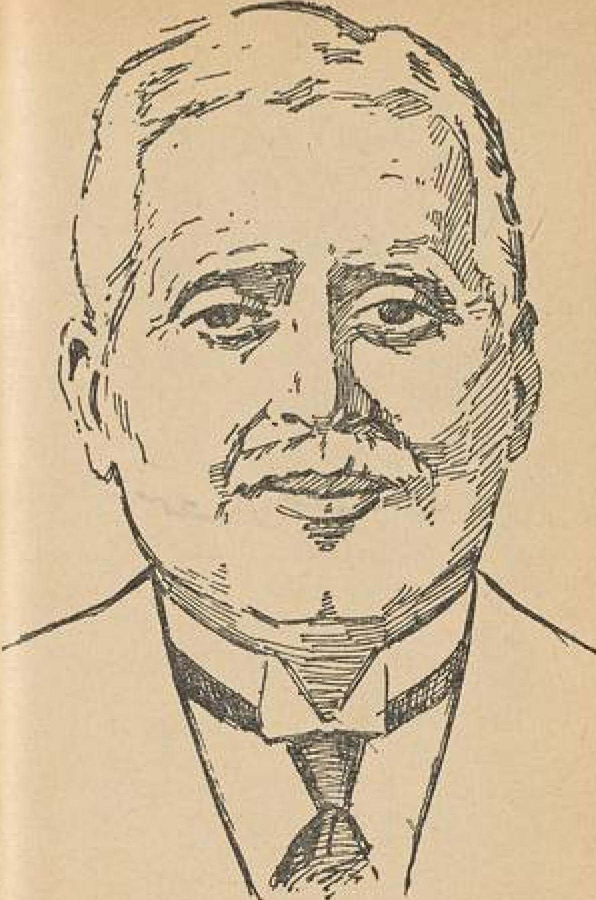
وسافر « عبده الحمولى » سنة ١٨٩٦ الى الاستانة عاصمة الشرق يومئذ ، فنالت مصر به سمعة عالية حملت الأوساط المختلفة على الاعتراف لها فى شخص فنانها الكبير بما هى جديرة به من مكانة . وعاد « الحمولى » مزودا بالهدايا ، وبما فوق الهدايا من تشريف وتقدير

غروب نجمه

اما وقد بلغ هذا النجم نهاية أوجه ، فقد آن له ان يحول رويدا رويدا الى الغروب والاحتجاب ، وهكذا بدات الأمراض تفعل به فعلها . وداهم مرض السل صدر ذلك العبقرى فنصح له الأطباء بمغادرة القاهرة والاقامة بأعالى الصعيد ، حتى اذا سنحت بوادر الشفاء عاد الى حلوان . وبها كانت نهايته فى فجر اليوم الثانى عشر من شهر مايو سنة ١٩٠١ عن ستين عاما ، مثل فيها دور العصامى المؤمن بشخصيته وفنه ، الباذل من صحته وعبقريته ما يسجل بمداد ذهبى بين ذوى المروءات . ولن تنسى الخدمات الاجتماعية فى تاريخها ما تبرع به « الحمولى » من احياء ليال وحفلات لخدمة الهيئات الخيرية

وانتهت حياته بنهاية القرن التاسع عشر ، وتوارى عن الانظار فى بداية القرن العشرين لتكون تركته مدرسة كان تلاميذه فيها كل من جاء بعده ، وقفى على اثره من امثال محمد السبع واحمد حسنين والشيخ ابو العلا محمد وكثيرين غيرهم ، وسوف تبقى ميراثا للجيل وتراثا للأجيال القادمة

سمعان صيدناوي



سمعان صيدناوى

« بنى بيديه صرح مجده وغناه لبنة لبنة حتى سمق وعلا وكان من الصروح المردة المنيفة التى يزهو بها الشرق العربى ويباهى »

المغامر الشريف

رجل عصامي من الطراز الاول بنى بيديه صرح مجده وغناه لبنة لبنة حتى سمق وعلا وكان من الصروح الممردة المنيفة التي يدل بها الشرق العربي ويزهى ويباهى

لم يكن سمعان صيدناوى فى الرواد الكاشفين الذين يركبون الأخطار ويضربون فى مجاهل الارض مجازفين مغامرين ليعثروا على مناجم الذهب ويعودوا منها ممتلئى الحقائب والوطاب ولا كان من المضاربين فى اسواق المال والاوراق ممن يلتمس الغنى والثراء فى طرفة عين او بين عشية وضحاها معتمدا على حسن الجد والطالع ليختصر الطريق الى قمم الفوز والنجاح . كذلك لم يكن فى العلماء المخترعين الذين يوفقهم الله الى اختراع نافع تتبناه الصناعة وتجعله فى متناول الناس اجمعين وتدر على صاحبه اخلاف الرزق والثراء العريض . ولا هو عثر على حجر الفلاسفة فتمكن به من تحويل المعادن الى ذهب وهاج

ما كان سمعان صيدناوى واحدا من هؤلاء ولكنه كان جميع هؤلاء فالعمل هو الذى كشف له مناجم الذهب ، فاغترف منها ، والاستقامة هى التى ضارب بها فى اسواق التجارة الشريفة الحرة ، فغمرته بدفعات الكسب الحلال . اما الذكاء فكان وسيلته الى التفنن فى الاختراع والابتكار تفتح له مختلف ابواب الرزق واما الاحسان فكان حجر الفلاسفة الذى قلب النحاس فى يديه نضارا فكلما امعن فى

الاحسان زاده الله نعما وحول آماله وامانيه الى حقا
ملموسة تتالق على جنباتها اشعة الظفر والفلاح

نشاته

ولد المترجم له بمدينة دمشق سنة ١٨٥٦ من اسر
طيبة معروفة بحسن السيرة وصفاء السريرة كانت ن
نزحت منذ زمن طويل من قرية « صيدنايا » الى العاص
وتلقى الصبى سمعان العلم فى مدرسة من مدارس دمش
حتى اذا بلغ اشده كان قد الم بما كان يلم به لداته فى ذل
العهد من اطراف العلوم والآداب واللغات

ها هو ذا فتى فى ريعان الشباب قد تزود للحياة بافض
زاد العصر مكنه منه ذووه غير وانين عن تضحية فى هـ
السبيل ليعدوه اعدادا حسنا للجهاد والكفاح فى الحيـ
وليكون لهم السند القوى والعماد المرتجى

وتضاربت الآراء فى نوع العمل الذى يزاوله وطال بحث
ذويه وتقصيهم وتملكت الفتى حيرة تتملك كل فتى يترك
مقاعد الدراسة الى مدرسة الدهر فهو بين نار الحماسـ
المتقدة فى صدره ونار التلهف الى عمل يضطلع به ويسي
فيه الى ابعد الغايات

وتسوق الأقدار الفتى سمعان الى تاجر من تجـار
العاصمة واسع الرزق والعمل والتجارة فيجعله فى عداد
موظفيه ويعهد اليه فى عمل كتابى ينهض به على احس
وجه ثم ينيط به بعد ذلك مختلف الأعباء والاعمال فيتوفر
عليها بهمة ونشاط وذكاء وامانة فلا تنقضى سنوات خمس
حتى يكون على حداثة سنه مستشار الرجل وامين سره
وصاحب المنزلة الاثيرة لديه يعتمد عليه فى شؤون تجارته
وضبط اعماله والسهر على مصالحه

وبلغ من اعجاب الرجل بالشاب سمعان ومحبته له وايثاره اياه ان هم بتزويجه من ابنته على اختلافهما فى الدين فخشى اهل الفتى الفتنة ، فاوعزوا الى عم الفتى بالقاهرة ان يدعوه اليه ففعل ولبى سمعان الدعوة وشد رحاله الى القاهرة تحدوه اليها الأمانى الجسام

الهجرة الى مصر

مصر .. ما اعذب هذا الاسم فى افواه العرب ، وما اجمل الآفاق التى تتطلع اليها النفوس كلما رف على الاسماع ذكر مصر او جال بالخواطر . مصر هى بلد الآمال والاحلام للعربى الذى ينبو به وطنه فيضرب فى فجاج الارض . كانت مصر فى عهد المترجم له قبلة الأنظار وكعبة الرواد وكانت الهجرة الى مصر قد جد جدها فقصدها رجال القلم هربا من الظلم والاستبداد وسعى اليها المكافحون المجتهدون طلبا للرزق من مناهل نيلها الفياض وكان من الطبيعى ان يدور ذكر مصر على الالسنة فى بلاد الشام بعد اذ استوطنها نفر غير قليل من الشاميين نعموا فيها بالأمن والدعة والحرية ولقوا فيها ميدانا واسع المسالك والشعاب لجدهم ونشاطهم فتواترت على الوطن الاول انباء ابنائه المهاجرين وكلها انباء حلوة طيبة سارة فما عتمت مصر ان اصبحت الجنة التى يحلم بها الشباب فالسعيد منهم من حقق الدهر له حلمه الجميل وساعده على النزول بواديها الأمين الخصيب

بمثل هذه الفرحة الشاملة التى تخف لها احلام الرجال استقبل الشاب سمعان دعوة عمه فما هى الا اسابيع قليلة حتى كان مشدوها بعظمة مصر وجمال القاهرة ...

نزل سمعان بالقاهرة فى سنة ١٨٧٨ وكان عمه نقولا صيدناوى تاجر اصواف فى حى الحمزاوى فالحقه بالعمل عنده ولم يفكر ولا فكر الفتى فى السعى الى الالتحاق بوظيفة كتابية فى دائرة من دوائر الحكومة او فى شركة من

الشركات الكبرى . ولعل البيئة التجارية التي عاش فيها بدمشق وانتقل اليها فى كنف عمه بالقاهرة قد حصرت تفكيره فى التجارة وضروب اعمالها وما من شك ايضا فى ان التجارة فن من الفنون لا بد له من استعداد خاص وموهبة خاصة والا كان صاحبه كالقابض على الماء فالعمل الذى لا يعدنا الله له ولا يهبنا ملكته ولا نزاوله بحب وشوق وشغف هيهات ان ننجح فيه ولو بذلنا له وافر القوى وارسيناه على اضخم القواعد والاركان

ولا جدال فى ان سمعان صيدناوى كان الله قد وهبه ملكة التجارة ويسر له العمل والحياة فى بيئة تجارية وحباه نفسا جادة نشيطة مجتهدة تحب العمل الذى وقفت عليه فكأن الله قد منحه بذلك اول مقومات النجاح

مائة جنيه

مكث سمعان يعاون عمه فى عمله مدة ثلاثة اشهر واظهر من ضروب النشاط والحذق ما حمل عمه على العناية بمستقبله ، فمثل هذه الطاقة من النشاط يجدر بها أن تستغل فى عمل مستقل يستفيد منه الفتى ويشيد به صرح مستقبله فنفح ابن أخيه براس مال صغير أضيف الى المبلغ الضئيل الذى كان سمعان قد ادخره من عمله بدمشق ولعل هذا وذاك لم يبلغا مائة جنيه فكانت هذه المائة من الجنيهات راس مال حانوت صغير فى الحمزاوى لا تزيد مساحته عن مترين فى مترين استقل به سمعان وتعاطى فيه تجارة ما نسميه بمصر ب « الخردوات » وهى مجموعة من السلع الصغيرة كبكر الخيط والمناديل والقمصان الداخلية والأزرار والشرائط والجوارب والأقمشة الرفيعة المخرمة وما لى ذلك

وسار الفتى على بركة الله يدير محله الصغير بنشاط لا يعرف الملل وهمة تفتك بالصعاب ومقدرة فذة راضيا

بالربح القليل مقتصدا فى النفقات حتى بدات بواكير النجاح تبتسم له ابتسامة الخيط الرفيع من النور قبل انبلاج الفجر وترامت أخبار سمعان الى أهله بدمشق فقرت أعينهم وحببت الى سليم اخيه الاكبر ان يولى وجهه شطر مصر شطر جنة الله فى ارضه ليجنى منهـا ثمرة كده وفلاحـه فها هو ذا شقيقه سمعان لم يحل عليه الحول بمصر حتى استقامت له تجارة ولو صغيرة يكسب منها رزقه فى جو مشبع بالحرية والاستقلال

الأخوان بالحمزاوى

هبط سليم القاهرة فاخذ كما اخذ شقيقه سمعان من قبل بمعالمها العظيمة ومجال العمل الواسع فيها فطاب له أن يزاول بها الصناعة التى كان يزاولها بدمشق وهى خيـاطة الملابس. فاشترك هو وصديق له يدعى مترى صالحانى وفتحا دكانا لخياطة الملابس فقد كان سليم حاذقا فى هذه الصناعة غير ان القدر بعد أن بسم للشريكين قليلا فجعهما باحتراق الدكان وذهاب ما فيها طعمة للنار . فطيب سمعان خاطر أخيه ونصحه بهجر صناعة الخياطة واقترح عليه مشاركته فى حانوته فرضى بالاقتراح واضاف الى رأس مال الحانوت ما كان قد ادخره من نقـود وهكذا أسس محـل « سليم وسمعان صيدناوى » فى ذلك الحانوت الصغير بحى الحمزاوى

انقطع الشقيقان الى عملهما لا تأخذهما فيـه ونيـة ولا هوادة وافرغا عليه من نشاطهما وجهدهما ما انتزعا به من يد الدهر قصب السبق والفلاح ، فالعمـل ولا شىء غير العمل هو شغلهما الشاغل وهو الأنس والبهجة والمراح ، فما عرفا طريقا الى مقهى يقطعان فيه الوقت بمدى الكسل والتراخى ، وانما عرفا طريقا واحدة يذرعانها كل يوم بين حانوتهما الصغير وغرفتهما المتواضعة التى يسكنانها فى حى « درب الجنينة » . فكانا اذا اقبل المساء وانقطعت السابلة

سهرا فى دكانهما حتى الساعة العاشرة او الحادية عشرة ليلا يدبران أمورها وينظمان شؤونها ، ويرتبان رفوفها وعلبها ويصفان صررها وبقجها ليستقبلا العملاء فى صباح اليوم التالى على خير وجه من الاستعداد والنظام والترتيب . وكانا اذا أويا الى غرفتهما دارت احاديثهما على البيع والشراء وعلى حركة الأخذ والعطاء يتفننان فى ابتكار الوسائل التى تقودهما فى معارج النجاح

مثابرة وجهاد

ولئن كان الأخ الاكبر لم يعمر طويلا فان سمعان قد عمر حتى بلغ الثمانين فما خبا له نشاط حتى فى شيخوخته فكان يقبل على العمل فى الصباح مع مستخدميه أو قبلهم وينصرف فى المساء بعدهم فرجل هذا شأنه وهذا تقديسه للعمل وانقطاعه اليه ناجح لا محالة فى الحياة فالنجاح طائر يقتنص بشرك العمل ولنا بسيرة سمعان صيدناوى الاسوة الحسنة والمثال الحى

مشى الأخوان بحانوتهما الصغير من نجاح الى نجاح وكافأهما الدهر على همتهما القعساء وجهادهما المتواصل ولكن العمل لم يكن وحده السهم الذى ضربا به كبد الفلاح والنجاح فهناك عامل آخر كان له نصيب كبير فى نجاحهما وهو الاستقامة والصدق فى المعاملة والتزام الكسب الحلال ليس الا ... وفى حياة سمعان صيدناوى الطويلة امثلة كثيرة للاستقامة التى كانت عاملا من عوامل نجاحه واليك مثلا واحدا منها :

كانت نساء البيوتات فى عهده لا ينزلن الى الاسواق مشتريات . وانما كن ينلن ما يبتغين بوساطة الدلالات وهن نسوة كن يطفن بالدكاكين وينتقين منها الأقمشة والسلع ويعرضنها على ربات البيوت المخدرات فيشترين منهن ما يروق فى أعينهن ويحلو

وفى صباح يوم من الايام بينما كان سمعان فى دكانه الصغير قد استعد لاستقبال العملاء وافته احدى الدلالات واشترت منه عشرين مترا من الشبيك المخرم (الدنتلة) ونقدته الثمن وانصرفت وراجع سمعان مبلغ النقود بعد انصرافها فاذا هو ضعف ما يقتضى ففطن الى أن الدلالة حسبت السعر « بالقرش الصاغ » فى حين طلب هو السعر « بالقرش التعريفة » (*) فركض خلفها ليفهمها انها غلطت فى الحساب ، وليرد اليها فرق الثمن فادركها على مسافة بعيدة وصاح فيها وهو يلهث :

ـ حسابك مغلوط يا سيدتى

ـ لا . لا . لا غلط . دفعت الحساب تاما كاملا

واصمت اذنيها عن سماع اى شرح وتفسير كان وهمت بمتابعة السير الى غايتها فاستوقفها وقال :

ـ دفعت زيادة عن المطلوب . دفعت ضعف الثمن

فاصاخت اليه وعادت معه ادراجها الى دكانه ، وبين لها مصدر الغلط ونقدها الفرق فتهلل وجهها وشكرته على استقامته وامانته واستودعته الله وانصرفت تنقل الخبر الى سيدات « الدائرة » من عميلاتها وتروى لهن امانة « الجدع الشامى الحليوة » وكان سمعان على ما وصفت الدلالة وسامة وقسامة حباه الله جمال الخلق والخلق ، فتطاير الخبر من دائرة الى دائرة ومن بيت الى بيت ، واصبحت سيدات القصور والبيوتات يوصين الدلالات بابتياع حاجاتهن من دكان الشاب الشامى الوسيم الأمين . . .

شهرة ونجاح

اتسعت أعمال الأخوين وكثر عملاؤهما وازدادا همة

(*) من العادات بمصر اطلاق لفظ القرش الصاغ على القرش الواحد صحيح ولفظ القرش التعريفة على نصف القرش

ونشاطا وتدفق عليهما الرزق واصبح لهما فى الم
رصيد يعتد به جمعاه بالجد والاجتهاد والمثابرة ففكر
الانتقال بتجارتهما الى مكان اوسع فاشتريا فى حى «المو
منزلا قديما هدماه ثم شيداه تشييدا جديدا يفى بالغر
الذى توخياه وافتتحاه فى عام ١٨٩٦ وكان اكبر محل
بالقاهرة فى ذلك العهد ، وهو الذى كان معروفا بمحل
« بلاتشى » فى حى « الموسكى » فنظماه صفوفا واج
وخصصا كل جناح بضرب من السلع ففتح الله عليهما ابو
الرزق وصارت امنية كل شار أن يزور اولا محل سم
ويبتاع منه ما يهوى ويشتهى

وطارت شهرة المحل واصبح لا يعرف الا بمحل سم
لأن سمعان كان فيه الركن الركين لا يغيب عنه لحظة وا
من لحظات النهار ذلك بأن الأخوين كانا قد اقتسما الع
فيما بينهما فاختص سليم وكان اداريا حازما بمهمة الاد
والشراء وتزويد المحل بالسلع اللازمة يسافر من أجلها
أوربا ويشتريها من مواردها الأصيلة ، واختص سم
وكان لسنا لبقا ظريفا بمهمة استقبال العملاء والاشر
على صفقات البيع وارضاء كل عميل فلا يخرج من محله
وهو شاكر راض . فكان من حسن ادارة سليم ان
محلهما سيرا قويما منظما . وكان من بعد نظره ان وظ
الفائض من اموالهما بشراء الأرضين التى يتوسم لها
مستقبلا زاهرا ، فاشترى كثيرا من العقار والارض الفض
فى حى الخازندار وحى ابراهيم باشا وكان من قبل يعر
بحى نوبار باشا ، فارتفعت قيمة الارض والعقار على توا
السنين ، وجنى الأخوان من ذلك الربح الحلال . وكان
اضطلاع سمعان بشؤون البيع والسهر على رضى العملاء
نمت تجارتهما نموا مطردا ودارت كلمة « سمعان » على
لسان حتى ان النساء المحصنات ما كن يرضين ببضا

جيها اليهن الدلالات ان لم تكن ملفوفة بورق يحمل اسم سمعان

وازداد الاقبال على محل سمعان فأصبحت رقعة المحل كبرها واتساعها لا تفي بازدياد حركة البيع وازدحام عملاء فاشترى الأخوان محلا جديدا ازاء محلهما الكبير يقع شارع الخليج المصرى وخصصاه ببيع « المفروشات » رت عليهما الاستقامة ودر عليهما العمل الحثيث الجزاء وفى يهطل عليهما من شآبيب محلهما الكبير ومحلهما الجديد حلهما الصغير الاول فى حى الحمزاوى

وينتقل سليم الأخ الأكبر فجاة الى رحمة الله فى سنة ١٩٠ فيجزع عليه سمعان جزعا شديدا ويفقد فيه شقيقا يا ونصيرا ومعاونا ويابى ان يستقل بالعمل وحده من ده فيشرك معه ورثة أخيه

محلات صيدناوى بالخازندار

وينهض سمعان بالعبء العظيم وتزداد أعماله اتساعا يزداد هو جلدا على الجهاد والكفاح والعمل المتواصل ويرى ن ثقة الناس به تضطره الى التوسع فيقرر توحيد محاله ثلاثة فى محل واحد كبير واسع ولم يجد خيرا من العقار ذى يملكه فى حى الخازندار وكان مجموعة من الدكاكين لمقاهى فبدأ يهدمها فى سنة ١٩١١ ويبنى على انقاضها ه العتيد الكبير حتى فرغ من البناء فى سنة ١٩١٢ واحتفل فتتاح « محلات سليم وسمعان صيدناوى » فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر من عام ١٩١٣

وكان نجلاه يوسف وجورج ونجل شقيقه الياس قد برا فى ذلك العهد طور الشباب والرجولة فعهد اليهم فى دارة هذا المحل الكبير وبقى هو حتى آخر لحظة فى حياته ضطلع بالعمل كأى فرد من الأفراد حتى توفاه الله عن شيخوخة صالحة فى سنة ١٩٣٦ بعد اذ اكتحلت عينه برؤية

حانوته الصغير فى حى الحمزاوى ينمو وينمو حتى ينقلب الى ذلك البناء الواسع الفخم فى حى الخازندار وحتى يكون له فروع بالاسكندرية والمنصورة وطنطا والفيوم واسيوط وبور سعيد وباريس ومنشستر ، ويضطلع بادارة هذا العمل الواسع انجاله واحفاده يتزعمهم نجل يوسف وجورج ونجل شقيقه الياس ناهجين جميعا الأبوين فى العمل والاستقامة والذكاء والاحسان

عناصر النجاح

يعزى نجاح سمعان صيدناوى الى العمل والاستقامة وهما عنصران رئيسيان من عناصر النجاح ويعزى نجاحه كذلك الى الذكاء الفطرى الذى توجهه الملكة التجارية فالعمل المضنى والاستقامة اذا اجتمع اليهما الذكاء تألف منهما ثالوث كفيل بان ترسى عليه قواعد النجاح . ولقد كشفنا فى نفس سمعان صيدناوى اقنومين من ذلك الثالوث فلنجتزىء فى الكشف عن الأقنوم الثالث فى نفسه بسرد الواقعتين التاليتين ففيهما الدليل المقنع على الذكاء المنبعث من الملكة التجارية فيه :

كان سمعان ذات صباح واقفا على باب محله فى حى الموسكى يشيع بابتسامته الحلوة وتحيته الرقيقة العملاء الخارجين من محله بعدما ابتاعوا منه حاجاتهم فلمح وراءهم سيدة صفر اليدين قد جمعت ملاءتها وهمت بالخروج فاقبل عليها كعادته يسالها لماذا لم تشتر مطلوبها ، فقالت له ان الأثمان عندكم غالية ، فبكرة الخيط تباع بتسعة مليمات وانتم تبيعونها بعشرة ، فطيب خاطرها وعاد بها الى جناح بكرة الخيط وقال :

— كم بكرة تريدين يا سيدتى ؟

— أربع وعشرون

فامر البائع بحسبان سعر البكرة الواحدة بتسعة مليمات وحلت اسارير المرأة وعلت وجهها قسمات الرضى. وكانت احدى الدلالات جاءت تبتاع جهاز عروس فابتدات ببكر الخيط . وكان الجناح الخاص به فى مقدمة المحل ثم ما لبثت ان ابتاعت كل ما تريد فبلغت قائمة الحساب ١٢٠ جنيها دفعتها نقدته اياها راضية مسرورة ، فلولا ذلك المليم الذى نزل عنه لفاته الربح الذى جناه من بيع تلك الصفقة ، لكنها النظرة السديدة وذكاء المهنة ...

والواقعة الثانية تتلخص فى ان سمعان كان فى سنة ١٩٠٨ يصطاف بلبنان فانتهى اليه ان الشيخ سلامة حجازى قد وفد الى بيروت على راس جوقه الشهير فخف سمعان هو ونفر من اصدقائه المصريين الى بيروت لسماع الشيخ سلامة ، ولكن الشيخ عز عليه ان لا يزيد عدد النظارة على عدد اصابع اليدين فالغى الحفل وادعى المرض فذهب اليه سمعان وصحابه يعودونه ويستفسرون عن صحته فاخبرهم بخيبة امله ، وبانه صحيح معافى ولكن يشق عليه بعد النفقات الطائلة التى تجشمها ان يغنى ويمثل فى حضرة افراد قلائل لا يملأون مقاعد صف واحد من صفوف القاعة فاخذ رفاق سمعان يواسون الشيخ سلامة ويمنونه بالاقبال فى الليالى المقبلات فيجيب الشيخ على هذه الأمانى بابتسمة صفراء تشتمل كل معانى الياس والقنوط . وعلى حين فجاة ينتفض سمعان ويقترب من الشيخ وهو يقول :

ـ يا عزيزى الشيخ

ـ لبيك يا اخى سمعان

ـ ان الشعب اللبنانى مرح طروب يقدر الغناء ويعشق الصوت الجميل ولكنه لا يتحرك الا عن ثقة واقتناع وهذه هى المرة الاولى التى تزور فيها بيروت فاعذره اذا هو لم يعرف من هو الشيخ سلامة حجازى

فلم يخرج الشيخ عن بسمته الصفراء فاستأنف سم
حديثه وقال :

ـ الم تكن يا عزيزى الشيخ ترتل القرآن وتعلو الم
قبل ان تعلو المسارح

ـ بلى ...

ـ اذن تذهب غدا وهو يوم جمعة الى مسجد بير
وتؤذن الظهر بصوتك الرخيم فيتساءل عنك الناس ح
يعرفوك ولسوف يقبلون على مسرحك فى المساء وانا كف
بانه لن يكون فيه موضع لقدم

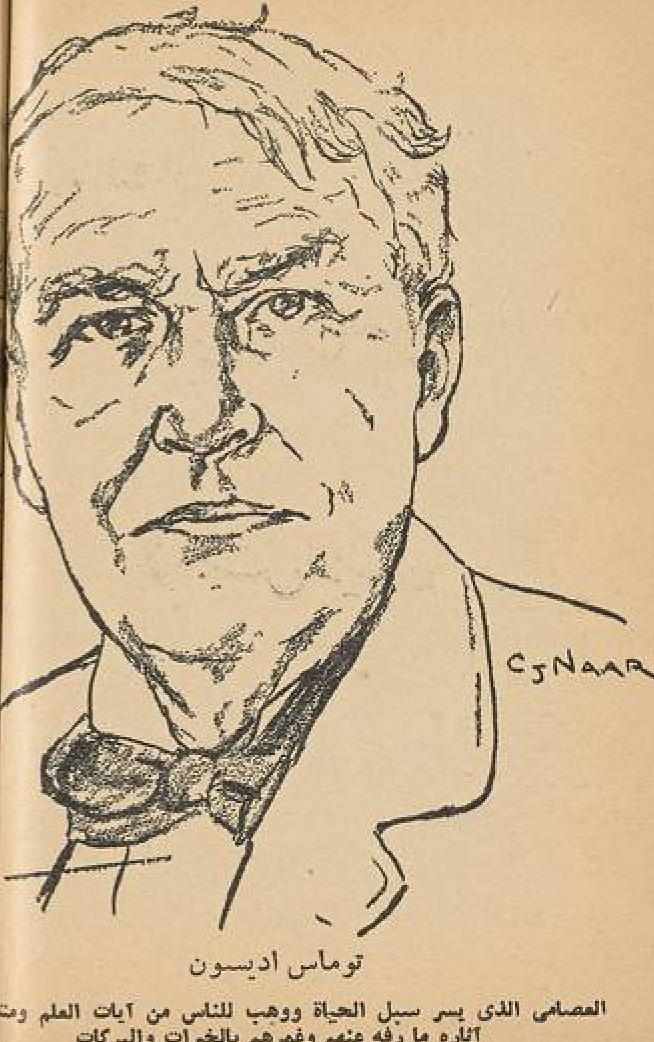
وكان ما قدره سمعان ..

ليس الذكاء علما بالغيب وانما هو تقدير صحيح للأم
ونتائجها فمن وهب ملكة من الملكات ساعده الذكاء المن
منها على جلاء الغوامض وتدارك العواقب . فالملكة التجا
هى التى أوحت الى سمعان بذلك الاقتراح فنعم الش
سلامة بنتيجته الحسنة . ونحن ان عرفنا عن سمع
صيدناوى هاتين الحادثتين وحكمنا له استنادا اليهم
بالذكاء فما من شك ان هناك كثيرا من مثيلاتهما عرضت
فى الحياة ووجهه فيها الذكاء وبقيت سرا مكتوما توشح
سر النجاح

الجزء الثانى

عصاميون من الغرب

توماس اديسون



توماس اديسون

العصامي الذى يسر سبل الحياة ووهب للناس من آيات العلم ومث
آثاره ما رفه عنهم وغمرهم بالخيرات والبركات

العالم العصامى

كان فى السابعة من عمره حين دخل المدرسة لاول مرة ، بلدة « بورت هورون » بولاية « متشيجان » الامريكية ، بعد ان انتقل اليها مع والديه : « صموئيل اديسون » و« نانسى اليوت » من قرية « مويلان » الصغيرة بولاية « اوهيو » حيث رزقا به فى ١١ من فبراير سنة ١٨٤٧

ولم تزد فترة التحاقه بهذه المدرسة على ثلاثة اشهر، ولم يدخل بعدها اية مدرسة ، فقد صرح معلموه فيها انه من الغباء والبلادة بحيث لا يصلح للتعليم ، ولم يكن راى والده فيه خيرا من راى معلميه !

على ان والدته وكانت مدرسة سابقة ، عز عليها ان يخيب املها فى وحيدها العزيز « توماس » فاخذت على عاتقها مهمة تعليمه فى المنزل ، وواصلت القيام بهذه المهمة زهاء ثلاث سنوات ، اتقن الصبى خلالها القراءة والكتابة ، والم بمبادىء بعض من العلوم والفنون . وقرا باشرافها طائفة من الكتب المفيدة اهمها : « دائرة المعارف الصغرى » و« قاموس العلوم » للاستاذ « بور » و « تاريخ انجلترا » للاستاذ « هيوم » وكتاب « اضمحلال الدولة الرومانية وزوالها » للمؤرخ « جيبون » . وحاول قراءة كتاب « نيوتن » لكنه لم يطق المضى فيه ، وكره الرياضيات كلها منذ ذلك الحين !

وكان هذا نجاحا عظيما لتوماس الصغير ووالدته ، غير ان ظروف الاسرة المعيشية ، قضت بأن يقف الصبى عند

هذا الحد من الدراسة المنزلية ، وبأن يعمل بائعا للصحف سعيا وراء القوت !

وبعد قليل ، انتقل الصبي من بيع الصحف فى الشوارع الى بيعها فى قطارات السكة الحديدية فيما بين « بورت هورن » ومدينة « دترويت » . واتسع نطاق تجارته فراح يبيع للمسافرين – علاوة على الصحف – بعض الكتب وأكياس الحلوى والفول السوداني وما اليها !

ورغم قلق والدته الدائم وخشيتها على حياته من أخطار الحوادث فى عمله اليومي الشاق ، كانت حريصة على تشجيعه ، وتقوية روحه المعنوية ، مع العناية بنظافته ونظافة ملابسه . ولكنه لم يكن يعبأ كثيرا بمظهره ، فيكتفى فى اكثر الأحيان بنظافة وجهه ويديه واقمصته ، اما بنطلونه فلم يكن يبدلها الا حينما تبلى ، واما حذاؤه فلم يكن تنظيفه يعنيه فى قليل ولا كثير

يصدر مجلة

مضى توماس اديسون فى عمله المضنى المتواصل ، راضيا به ، باذلا من النشاط ما لا يطيقه الا اولو العزم من الشبان الأقوياء ، مع انه لم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره . وما كاد يمضى فيه سنتين حتى تاقت نفسه الطموح الى المزيد من النجاح ، وهداه ذكاؤه الى اصدار مجلة صغيرة سماها « ويكلى هيرالد » طولها شبران ، وعرضها شبر ونصف شبر ، وثمن النسخة منها ستة مليمات ، واشتراكها الشهرى ستة عشر مليما . فاشترى لذلك بعض الحروف القديمة من مطبعة « ديترويت الحرة » كما اشترى آلة طباعة صغيرة كانت تستعمل لطبع الحسابات فى احد الفنادق ، ثم اخذ يحرر المجلة ويجمع حروفها ويطبعها ويوزعها فى القطار . وظهر العدد الأول منها فى ٣ من فبراير سنة ١٨٦٢ وسرعان ما اجتذبت

حوارها الطريفة اعجاب المسافرين ، فبلغ ما كان يوزعه كل عدد منها ٢٠٠ نسخة ، ولم تتم المجلة سنتها الاولى حوالى جاوز عدد المشتركين فيها خمسمائة . وبذلك تضاعف بد الصبى المجد المبتكر ، اذ بلغ ربحه من مجلته وحدها ٤٥ دولارا فى الشهر ، وكان بارا بوالديه فخصص هذا الربح لمساعدتهما !

لم يكن الكلل او الملل يعرف سبيله الى نفس الصبى الحساس ، وقد شجعه نجاح مجلتـه على مضاعفـة جهوده الطاقة لبلوغ غايات ابعد ، فانشأ بجانب مطبعته فى القطار معملا صغيرا جمع فيـه بعض آلات التلغراف والأسلاك المختلفة وزجاجات بها بعض المواد الكيمياوية ، واخذ يمضى اوقات فراغه من العمـل فى اجراء التجارب لاختراع آلة تلغرافية من نوع جديد

على ان الحظ بدأ يقلب للصبى المجتهد ظهرالمجن ، فحدث يوما وهو منهمك فى تجاربه ان اشتد اهتزاز القطار اثنـاء اجتيازه طريقا وعرا ، فانقلبت زجاجة الفوسفور وانسكب ما فيها على ارض العربة فاشتعلت النار فيها . ومع انه اسرع الى اطفاء الحريق ونجح فى ذلك بعد جهد جهيد ، لم يمنع سائق القطار فى شدة غضبه وحنقه الا ان ينزل به اشد العقاب ، فقذف به وبمطبعته وكل ادواته وأمتعتـه من القطار فى اول محطة وقف بها بعد اطفاء الحريق . ولم يكفه ذلك فاهوى بيده الغليظـة على وجهه بضربة قوية عنيفة ، بقى الصبى يعانى آثارها طيلة عمره ، اذ ادت الى فقد اذنه اليسرى قوة السـمع ، وذهبت كل محاولاته لعلاجها مع الريح !

مصاعب وعقبات

الا ولم يفت ذلك الحادث فى عضد الصبى فاستانف اصدار مجلته وتجاربه الكيميائية فى غرفة خصصها له والداه باعلى

المنزل . واستطاع ان يحافظ على ما بلغته المجلة من رواج كما وصل فى تجاربه التلغرافية الى ما يبشر بالنجاح ، بين غرفتـه وبين مساكن بعض زملائه من صبية المدينة اسلاكا كالتى تستعمل فى المواقد ، مستعينا على بالاشجار القائمة فى الطريق ، واستعمل اعناق الزجاجات لتقوم مقام الآلات العازلة . ولكنه قبل ان ذلك المشروع فوجىء بحادث لم يكن فى الحسبان ، اذ ان نفرت بقرة لأحد الجيران ذات ليلة ، فحطمت احد الشجرات التى ربط بها اسلاكه ، ثم اخذت تحاول التخلص من الاسلاك التى التفت حولها ، وتطلق فى خلال ذلك خوارا عاليا ازعج الجيران جميعا ، فهبوا من مراقدهم ساخطين وكانت النتيجة ان اتلفوا كل تلك الاسلاك والادوات التى أعدها لمشروعه الخطير !

وأبى سوء الحظ الا ان يمتد الى العمل الصحفى الذى نجح فيه توماس . فقد أشار عليه صديق له ان يصدر صحيفة جديدة باسم « بول براى » بدلا من مجلته الاولى ولم تمض على ذلك اسابيع حتى نشر خبرا خاصا صحيفته الجديدة اسخط عليه احد رجال المدينة ، وما يلقاه بعد ذلك حتى انتقم منه شر انتقام اذ قذف به فى نهر « سان كلير » . ولم ينج الصحفى الصبى من الغرق باعجوبة . وكان هذا الحادث بداية النهاية لذلك المشروع الصحفى ، فاحتجبت « بول براى » فجأة بعد قليل وعاد توماس يبحث لنفسه عن عمل جديد

عامل تلغراف

وفق توماس بعد اشهر الى الالتحاق بوظيفة عامل تلغراف ليلى فى محطة « بورت هورون » بمرتب قدره خمسة وعشرون دولارا فى الشهر . وكان الفضل فى التحاقه بهذه الوظيفة للمستر ماكنزى ناظر محطة « مونت كليمان »

الى المحطة التى قذف اليها سائق القطار بصاحبنا توماس
وادوات معمله منذ اربع سنوات . فقد تطوع ذلك الناظر
بتدريب الصبي على استعمال آلة التلغراف حتى حذقه ،
ثم ساعده فى الحصول على تلك الوظيفة . وكان فى عطفه
عليه واعجابه بجده وطموحه يرد له جميلا صنعه معه ،
اذ خاطر بحياته يوما لينقذ طفله الحبيب من موت محقق
تحت عجلات القطار !

وما كاد توماس يطمئن فى وظيفته حتى عاوده حنينه الى
تجاربه العلميــة ، فاعاد انشاء معمله فى مسكنه ، واخذ
يقضى اكثر اوقاته عاكفا على تلك التجارب . وكانت نتيجة
هذا الجد أنه فقد عمله الليلى فى المحطة ، لأن النوم كان يغلبه
وهو يؤديه !

والتحق بعد ذلك بوظيفة مماثلة فى مدينة « سارينا » .
لكنه فقدها ايضا بسبب انشغاله بتجاربه ، فضلا عن ان
ذلك كاد يؤدى الى كارثة اصطدام قطارين !

وفى سنة ١٨٦٤ ، عين توماس اديسون عاملا للتلغراف
بمدينة « انديانا بوليس » وبلغ مرتبه خمسة وسبعين
دولارا فى الشهر ، فكان يبعث الى أسرته بأكثر مرتبه ،
ويخصص الجانب الأكبر من بقيته لشراء الكتب العلمية
والأدوات التى يستعملها فى اجراء تجاربه

عنايته بالتجارب العلمية

وتنقل فى وظيفته هذه بين مدن أخرى أهمها سنسناتى ،
وممفيس ، ولويستيل . وعرف فى هذه المدن كلها بانه
أسرع عامل فى ارسال البرقيات . ولكن رؤساءه كانوا
يضيقون بانكبابه على المطالعة والتجارب العلميــة التى
يعدونها عبثا لا فائدة فيه . . وهكذا كان لا يكاد يستقر فى
عمل حتى يضطر الى تركه والبحث عن عمل آخر فى مدينة
أخرى . وكثيرا ما اضطر الى السفر ماشيا وهو يحمل كتبه

وادواته وآثار الفاقة ظاهرة فى بدلته وحذائه الباليين
لا يكاد يستريح من عناء رحلته الشاقة ويجد العمل المناسب لكفاءته حتى يعود سيرته الاولى !

وحدث يوما وهو فى « سنسناتى » أن كاد يقتله احد رجال البوليس ، اذ ارتاب فى امره وحسبه لصا ، نظرا الى هيئته الرثة ولسيره فى ساعة مبكرة حاملا رزمة ثقيلة من أعداد مجلة قديمة كان قد اشتراها فى مزاد عام . ولما صاح به آمرا اياه بالوقوف ، لم يسمع توماس صيحته بسبب اذنه الصماء وواصل سيره . فاطلق الجندى عليه رصاصة من بندقيته كادت تطيح بأذنه الاخرى وبحياته كلها !

واخيرا انتهى به المطاف الى ان اضطر الى العودة لمدينة بورت هورون ، حيث لازم فراش المرض بمنزل والديه وبقى ثمانية عشر شهرا يعانى ضعف صحته بجانب الآلام النفسية بسبب فصله من عمله برغم تفوقه فيه ، وامتناع مكاتب التلغراف عن استخدامه ، لا لذنب غير اشتهاره بحب المطالعة واجراء التجارب الكيميائية أملا فى الوصول الى اختراع جديد مفيد !

ما كاد توماس اديسون يسترد صحتـه ، حتى اعتزم السفر الى « بوسطن » لاستكمال ابحاثه الجديدة فى الكهرباء هناك . وقد منحته شركة السكة الحديدية « جراند ترنك » تذكرة سفر مجانية ، مكافأة له على اقتراح قدمه لها أمكن بتنفيـذه استخـدام سلك مائى واحد لاحداث دورتين كهربائيتين فعاد ذلك عليها بربح كبير نتيجة لقلة التكاليف .

اول اختراع له

ووجد عملا ليليا فى مكتب تلغراف لشركة « وسترن يونيون » . وقسم أوقات فراغه بين مطالعـة المؤلفات

.. هرباء وبين اجراء تجاربه فيها بالمعمل الصغير الذى انشاه
بمسكنه . وكان زملاؤه مع اعترافهم ببراعتـــه فى عمله
يكتمون سخريتهم منه لقلة عنايته بمظهره ، ولأن اشتغاله
.. التجارب والمطالعات كان فى رايهم جهدا ضائعا لا خير
.. ه!.. لكنهم لم يجدوا بدا من العدول عن هذا الراى حين
.. موا بتسجيله أول اختراع كبير له فى سنة ١٨٦٩ ، وهو
.. ئذ فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان ذلك الاختراع
.. كهربائية لتسجيل اصوات الناخبين !

على ان هذا الاختراع لم يفده شيئا ، اذ رفضت الهيئة
.. شريعية فى الولاية استخدامه

وحــدث فى ذلك الحين ان دعى الى القــاء محاضرة عن
.. تلغراف باحدى المدارس ، وشغلته تجاربه عن تذكر موعد
المحاضرة ، الى ان نبهه اليه صديقه «ادامز» فى آخر لحظة ،
.. سطحبه الى المدرسة وهو ما زال يرتدى ثوب المعمل ،
.. نـــدما كان حرجه حين فوجىء بأن اكثر من فى قاعة
.. محاضرات من السيدات والآنسات المتأنقات ، لا من الطلبة
.. ما توقع هو وصديقه !

ولم يطق البقاء طويلا بعد ذلك فى بوسطن ، ولاسيما ان
.. ديونه اخذت تزداد حتى بلغت نحو ثلاثمائة دولار ، فترك
.. عمله فيها ، وسافر الى نيويورك حيث امضى ثلاثة اسابيع
متعطلا لا يكاد يجد القوت الضرورى لبقائه على قيد الحياة !

وفى ذات صباح ، توجه الى مكتب المالى المعروف مستر
.. لو » صـــاحب شركة « ريبورتنج » للذهب ، ليطلب
.. عملا يعيش منه ، واتفق ان اغمى فى المــكتب على الموظف
المختص بكتابة اســعار الأسهم ، وادى ذلك الى تعطــل
الأعمــال فى نحو ستمائة بيت من بيوت الاوراق الماليــة
المتعاملة مع المكتب . فانتهز توماس اديسون هذه الفرصة ،

وقدم لصاحب الشركة اقتراحا عمليا لتلافى مثل ذلك التعطل فى المستقبل ، فاعجب هذا باقتراحه ، وعينه مديرا للمكتب بمرتب شهرى قدره ثلاثمائة دولار !

٤٠ الف دولار

اتصل اديسون بعد قليل بالجنرال مارشال مدير « جولد ستوك تلغراف » واخترع للشركة آلات مختلفة لكتابة اسعار الاسهم وغيرها ، وقد وصف هو فيما بعد ما شعر به حين عرض عليه ٤٠ الف دولار ثمنا لاحد اختراعاته ، فقال : « لم اصدق سمعى اول الامر ، فلما تحققت ذلك كدت اقع مغشيا على من شدة المفاجاة ! »

وما كاد هذا المبلغ يصل الى يده حتى انشأ به مصنعا لنفسه فى « نيو آرك » بمدينة « نيوجرسى » . استخدم فيه نحو ثلاثمائة عامل . ثم توالت مخترعاته التلغرافية وفى مقدمتها : آلة مزدوجة ترسل بواسطتها على سلك واحد فى وقت واحد ، رسالتان الى جهتين مختلفتين . ثم آلة رباعية ترسل بها فى وقت واحد اربع رسائل كل اثنتين منها الى جهة ، وقد اشترتهما منه شركة « وسترن يونيون » بثلاثين الف دولار ، انفقها كلها فى سبيل اختراع آلة سداسية ، اشترتها منه الشركة نفسها ، فوفرت باستعمالها ملايين الدولارات

وفى سنة ١٨٧٣ تزوج توماس اديسون من احدى العاملات فى مصنعه ، فانجبت له ابنته مارى استل ، وولديه توماس الفا ، ووليام لسلى . وبرغم حبه لزوجته واولاده كان يبذل الجانب الاكبر من وقته وجهده وماله فى سبيل تجاربه العلمية ، واعلن انه بسبيل اختراع آلة تلغرافية تعمل بنفسها ، فكان ذلك مدعاة لتهكم الصحف عليه والسخرية منه ، على انه لم يعبأ بشىء من ذلك ، ومضى فى سبيله حتى حقق تلك المعجزة الكبرى !

اخترع آلة تسجل مائتي كلمة فى الدقيقة وترسلها
سلك واحد طوله ٢٥٠ ميلا ، وادخل على هـذه الآلة
ينات عدة فصارت تسجل فى الدقيقة الواحدة ٣٢٠٠
ة !
وفى سبيل تحقيق هذه المعجزة ، اضطر العالم المخترع
اب الى قراءة اكداس من كتب الكيمياء ، جلبهـا من
ن وباريس ونيويورك ، وبقى ستة اسابيع لا يغادر معمله
ل نهار اجرى خلالها اكثر من الفى تجـربة ، وملأ مجلدا
خما بملخصات الـكتب التى قراها ، وكان ياكل اثناء
اته ، وينام على الكرسى الذى يجلس عليه !

اختراع المصباح الكهربائى والفونغراف والسينما

وفى سنة ١٨٧٨ عكف اديسون على اختراع مصباح كهربائى
صغير الحجم محتمل الضوء يمكن استخدامه بدلا من مصابيح
غاز ، وقضى فى تجاربه المتواصلة ثلاثة عشر شهرا ، انفق فى
خلالها ما يزيد على مائة الف ريال ، ولـكن جهوده كللت
بالنجـاح فسجل اختراعه لذلك المصـباح فى يناير سنة
١٨٨٠ ، واشرف على انشاء مصنع فى « منلوبارك » لصناعة
الزجاجات المفرغة من الهواء ، ثم توفر على انشاء محطة لتوليد
الكهرباء فى نيويورك لمن يريد استعمال ذلك المصباح !
وقبل ذلك بسنتين سجل اديسون اختراعه آلة لتسجيل
الصوت « الفونغراف » ، وكانت آلة « الكينمتوسكوب »
التى اخترعها بعدئذ تمهيدا لطريق اختراع السينما !. ثم
اخترع آلة للسينما الناطقة لم يقـدر لها الرواج لـكثرة
تكاليفها . كما اخرج عشرات من المخترعات من بينهـا :
التاسيمتر لقياس حرارة النجوم ، و « الميجافون » لحمل
الصوت مسافات شاسعة ، و « الايروفون » لتكبير الصوت
الى مائتي ضعف ، و « الميميوجراف » لطبع المذكرات وما
اليها ، وآلة مغناطيسية لتحليل المعادن . كما سجل عشرين

ابتكاراً لتحسين البطارية المشحونة بالكهرباء ، فمه
السبيل الى ابتكار العربات التى تسير الآن بالكهرباء
الارض وتحتها !

زواج اديسون

وفى ذلك العام نفسه تزوج من الآنسة « مينا ميلر »
ابنة أحد ارباب الصناعة ، ثم اشترى ضيعة على مقربة
معمله ، مساحتها ثلاثة عشر فدانا من حدائق وبساتين
وفيها بيت أنيق مبنى بالآجر والخشب . وهناك ولد
ابناؤه الثلاثة «مدلين» و «شارلز» و « تيودور » وتوا
عليه الهدايا فى بيته الجديد تبعث اليه من أطراف الارض
فتماثيل من الرخام المجزع اهداها اليه قيصر روسيا
واواني يابانية ثمينة أهدتها اليه جمعية المهندسين باليابان
ومحبرة عجيبة اهدتها اليه مصانع كروب الالمانية فى صو
مدافع وقنابل مصغرة . وكان من بين هذه الهدايا و
« البرنس البرت » الذهبى قدمته اليه جمعية الفنون
لندن عام ۱۸۹۲ ، كما أهدت اليه فرنسا الطبقات الثلاث
أوسمة « اللجيون دونور » . وبعثت اليه جمعية التصو
الشمسى بفرنسا وسامها البرونزى ، كما بعثت اليه ايطا
وسام « التاج الايطالى » . هذا الى أوسمة شتى جا
اليه من المعاهد الامريكية فى بوسطن ونيويورك ومن المعار
التى اقيمت فى استراليا والنمسا وانجلترا وفرنسا وامر

وفاة اديسون

وتوالت السنوات على اديسون وفترت عنه
الشباب ، وبلغ من حياته ما لم يبلغه غيره من مخترع
ثم انطفأت الشعلة آخر الامر وخمد نشاطه الدائب
يوم وفاته فى الثامن عشر من اكتوبر سنة ۱۹۳۱ ، وكان
بلغ الرابعة والثمانين من العمر

شارل دیکنز



تشارلز ديكنز

عجزت اسرته عن الحاقه بالمدرسة ، فبقى حتى التاسعة من عمره لايعر
القراءة والكتابة ، ومع ذلك فانه لم يكد يبلغ الرابعة والعشرين حتى
الناشرون يتسابقون الى التعاقد معه لامدادهم بقصصه

عبقرى صنعه الفقر

فى كوخ بسيط متواضع بقرية « بورتسى » فى ضواحى
مدينة « بورتسماوث » الانجليزى ، ولد تشارلز جون هسنام
ديكنز » فى ٧ فبراير سنة ١٨١٢ . وما اتم العام الاول من
عمره حتى نقل ابوه الكاتب فى البحرية الى لندن ، فاقام بها
واسرته اشهرا معدودات ، ثم نقل مرة اخرى الى ميناء
« تشاتم » . وهناك فى كوخ بسيط متواضع ايضا استقرت
الاسرة المؤلفة من الزوجين وولديهما، وكان تشارلز اصغرهما
واخذ عدد افراد الاسرة فى التكاثر ، بينما بقى دخلها
الضئيل على ما كان عليه ، فأخذت حالتها تبعا لذلك تنتقل
من سيىء الى اسوا ، ولا سيما ان عميدها كان بفطرته
مسرفا يميل الى التانق والحياة المرحة اللاهية ، كما أن ربة
الاسرة كانت ساذجة لا تحسن التدبير !

دراسته وشقاء أسرته

وبقى تشارلز حتى بلغ التاسعة من عمره لا يعرف القراءة
والكتابة ، اذ عجزت اسرته عن ادخاله المدرسة . على ان
والده كان يختصه بكثير من رعايته وعنايته ، ويصطحبه فى
رحلاته القصيرة الريفية حيث يزوده بطرائف المعلومات
والمشاهدات ، ويروى له الكثير من القصص والحكايات
المسلية ، كما يقوم امامه احيانا بتمثيل الأدوار الهزلية التى
يبرع فى ادائها . . ثم اتيح للصبى ان يبدأ دراسته فى مكتب
اولى يشرف عليه الأب جيلز قسيس طائفة المعمدين بالقرية،
فمكث فى هذا المكتب نحو سنتين تعلم فيهما القراءة والكتابة،

وامتلأ خياله بعشرات من الصور الرائعة عن الشخصي
التى قرأ عنها فى مجموعة الكتب والصحف القديمة التى
مكدسة فى غرفة على سطح ذلك المكتب

ثم انتقل الصبى مع اسرته الى لندن للمرة الثانية ، اذ
اليها عميدها بعد ان اثقلته الديون ، راجيا ان يجد
مخرجا من الضائقة التى استحكمت حلقاتها ، لضآلة
وكثرة اولاده !

على ان الشقاء الذى لقيته الاسرة فى لندن كان
واقسي ، فقد حول عميدها مرتبه الى دائنيه ، وحاولت
الاسرة ايجاد حل لازمتها الطاحنة ، فانتقلت بها الى
جديد اعتزمت ان تجعل منه مدرسة للفتيات ، وارسلت
ابنها تشارلز الى المنازل القريبة ليوزع الاعلانات التى
برامج الدراسة ، ولكن الفشل الذريع كان نصيب كل
المحاولات ، وسرعان ما تبخرت آمال الزوجين ،
الدائنون الحجز على اثاث مسكن الاسرة ، وسيق عميدها
الى سجن « المارشالسى » المخصص للمدينين المماطلين
وانتهى الأمر بتشارلز المسكين الى ان اضطر وهو فى الحادية
عشرة من عمره الى ان يخلد الى اليأس من استطاعته مواصلة
الدراسة ، وأن يتناسى آماله التى طالما راودت خياله
مقدمتها ان يصبح مالكا لقصر « تل كاد » التاريخى الفخم
الذى كان يسترعى انتباهه ويثير خواطره واحلامه كلما
عليه فى جولاته الريفية مع ابيه بالقرب من قرية تشاتم !

وهكذا وجد الصبى نفسه فى هذه السن الغضة ، يرزح تحت
اعباء ثقيلة من الاعمال المنزلية المختلفة ، ومن التردد
السوق ، ورعاية الصغار من اخوته واخواته ، ومحاسبة
الدائنين ، وزيارة ابيه فى السجن من حين الى حين !

عمله فى مصنع

وقدر للصبى البائس ان يجد عملا اكثر استقرارا واعظم

اجرا ، وان لم يكن فيه ما يتفق واحلامه وامانيه فى مواصلة التعليم . وكان عمله الجديد هذا فى مصنع متواضع مظلم لانتاج نوع من الدهان الاسود ، كان يملكه قريب لوالدته . فصار يمضى اكثر ساعات النهار فى تعبئة ذلك الدهان فى الزجاجات المعدة لذلك ، ثم يضع كلا منها فى ورق خاص يلفه حولها باحكام ، بعد ان يلصق بها بطاقة باسم المصنع وعنوانه ونوع الدهان . وقد استطاع تشارلز ان يحذق عمله ويتقنه ، برغم انه يختلف عن ميوله كل الاختلاف ، وبرغم شعوره بالمرارة فضلا عن التعب لاضطراره الي ترك الدراسة واحتراف عمل يدوى حقير ، يزامله فيه رفاق غلاظ القلوب والطباع ، لاحظ لهم من المعرفة او حسن الذوق ، وفيهم مع ذلك من يتناول ضعف اجره الذى لم يكن يزيد على ستة شلنات فى الاسبوع !

ولم تستطع السيدة ديكنز ان تصمد طويلا للقيام وحدها بحمل اعباء الاسرة المدينـــة البائسة ، وكان مصرحا لاهل المدينين المسجونين ان يعيشـــوا معهم فى السجن على ان يدفعوا اجر سكنهم فيه ، فانتقلت الى هناك باولادها جميعا ما عدا تشارلز ــ اذ اتخذ لنفسه مسكنا خاصا بالقرب من المصنع الذى يعمل فيه ، مكتفيا بتمضية يوم الاحد من كل اسبوع مع اسرته فى السجن !.. ثم انتقل الى مسكن آخر اقرب الى السجن ، وبذلك صار فى استطاعته ان يفطر مع الاسرة فى ساعة مبكرة من الصباح ، وان يمضى معها فترة اخرى فى المساء بعد فراغه من عمله الى ان يحين موعد انصراف الزائرين وغلق ابواب السجن على من فيه !

شعاع من الامل

وفى ظلام البؤس والياس الذى ساد حياة اسرة ديكنز ، انبثق فجاة شعاع من الامل ، مصدره ميراث صغير هبط على عميدها من حيث لا يحتسب ، فاستطاع ان يسدد

الديون التى ادت به واسرته الى الاقامة بالسجن ، ولكن تشارلز لم يستطع الاستغناء عن عمله فى المصنع ليواصل تعليمه الا بعد اشهر طويلة حين وقع خلاف بين والده وبين صاحب المصنع قريب زوجته . وكانت المدرسة التى اقتنع الصبى والده بأن يلحقه بها هى « اكاديمية ولنجتن هاوس » والدراسة فيها تسير طبقـا للطرائق التربوية العتيقـة والمدرس الاول فيها هو ناظرها مستر « جونز » الطاغية الفظ الغليظ القلب ، الذى كان لا يكتفى بتوجيـه الشتائم المنكرة الى التلاميذ ، بل يكيل لهم اللكمات احيانا ، ويهوى على ظهورهم احيانا بعصا غليظة خاصة اتخذها على هيئة السيف !

وأيا ما كان الامر فقد عد « تشارلز » دخوله هذه المدرسة وهو فى الرابعة عشرة من عمره اكبر حادث سعيد صادفه فى ذلك الحين ، واظهر فيها تفوقا ملحوظا فى التمثيل وتأليف المسرحيات الفكهة ، كما اصدر صحيفة مدرسية ، كان يحررها ويوزعها بنفسه ، بعد ان يكتب نسخها المعدودة على أوراق ينتزعها من كراساته !

ولكن سعادة الصبى لم تلبث الا قليلا ، ثم وجد نفسه مرة أخـرى مضطرا الى ترك الدراسـة للبحث عن عمل يعيش منه ، لان اسرته عادت فقيرة كما بدأت ، بعـد ان نفدت البقية الباقية من الميراث القليل الذى آل الى ابيه .

كاتب فى مكتب محام

وانف تشارلز من العودة الى الاعمال اليـدوية المهينة لكرامته ، وكان قد اتقن القراءة والكتابة والم بشىء من اللغة اللاتينية ، فاستطاع ان يجد لنفسه وظيفة كاتب فى مكتب محام بسيط ، بمرتب قدره ثلاثة عشر شلنا وستة بنسات فى الاسبوع ، ثم رفع مرتبه الاسبوعى الى خمسة عشر شلنا ، مكافاة له على ما أظهر فى عمله من نشاط واخلاص !

وكان ابوه قد بدأ حياة جديدة بعد نفاد المال من يده ، فتعلم فن الاختزال ، والتحق بوظيفة كاتب للمحاضر فى مجلس النواب .. فاعجب تشارلز بهذه الخطة الحازمة الحكيمة التى اختطها ابوه لنفسه ، واعتزم اقتفاء اثره فى ذلك وسرعان ما اقتنى كتابا قديما فى فن الاختزال ، دفع ثمنا له كل ما ادخره من مرتبه حتى ذلك الحين ، ثم عكف على دراسة هذا الفن فى جد ورغبة صادقة حتى بلغ فى اتقانه مرتبة لم يبلغها احد قبله فى لندن كلها ، وبذلك استطاع الحصول على وظيفة مختزل فى دار قاضى القضاة ، ثم عمل محررا برلمانيا فى بعض الصحف الصغيرة ، ولم يمض عليه فى هذا العمل بضع سنوات حتى عين محررا خاصا فى صحيفة « مورنينج كرونيكل » الكبيرة سنة ١٨٣٤ وهو فى الثانية والعشرين اذ ذاك ، وبلغ مرتبه الاسبوعى خمسة جنيهات !

فشله فى الحب

عرف تشارلز الحب ، وذاق حلوه ومره ، منذ كان فى الثامنة عشرة من عمره . ففى ذلك الحين ، ولم يكن بعد قد حصل على وظيفته فى البرلمان ، تعرف الى فتاة تدعى « ماريا بيدنل » كان ابوها صاحب مصرف متوسط فى لندن . وبادلته الفتاة الاعجاب والحب والتعاهد على الزواج، ولكن اسرتها برغم عطفها عليه لم ترض لابنتها زوجا فى مثل الحالة التى كان عليها هو من الفقر وضآلة التعليم ، وما لبثت قليلا حتى ارسلتها الى الخارج فى بعثة لاتمام دراستها العالية ، فلما عادت بعد ذلك ، كان استقبالها اياه فاترا بل باردا ، ولم تجده شيئا محاولاته المتكررة لاستعادة مودتها . ثم تزوجت بعد قليل رجل اعمال اسمه « هنرى ونتر » فانقطع بذلك آخر خيط من خيوط الآمال التى تعلق بها العاشق اليائس المسكين !

اشتغاله بالقصص

وكان تشارلز قبيل التحاقه بصحيفة «مورننج كرونيكل» قد عالج كتابة قصص صغيرة عن الحياة فى لندن والريف، ونشر سلسلة منها فى احدى المجلات الشهرية بعد أن شجع على ذلك نشرها أول قصة بعث بها اليها بتوقيع مستعار، فاتفق مع أصحاب الصحيفة الجديدة على نقل هذه السلسلة اليها، فى مقابل أجر اضافى قدره جنيهان فى الاسبوع، وبذلك بلغ مرتبه الاسبوعى سبعة جنيهات. وكان اقبال القراء على هذه القصص كبيرا جدا، مما عزز مركز الكاتب الشاب، وما كاد يطبع المجموعة الاولى منها فى كتاب مستقل، حتى لقى رواجا منقطع النظير، جعله يقرر التفرغ للتاليف، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره!

اخذ الناشرون يتسابقون الى التعاقد مع المؤلف الناجح الشاب « تشارلز ديكنز . واتفقت معه « هيئة شابمان وهول للنشر فى لندن » على اخراج سلسلة من القصص الرياضية الفكهة، وظهر العدد الاول منها بعنوان « مذكرات بكويك » مزينا برسوم ايضاحية للفنان « سيمور » . ولكن ذلك العدد لم يلق النجاح المنشود، ثم حدث أن انتحر الفنان سيمور، فحل محله فى اعداد الرسوم للأعداد التالية فنان آخر اقرب أسلوبا الى روح ديكنز، هو الفنان « هوبلت براون » . فاخذ الاقبال يزداد على هذه الأعداد حتى بلغ ما نشر منها ست حلقات . ثم قدم ديكنز لقرائه شخصية « سام ولر » التى ابتكرها فضاعف ذلك من اقبالهم على قصصه،وقفز عدد النسخ المطبوعة من الحلقة الخامسة عشرة الى اربعين الف نسخة، بيعت كلها قبل طبعها، فى حين ان ما طبع من الحلقة الاولى لم يزد على اربعمائة نسخة، لم يبع الا حوالى نصفها!

شقاوه الزوجي

وفى خلال نشر هــذه السلسلة ، تزوج تشارلز ديكنز كاترين هوجارت الابنة الكبرى لأحد أصحاب صحيفة « مورننج كرونيكل » . وكانت يومئذ شابة جميلة مثقفة ، وجد فى حبها له ما لم يجد من ماريا بيدنل التى احبها لأول مرة قبل ذلك ببضع سنين . وتم هــذا الزواج فى ابريل سنة ١٨٣٦،ولكن تشارلز ما لبث قليلا حتى ضاق بما تبينه فى زوجته من ضعف العزيمة وجمود العاطفة ، وان وجد بعض العزاء فى شقيقتها « مارى » التى كانت مقيمة معها . غير ان القدر لم يسعده طويلا بهذا العزاء ، اذ توفيت مارى اثر مرض مفاجىء فى مايو من السنة التالية . وكان ذلك عقب عودة الأسرة من سهرة ممتعة فى احد المسارح !

وبلغ من فرط الحزن الذى شعر به ديكنز لفقد شقيقة زوجته ، انه مكث شهرا كاملا لا يستطيع مزاولة عمله ، فلم تصــدر الحلقة المنتـادة من سلسلة « مذكرات بكويك » فى ذلك الشهر !

وازدادت الجفوة بين الزوجين بعــد ذلك ، برغم كثرة اولادهما ، وكان للفتاة « جيورجينا » الشقيقة الصــغرى للزوجة ، فضل كبير فى تخفيف حدة تلك الجفوة بينهما ، وكانت قد انتقلت الى منزلهما بعد وفاة مارى ، وخلفتها فى القيام بمهام تدبير المنزل ورعاية الأولاد

طريقه الى النجاح

وفى سنة ١٨٣٨ بدا نشر السلسلةالثانية من قصص ديكنز، وهى قصة « اوليفر تويست » فرسخت شهرته الأدبيــة . ثم توالى نشــر سلاسل قصصه فى الصحف ، وفى كتب مستقلة ، فاخرج خمس روايات مطولة رائعة ، ومجموعات من القصص القصيرة ، وكتابا عن « الثورة على البــابوية سنة ١٧٨٠ » . ثم سلسلة من الاحاديث عرفت باسم

« ساعة السيد همفرى » . لكنه قطع هذه السلسلة لكتابة القصص المطولة ذات الموضوع الواحد ، فاخرج قصة « دكان التحف القديمة » التى كانت سببا لذيوع شهرته فى امريكا ايضا ، وبلغ من اثر الاقبال على حلقاتها هناك ان كانت جموع القراء تقف ساعات فى انتظار وصول السفن التى تحمل الحلقة الجديدة الى الميناء !

وتلقى ديكنز على أثر ذلك دعوات الى زيارة امريكا ، و برحلته الاولى اليها فى سنة ١٨٤٢ حيث استقبل بأعظم الحفاوة والترحيب ، ولكنه لم يجد فى مشاهداته هناك ما يطابق الصورة التى تخيلها عن الحياة فى العالم الجديد وصدم شعوره على الأخص ما لاحظه من تفشى الرق هناك كما سخط على الأساليب التى يتخذها الامريكيون فى حياتهم الخاصة ، وكان سخطه اشد على الناشرين هناك لأساليبهم الملتوية وحيلهم العجيبة لسرقة حقوق المؤلفين الانجليز

وفى الوقت نفسه نقم عليه الأمريكيون انتقاده الصريح اللاذع لاخلاقهم وعاداتهم ، وانكر عليه المتزمتون منهم ظهوره فى حفل رقص بمدينة بوسطن وهو يرتدى صديريا من القطيفة الخضراء الزاهية ، ورباط عنق قرمزى ، وسروالا احمر ضاربا الى الزرقة ، ويضع على صدره مجموعة من الأزهار المختلفة الالوان

ومهما يكن الامر ، فقد اتم رحلته فى امريكا وبلغ مدينة « سان لويس » فى اقصاها غربا ، وبعد أن عاد لانجلترا اخرج كتابا عن هذه الرحلة سماه « اللمحات الأمريكية » وضمنه كثيرا من الانتقادات اللاذعة للامريكيين . لكنه برغم ذلك لم يتردد فى الرحلة الى امريكا مرة ثانية بعد سنوات

وقد كان لمواطنيه الانجليز انفسهم نصيب كبير من انتقاداته ، فقد اخرج فى سنة ١٨٤٤ قصته « مارتن شوز لويت » وضمنها حملة شديدة على بعض العيوب المتأصلة فى الانجليز ، وفى مقدمتها الأثرة والنفاق . ولم تلق

ه القصة مثل الرواج الذى لقيتــه مؤلفــاته الســابقة ، لعنف الحملة الانتقادية التي تضمنتها ، واما لأن حوادثها ت تنطوى على كثير من التعقيد !

وضاقت به الحياة فى انجلترا بعد ذلك ، او ضاق هو بها ، قام برحلة فى اوربا مصطحبا اسرته ، وكان ذلك عقب نشر كتابه « اغنية عيد ميلاد » فى سنة ١٨٤٣ . فزار ايطاليا وفرنسا ، وانتج خلال ذلك كتبا وروايات عدة ، آخرها كتاب « دومبى وابنه » الذى نشره عقب عودته الى لندن ، فجدد ثقة الجمهور فيه واعجابه بأسلوبه الخاص !

مسرحيــاته

اتجه ديكنز بعد عودته من رحلته الأوربية الطويلة الى اتباع هوايته القديمة الأصيلة للمسرح ، فتوفر على اعداد مسرحية « بن جونسون » واشرف على اخراجها وعرضها واشترك فى تمثيلها مع نخبة من اصدقائه اختارهم لذلك . وبذل فى ذلك كله جهدا مضنيا حطم صحته ، ولا سيما بعد توالى عرض تلك التمثيلية فى العاصمة والريف

وفى سنة ١٨٥٠ تولى تحرير صحيفة « ديلى نيوز » وبذل رغم سوء صحته نشاطا كبيرا فى سبيل العمل بالشعار الذى اتخــذه لنفسه وهو « مكافحة الشر والعمل لخير الفقراء وسعادة المجموع » . على انه زهد فى عمله الجديد بعد بضعة اشهر فاعتزله وتفرغ لاصدار مجلة اسبوعية خاصــة به سماها «الكلمات المنزلية» واستمر فى اصدارها ثمانى سنين بنجاح كبير ، ثم اعاد تنظيمها سنة ١٨٥٩ واختار لها اسما جديدا هو « على مدار العام » . ولم يغفل خلال اصداره مجلته هذه فى عهديها الاول والثانى عن انتاج مؤلفاته الاخرى من الكتب والروايات ، فاخرج قصة دافيد كوبر فيلد » . ثم قصة « المنزل الموحش » . فقصة « اوقات عصيبة » . وكان فى هذه المؤلفات كلها يصور مختلف الوان الحياة التى

درسها وخبرها بنفسه منذ طفولته ، كما يصور مختل
الشخصيات التى عرفها وكان لها فى حياته أثر ملحوظ
فضلا عن تصوير حياته الخاصة وتحليل ما يختلج فى نف
من مشاعر واحاسيس

حيـاته الاخيرة

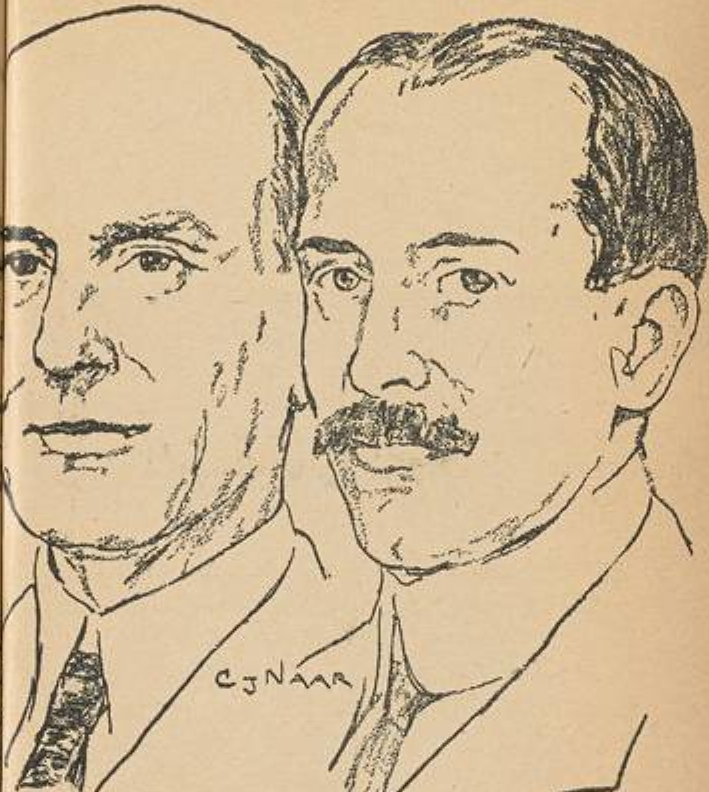
وفى سنة ١٨٥٨ ، تم الاتفاق بينه وبين زوجته على
يفترقا ، وذهب ابنهما الاكبر ليعيش مع والدته ، بينما عا
بقية الاولاد مع أبيهم وخالتهم جورجيتا ، ولم يمض قلي
حتى انتقلوا الى الاقامة معه بقصر « تل كاد » الذى اشتر
ليحقق حلمه القديم الذى طالما راوده فى طفولته البائسة حي
كان يسكن مع ابيه وامه كوخا متواضعا بالقرب من ذل
القصر التاريخى العظيم !

وبدا أول الأمر ان ديكنز اخلد الى حياته الجديدة فى هذ
القصر ، حيث أخـذ يكثر من اقامة الحفلات لأصـدقا
ومعارفه ، ولكنه ما لبث قليلا حتى عاوده حنينه القديم ال
التمثيل ، فقام بجولات فى أنحاء انجلترا واسكتلندا ، كا
خلالها يظهر على المسارح لقراءة فصول من رواياته ، فيلق
من الجمهور اشد الاقبال والاعجاب

وفى خلال هذه الجولات ، اخرج رواياته الاخيرة : « قص
مدينتين » و « الآمال العريضة » و « صديقنا المشترك »
ثم زار أمريكا للمرة الثانية سنة ١٨٦٧

وبعد عودته الى لندن فى سنة ١٨٧٠ بدأ تاليف روايته
فى تلك السنة بوعكة مفاجئة بعد ان قضى يومه عاكفا على
الكتابة فى ركنه المختار بحديقة قصر تل كاد ، واغمى عليه
وهو على المائدة ، فنقل الى فراشـه ، ودعى الأطباء الى
اسعافه وعلاجه . ولكنه بقى فى غيبوبة حتى أعلنت وفاته
فى اليوم التالى . فكان لنعيه صـدى اليم فى انجلترا وفى
مختلف انحاء أوروبا وامريكا

الشقيقان رايت



الشقيقان رايت

حققا لاول مرة معجزة الطيران الآلى .. ولكنهما قوبلا بالجحود ، فلم يث
ذلك من عزمهما وانصرفا الى تحسين الآلة الطائرة التى اخترعاها حتى ق
بها أكثر من ٢٤ ميلا »

عاملان حققا معجزة الطيران

فى خريف عام ١٩٠٣ ظهر مقال لعالم شهير يثبت اثباتا قاطعا انه يستحيل على البشر ان يحلقوا فى الجو . وكان البشر منذ قرون تراودهم الأحلام ان يقلدوا الطير فى طيرانه. وحاول كثير من اصحاب العقول الراجحة ان يحلوا هذه المشكلة ولكنهم لم يستطيعوا

وانه لمن اعجب الأمور الا تمضى اشهر ثلاثة بعد ظهور مقالة ذلك العالم حتى يتحقق الحلم الذى كان الناس يرونه مستحيلا . وكان الفضل فى تحقيق معجزة الطيران راجعا الى اثنين من صانعى الدراجات ، هما الشقيقان رايت

عائلة دينية

شهدت ولاية اوهيو مولد « ولبر واورفيل » رايت . وكان والدهما قسيسا يدعى «ملتن رايت» وامهما « سوزان كيرنر رايت » . وقد ولد ولبر فى السادس عشر من ابريل عام ١٨٦٧ فى مزرعة غرب ميلفيل ، واما شقيقه اورفيل فقد ولد فى التاسع عشر من اغسطس عام ١٨٧١ فى مدينة دايتون .. وكان ابوهما الطيب القلب احد رجال كنيسة الاخوان المتحدين ، مارس التعليم حينا فى كلية هارتسفيلد ، ثم قام فى عام ١٨٦٩ على تحرير جريدة دينية تنشرها هذه الهيئة الدينية فى دايتون . ثم اضطرت اسرة رايت الى الانتقال من موطنها وحلت فى مدينة سيدار رابيدز ، ثم فى ريتشمند وهناك كان مهد طفولة الشقيقين ولبر ، ، واورفيل ،

فقد نشأ هنـــاك فى رفقة اخويهما الكبيرين « ريشليا و « لورين » واختهما الصغرى « كاترين » . .

وفى شهر يونيـه من عام ١٨٨٤ عاد الأب ملت مع اسرته الى دايتون واستقروا مرة اخرى فى منزلهم الأ وكان لا يزيد على كوخ خشبى به غرف سبع. **وهناك وا ولبر دراسته** مستقلا بنفسه ، بعد ان انتهى من دراسته رتشموند ، وهناك كذلك استمر اورفيل فى دراسته الثانو

ولم تمض على هذه الاسرة الوادعة فى مسكنها المتوا الا بضع سـنوات حتى تفرق شملها بموت الأم العزي سوزان رايت،ثم ما هو الا قليل حتى تزوج لورين وريشلي ونزحا ليؤسس كل منهما لنفسه اسرة . ولكن عرى المو بين آل رايت زادت توثقا وتماسكا

ميكانيكية الحيوان

وكانت لهم فى الطابق الأسفل من المنزل مكتبة **وكان ولبر وارفيل** ، يعكفان فيها على الدرس ، اذ كانت تحوى ـ ف حوت كتاب التراجم لبلوتارخ وطائفة من القصص والأساط وكتاب جيبون عن انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطه ثم تواريخ فرنسـا وانجلترا . وقـد جذب انتباههم اكثر ما جذب كتاب **ماريه عن ميكانيكية الحيوان** . ثم الموضوعا العلمية فى دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف «شامب التى احتوتها المكتبة ايضـا . وكم من مرة قلب الصـبيا صفحات هذه الكتب منذ طفولتهم الاولى

وكان اورفيل رايت خلال سني مراهقتـه يهتم اهتما بالغا بالطباعة . فاعد لنفسه مطبعة صغيرة وكان يقوم باعما شتى فى الطباعة والنشر بمساعدة شقيقه ولبر

يشتغلان بتجارة الدراجات

وفى سنة ١٨٨٨ ، شرع « اورفيل » فى استغلال خبرته

الطباعة ، فاصدر مجلة اسبوعية صغيرة سماها « اخبار ... الغربى » واستاجر لها مكتبا خاصا ، ثم شجعه رواجها ... عامها الاول ، فحولها الى جريدة يومية باسم «خبر المساء» لكن هذه الطفرة ما لبثت ان قضت عليها بعد قليل !

... ومضت بعد ذلك سنوات ، امضاها الشقيقان فى انتاج ... المطبوعات ، ثم حولا نشاطهما المشترك الى تجارة ... الدراجات التي بلغ الاقبال عليها ذروته فى ذلك الحين ، ... «شركة رايت» لصنعها وبيعها فبدات اعمالها فى اواخر ... سنة ١٨٩٢ ، وانتقلت من نجاح الى نجاح سنة بعد أخرى . ... لم تمض ثلاث سنوات حتى كان لها مبنى فسيح خاص ، ... غمرت الاسواق بمئات من مختلف انواع الدراجات ، ومن ... بينها دراجة شعبية تحمل الشعار الخاص بالشركة، ولا يزيد ... ثمنها على ١٨ دولارا ، وهو يومئذ ثمن زهيد كفل لها ... الانتشار فى جميع الانحاء !

دراستهما للطيران

... لم يكتف الشقيقان : « ولبر » و « اورفيل » بنجاحهما ... الباهر فى « شركة رايت للدراجات . فانشآ فروعا لها لانتاج ... الاطارات والجرارات والالات الكاتبة والحاسبة وغيرها ، وقد ... لازمهما التوفيق والنجاح فى كل هذه الأعمال !

... على انهما كانا مولعين بدراسة الطيران ، وبدأ ذلك منذ ... حداثتهما حين اهدى اليهما والدهما لعبة هى نموذج صغير ... لطائرة ، صنعه فرنسى يدعى « بينو » من الخيزران والورق ... والفلين وخيوط من المطاط . وفى سنة ١٨٩٥ ، حدث ان ... اطلعا فى احدى المجلات على مقال عن « طيران الانزلاق » كتبه ... المانى يدعى «اوتو ليلنتال» . فكان له اكبر الأثر فى نفسيهما، ... وفى تغيير مجرى حياتهما ، اذ عاودهما الحنين الى هوايتهما ... المفضلة الاولى . ثم اشتد هذا الحنين حينما علما بعد قليل ... بمصرع « ليلنتال » المذكور اثناء تجربته طائرة صنعها بنفسه

محاولا الطيران بها . وسرعان ما قررا التفرغ لدراسة الط
وما طرا عليه من تحسينات

واتصل الشقيقان بالدكتور « لانجلى » مدير معه
« سمبثون » فى وشنطن ليدلهما على المراجع التى تفيدهم
دراساتهما وابحاثهما الجديدة ، فكتب اليهما فى يونيـة
سنة ١٨٩٩ يوصيهما بالاطلاع على كثير من الكتب والتقا

وعكف الشقيقان « رايت » على دراسة كل هذه المرا
وغيرها ، ومناقشة ما تضمنته من بيـانات وملاحظ
ومقترحات ، فتبين لهما ان مشكلة الطيران الكبرى تتمثل
ضرورة الوصول الى طريقة لحفظ توازن الطائرة فى الجو
ووجها كل عنايتهما واهتمامهما الى البحث والدرس واجر
مختلف التجارب لايجاد هذه الطريقة. وفيما كان «اورفيل
يقلب بين بديه صندوقا من الورق المقوى لاستخدامه فى بعض
التجارب ، لاحت له فجاة فكرة لايجاد الطريقة المنشودة
وما شرح هذه الفكرة لشقيقة « ولبر » حتى اقرها ، ثم شر
من فورهما فى تنفيذها ، فصنعا طائرة طولها خمس اقدام
ووصلا جناحيها بخيوط يمكن بها تحريكهما وتغيير وضعه
بما يتفق مع درجة الضغط الجوى ، كما زودا هذه الطائ
بذيل فى مؤخرها ليعاون على ارتفاعها . وقد كللت بالنجا
تجربة الطائرة الجديدة باطلاقها فى الجو خارج مدينة دايتو
وامكن حفظ توازنها بتحريك جناحيها بواسطة تلك الخيوط

اول تجربة للطيران

وفى سنة ١٩٠٠ ، اتصل « ولبر » بالمهندس « اوكتاف
شانوت » صاحب كتاب « تاريخ الطيران الآلى » وكان يعيش
فى شيكاغو حينذاك ، واجرى تجارب عدة فى طيران
الانزلاق . وكانت نتيجة هذا الاتصال ان وضع الشقيقان
تصميما لطائرة زلاقة جـديدة ، واختارا لتجربتهـا منطقة
« كيتى هوك » على ساحل كارولينا الشمالية ، مسترشدين

آراء « شانوت » فى هذا الشأن ، وبما انتهت اليه دراستهما لسرعة الرياح وتقلبات الجو . وهناك فى هذه البقعة النائية ، الخالية الا من محطتين للانقاذ والأرصاد الجوية وبضعة أكواخ متناثرة للصيادين ، بنى الشقيقان معسكرا متواضعا ، نقلا اليه كل ما يحتاجان اليه لصنع طائرتهما الجديدة ، وشرعا فى صنعها فى سبتمبر من تلك السنة ، فجعلا هيكلها إطارا كالأضلاع صنعاه من خشب الحور ، وغطياه بالتيل الفرنسى الأبيض ، وزوداها بجناحين طول كل منهما ١٧٫٥ قدما قابلين للتحرك طبقا لنظريتهما السابقة ، كما زوداها بدفة متصلة بمقدمها ، وجعلا لها زلاقات فى موضع المجلات تنزلق بها على رمال الشاطىء

واسفرت تجربة الطائرة عن نجاح طريقتهما المبتكرة لحفظ توازن الطائرة فى الجو . وفى صيف سنة ١٩٠١ عادا الى « كيتى هوك » ومعهما زلاقة جديدة طول كل من جناحيها ٢٢ قدما ، ووزنها ٩٨ رطلا ، وهى اكبر حجما من زلاقة السنة السابقة ومساحة الرفع بها أوسع . وزارهما « شانوت » مشجعا ، ونجحت تجاربهما فى هذا العام نجاحا عظيما كان الاول من نوعه فى طيران الانزلاق . وقد تبين لهما من هذه التجارب ان طريقتهما المبتكرة لحفظ التوازن يجب ان يؤيدها ذيل عمودى للطائرة ، كما تبين لهما وجوب اعادة النظر فيما اعتمدا عليه من نظرية أساطين العلماء المختصين فى تصميم الطائرة . وعلى هذا قاما باعداد جهاز هوائى بأعلى مبنى شركتهما ، هو صندوق خشبى مربع طول ضلعه قدم ونصف ، سلطا عليه من تحته مروحة آلية ، ثم امضيا الشهرين الاخيرين من تلك السنة فى اختبار ما يزيد على مائتين من الأجنحة المختلفة الاشكال والاحجام والأوزان للوقوف على حقيقة مدى تأثر اسطحها المنحنية بضغط الهواء . وكانت النتيجة ان كشفا عن اخطاء عدة فى التصميمات السابقة ، ووضعا بدلا منها بيانات دقيقة كل

الدقة ما زال العمل يجرى على اساسها حتى الآن !

وفى خلال السنتين التاليتين ، اجرى الشقيقان ما يزيد على الف تجربة فى طيران الانزلاق ، زادا خلالها جناح الطائرة عشر اقدام واضافا الى دفتها ذيلا عموديا للحقائق الجديدة التى انتهيا اليها .. ثم حولا هذا الذيل دفة متحركة وسجلا نموذجا جديدا على هذا الأساس فاصبح بذلك سر اتزان الطائرة حقا محفوظا لهما

□

بدا الشقيقان بعدئذ خطوة مهمة اخرى هى بناء طائرة تستطيع الارتفاع فوق الأرض والتحليق فى الجو ، و مسبك دايتون باعداد هذه الطائرة طبقا للتصميم الدقيق الذى اعداه بمساعدة « شارل تيلور » . وكانت زنتها حوالى مائتى رطل ، وقوتها نحو اثنى عشر حصانا ، و وفقا الى تزويدها بمروحة خاصة من ابتكارهما ، وبلغ عرض جناحيها اربعين قدما ، ولكل منها طرف متحرك ، ومجموع زنتها براكبها نحو ٧٥٠ رطلا .. ثم عادا الى « كيتى هوك » لتجربتها هناك، فتمت التجربة فى ١٤ من ديسمبر سنة ١٩٠٣ فتحركت الطائرة وفيها « ولبر » وجرت على خط حديدى أعد لذلك بأعلى تلال « كل ديفيل » ثم ارتفعت به فى الهواء وحلقت فترة قصيرة لم تزد على ثلاث ثوان ونصف ثانية ثم هبطت الى الأرض. وفى اليوم السابع عشر من ذلك الشهر اعيدت تجربتها ، وركبها فى هذه المرة الشقيق الثانى « اورفيل » فبقى بها فى الجو ١٢ ثانية ، برغم سرعة الريح حينذاك اذ كانت لاتقل عن ٢٧ ميلا فى الساعة. وفى التجربة الثالثة استمر تحليق الطائرة ٥٤ ثانية، وعند هبوطها اصيبت بصدع حال دون طيرانها حتى آخر ذلك العام

وهكذا حقق الشقيقان لاول مرة معجزة الطيران الآلى ،

ر حقيقة واقعة ، بعد ان ظل قرونا وهو لا يزيد على
راود خيال الانسانية !.. ولكن هذه المعجزة الخالدة
جد يومئذ ما تستحقه من الايمان والتنويه بها ، فلم
نها اكثر الناس ، واهملت الصحف شانها فيما عدا
يفة واحدة لم تسلم الانباء التي نشرتها عنها من التحريف!
اس لم يثبط ذلك الجحود من عزم الشقيقين العبقريين ،
ا بوقتهما على اضاعته في مجادلة المكذبين والساخرين ،
رفا الى تهذيب الآلة الطائرة التي اخترعاها وادخال
لف التحسينات على صنعها بحيث تصبح سهلة القيادة
سع نطاق الانتفاع بها . وما مضت سنة على ذلك حتى
طالت ابحاثهما وتجاربهما المتواصلة الى نصر باهر آخر ،
ستطاعا ان يحلقا بطائرتهما في الهواء خمس دقائق كاملات،
ي التحكم في اتجاهها . ورآها الناس وهي ترتفع في الجو من
براج العالية التي اعداها لذلك ، ولم يستطيعوا ان يكتموا
قهم واعجابهم حين شاهدوها تدور عدة دورات في الفضاء
هبط الى ميدان التجربة بسلام !
وفي السنة التالية ، ادخل الشقيقان على آلتهما تحسينات
ة اخرى ، شملت الدفة والمروحة والجناحين ، والآلة
بها .. وكان عجب النظارة واعجابهم اشد حينما حلقت
طائرة في هذه المرة اكثر من نصف ساعة ، وقطعت خلال
ك اكثر من ٢٤ ميلا ! .. ولم يسع الصحف بعد ذلك الا
دول عن سخريتها بالشقيقين المخترعين ، وكانت صحف
روبا ونواديها اكثر احتفالا وتكريما لهذا الاختراع الجديد
زيد ، ولكن لم تعره الصحف الامريكية اهتماما جديا الا بعد
هوره في امريكا نفسها بثلاث سنوات !

اول تجربة رسمية في امريكا

اجريت التجربة الرسمية الاولى لطائرة الشقيقين «رايت»
امريكا ، بمدينة « فورت مير » في ولاية فرجينيا ، وركب

الطائرة « اورفيل » على مشهد من الجموع الحاشد
حرصت على مشاهدة التجربة

وتوالت تجارب طيران الشقيقين ، لحساب ال
الأمريكى ، وكان الحد الأقصى لسرعة الطائرة ، طبقا للات
اربعين ميلا فى الساعة ، ولكنهما وفقا الى تسجيل زيادة
ذلك الحد ، مقدارها ثلاثة أميال !

وفى اكتوبر سنة ١٩٠٩ ، انشئت فى امريكا شركة لان
الطائرات جعلت مقرها فى نيويورك،واختارت لاقامة مص
مدينة « دايتون » حيث نشأ الشقيقان المخترعان

وفى الوقت نفسه بدات الدول الاخرى تزيد فى عن
بهذه الصناعة الجديدة ، فانشئت شركة مماثلة فى فر
والمانيا .. ثم فى غيرهما من البلاد !

جورج كارفر



جورج كارفر

زنجي خرج الى الحياة محروما من كل شيء . ولكنه استطاع بالرغم من ذل
أن يخلد اسمه في سجل العلماء العاملين الذين قدموا للبشرية أجل الخدما

الزنجى النابغ

كان مولده فى امريكا خلال الايام السوداء للحرب الاهلية
اجتاحتها فى منتصف القرن الماضى ، وكان هو نفسه
جيا أسود ، وبدا حظه يومئذ اشد سوادا من لونه ومن
روف التى ولد فيها . فقد خرج الى الحياة محروما
كل شىء .. حتى من اسم الأسرة التى ينتمي اليها ،
وه غير معروف ، وامه « مارى » جارية زنجية مملوكة
احب مزرعة صغيرة فى قرية « دياموند جريف » فى ولاية
يسورى » يدعى « موسى كارفر » .. وهكذا لم يكن
اك بد من الاكتفاء باختيار اسم « جورج » لكى يعرف به
من ضم اليهم من العبيد القليلين المملوكين لصاحب
رعة !

وقبل ان يجاوز مرحلة الطفولة ، وقع فى ايدى جماعة
تجار الرقيق المنتشرين فى تلك الأصقاع حينذاك، وكادوا
هبون به الى حيث يبيعونه فى مكان آخر ، ولكن صاحب
رعة وزوجته رق قلباهما له ، فانقذاه فى آخر لحظة من
ك المصير المجهول الرهيب .. ولم يكلفهما ذلك أكثر من
صان افتدياه به من النخاسين الذين اختطفوه !

ومنذ ذلك الحين ، صار الزنجي الطفل « جورج » موضع
ف خاص لدى سيديه ، وما كاد يشب عن الطوق ويبلغ
ن التى تؤهله للعمل فى المزرعة مساعدا لزملائه العبيد
بار، حتى ضن به سيداه الطيبان على العمل المرهق، واكتفيا
ن عهدا اليه فى اعمال يسيرة أخرى ، كالاشتراك فى اطعام

الدواجن ، وتنقية حديقة المنزل من الحشائش الطفيلي
وعرف زملاؤه موضعه عند صاحبى المزرعة ودالته علي
فتركوه وشانه ، يلهو ويلعب ويمرح فى الحديقة المجـ
للمزرعة . وعرف بينهم بهوايته المفضلة حينذاك ،
التجول فى الغابة ، والتامل فى اشجارها واعشابها وصخور
ثم العكوف بعد عودته على فحص ما جمعه من غرائب الحجر
والنبات ، واطلقوا عليه من اجل ذلك لقب « طبيب الغاب

ولم يمض قليل حتى اعلن سيداه انهما اعتقاه ، وبذ
تحققت حريته من الوجهة الرسمية . ثم استمرا فى اغد
عطفهما عليه ، وعاملاه كانه ولدهما ، واخذت السـ
« كارفر » فى تعليمه القراءة والكتابة ، مستعينة على ذ
بكتاب قديم فى الهجاء وجدته فى المنزل ، وكان اقباله شد
على التعلم ، فما لبث قليلا حتى وعى ذهنه كل ما فى ذ
الكتاب من دروس :

والح الزنجى الصبى فى ان يواصل الدرس ، وتردد سي
القديمان فى اول الامر ، اذ لم تكن هناك مدرسة يستط
الالتحاق بها الا مدرسة مدينة « نيوشو » وهى تبعد ام
من المزرعة ، ثم لم يسعهما ازاء الحاحه المستمر الا اجابة رغ
فسمحا له بالتوجه الى تلك المدينة كى يلتحق بمدرسته
وقد سافر اليها وحده ، وبات ليلة فى طريقه اليها ، مفتر
كومة من العشب . على انه سرعان ما نسى كل ما لقيه
تعب وعناء ، حينما وصل الى المدرسة فى اليوم التالى ، وق
له ان يقبل وهو الزنجى الاسود فى عداد تلاميذها البيض

▭

لم يكن لونه وحده ما اعترض طريق تعلمه ، فقد كان عل
ان يدبر امر معيشـــته فى خلال ذلك ، لكنه عرف بهمت
وطموحه وصبره الجميل كيف يذلل جميع العقبات

ففى سنة فى تلك المدرسة الصغيرة استوعب خلالها كل
كانت تمنحه لتلاميذها من الدروس ، ولم يحل دون
رازه هذا التقدم والتفوق على اقرانه البيض فيها ، انه كان
فى جانبا كبيرا من وقته فى العمل لكسب رزقه !

وكان فى اول الأمر يقوم بأعمال مضنية تافهة فى الوقت
بيه ، كالخدمة فى المنازل ومساعدة الطباخين والغسالين ،
بدا يختار لنفسه اعمالا تتفق ورغبته فى الاستزادة من
لم ، فكان يعمل فى مساعدة الخياطين والنساجين وصانعى
سجاد والقائمين بالتطريز والحفر ، ومن اليهم . وبذلك
ن كثيرا من الصناعات الفنية ، بجانب الحصول على نفقات
استه الاخرى ومعيشته

وبقى هذا شانه فى البلاد الكثيرة التى رحل اليها وعاش
با ملتحقا بمدارسها الابتدائية والثانوية، الى ان تركز عمله
يرا فى انشاء مغسل خاص به فى البلد الذى يقيم به .
ستطاع بحسن سياسته واتقانه عمله ان يجتذب الى
سله كثيرين من العملاء ، مما زاد فى دخله ، وجعل فى
ستطاعته ان يعيش فى سعة من الرزق ، اذا هو اتخذ من
ذا العمل حرفة له

غير ان همته العالية ابت عليه أن يقف عند هذا الحد ،
نس من نفسه استعدادا للدراسة العليا ، فأرسل الى
جامعة هايلاند » طالبا الالتحاق بها ، ولم يتردد لحظة فى
ع مغسله ليحصل على اجر السفر اليها حين جاءه الرد
بول طلبه !

وهناك فى مكتب المسجل بهذه الجامعة ، فوجىء الطالب
زنجي بانهيار كل ما شاده من صروح الآمال ، اذ تبين أن
جامعة قبلت طلبه من غير ان تفطن الى انه زنجى ، فى حين
ها لا تقبل فى كلياتها غير الطلبة البيض !

وكانت هذه الصدمة القاسية جديرة بأن تبعث اليأس الى
ب الطالب الزنجى الشاب ، ولكنه لم يكن يعرف اليأس ،

فتلقى الصدمة بروح قوية عالية ، بل حرص على
مسجل الجامعة من مازقه الحرج ، فسحب طلب التحقية
المقبول بها ، ثم انصرف بعد أن حياه مبتسما شاكرا
انه لم يكن يملك حتى قوت يومه ، اذ انفق كل ما حصل
من بيع مغسله فى اجر سفره على امل الالتحاق بالجامعة

وفى السنة التالية ، سنة ١٨٩٠ اتيح للطالب الز
الشاب ان يحقق امنيته الكبرى ، فقبل طلب التحاقه بجامعة
« سمبسون » الحرة فى ولاية « ايووا » . ولم يقف تو
عند حد قبوله بها برغم زنجيته واضطراب دراسته السابقة
بل شفع له ذكاؤه وحرصه الشديد على التعلم ، فسجل
اسمه فى كلية الآداب ، وسمح له فى الوقت نفسه بان يدرس
البرامج التى تتفق مع ميوله ومؤهلاته فى كلية العلوم !

وفى قسم الفنون بكلية الآداب ، وجد جورج كارفر
صادقة كبيرة من الآنسة اتابد Etta Budd رئيسة القسم
فامضى السنوات الثلاث التى لبثها بالجامعة ملازما حلقة
دروسها الفنية ، حيث اهله استعداده للتقدم يوما بعد
فى ميدان الفن . واستطاع فى سنة ١٨٩٣ عرض مجموعة
لوحاته فى معرض شيكاغو الدولى فكانت محل التقدير
والتكريم !

وكتب جورج كارفر الى بعض خلصائه من اهل قريته
واصفا شعوره بالغبطة والفخر لهذا النجاح الذى احرزه
كما اثنى على استاذته الآنسة اتابد اجمل الثناء ، وقال
ايامه الاولى بالجامعة : « انها كانت مليئة بالتعب والشقاء
وقد كدت أهلك جوعا لعدم الاقبال على المغسل الذى انشأته
لأعيش منه ، اذ انصرف عنى الناس لغير سبب سوى لونى
الأسود ، ولكنى لم اياس ، ومضيت فى سبيلى صابرا
حتى تبدلت الحال ، فاقبل العملاء على مغسلى ، وصار
الجميع يلقوننى بالبشر والترحاب فى الجامعة ونادى الموسيقى
وملاعب الكرة وغيرها من المنتديات العامة »

... رسالته الآنسة اتابد عما يعتزم عمله بعد ان أتم دراسته
... الفنية ، فلم يجد اول الأمر ما يجيب به عن هذا السؤال ،
... ما لبث قليلا حتى وجد الجواب ، وعجب من نفسه كيف
... عنه فى حين انه كان يفكر فيه ليل نهار .. ولم يكن
العمل الذى اعتزم القيام به بعد اتمامه دراساته الفنية
... دراسة العلوم الزراعية والميكانيكية ، لكى يستطيع ان
يقدم خدمات نافعة لقومه السود !

... وهكذا التحق جورج كارفر بكلية الزراعة فى جامعة ايووا ،
... كان من حسن طالعه ان توثقت صلاته فيها بالاستاذ
... جيمس ولسن مدير المحطة الزراعية، والاستاذ هنرى كانتول
... والاس ، استاذ الزراعة بالكلية ، فلقى منهما كل عون
وتشجيع وتقدير ، وبقيت صلته الوثيقة بهما اكثر من ثلاثين
عاما بعد تخرجه فى الكلية وتعيينه مدرسا بها سنة ١٨٩٤

☐

لبث جورج كارفر حوالى سنتين مدرسا فى الكلية التى
تخرج منها ، وقد كان خلالهما موضع الثناء المستطاب من
ادارة الجامعة واساتذتها وطلبتها ، لما لمسوه جميعا من
اخلاصه فى عمله ، وحسن معاملته لهم . وفى خلال السنة
الثانية تحققت امنيته الكبرى اذ كتب اليه معهد توسكيجى
Tuskegee يعرض عليه رياسة قسم الزراعة الذى انشىء
فيه . فقبل هذا العرض فورا .. وكان هذا المعهد قد انشىء
حديثا ليكون مركزا لتدريب الشبان المثقفين الزنوج واعدادهم
لتعليم ابناء جلدتهم وتثقيفهم

ولو ان رجلا آخر غير كارفر عين رئيسا لذلك القسم ، لما
رضى ولما استطاع البقاء فيه شهرا واحدا ، ذلك لأن مجموع
الطلاب الذين تيسر الحاقهم بالقسم المذكور لم يكن يزيد على
ثلاثة عشر طالبا ، لا يجمع بينهم سوى اللون والرغبة فى

الدراسة . وهم بعد ذلك مختلفون كل الاختلاف من
الاستعداد !

ولكنه كان فيما بينه وبين نفسه قد اقتنع بانه
قدمه فى اول الطريق الصحيح الى الغاية التى وهب
للعمل على بلوغها . ولم يكن غير الموت شىء يستطيع أن
عن المضى قدما فى هذا الطريق

وسرعان ما اعد كارفر برنامجا مرنا للدراسة يلائم
القسم جميعا ، ولم تقف ضآلة الميزانية حائلا بينه
تزويد القسم بعمل بديع مفيد ، فلم تمض اسابيع
انشأ هذا المعمل ، مستعينا بما وجده من الأشياء المهملة
مخازن المعهد والمناطق المجاورة له من قطع السلك والحبا
والواح الصفيح ، والزجاجات القديمة المكسورة والجر
المهملة وما اليها ، ومجموعات من الحشرات المنتشرة فى
الأصقاع

وكان يعامل تلاميذه كانهم اخوته الصغار ، فيشعر
واحد منهم بانه يختصه بكل رعايته وعطفه ، ولا يدخر جه
فى سبيل تدريبهم على تطبيق ما يزودهم به من علم غزير
أو فى سبيل الترفيه عنهم لتجديد نشاطهم وتحبيب العمل
اليهم . وبذلك كله اخذ عدد الطلاب فى القسم يزداد ع
بعد عام ، كما اخذ المعمل فى الوقت نفسه ينتقل من حس
الى احسن ، بفضل جهوده المتواصلة ليل نهار !

□

وبعد سنوات ، راى كارفر ان عمله فى المعهد وحده
لا يكفى لبلوغ الغاية التى ينشدها ، فاخذ يطوف من حين الى
حين بمناطق الجنوب ، حيث يحضر اجتماعات الفلاحين
قراهم النائية واسواقهم وحقولهم ، وهناك يتبسط معه
فى الحديث ، ويزودهم بارشاداته ونصائحه الزراعية المفيدة

ن دعوهم الى زيارة مركز الابحاث الزراعية الذى انشأه فى
المعهد ، لكى يقفوا على مزيد من المعلومات النافعة لهم
وفى هذه الرحلات والزيارات المتعددة ، اخذ كارفر يدعو
الفلاحين الى زراعة محصولات اخرى كالبطاطا والفول بدلا
من الاكتفاء بزراعة القطن ، مؤكدا لهم ان تعدد المحصولات
المزروعة مما يعود عليهم بفائدة اكبر ، وانه فى الوقت ذاته
ضرورى لضمان التربة وجودتها وقدرتها على الانتاج
وكانت دعايته هذه لا تجـد قبولا من الفلاحين الذين
يستمعون اليهـا ، لخروجهـا على ما الفوه ، ولخشيتهم
عواقب الاقدام على التجديد . ثم شاء القدر ان استجاب
له بعضهم ، فزرعوا مساحات صغيرة من ارضهم فولا بدلا
من القطن ، فكان ربحهم من ذلك كبيرا .. وشجعهم هـذا
كما شجع غيرهم فزادت المساحة المزروعة فولا فى السـنة
التالية الى حد كبير ، بحيث ضاقت الأسواق عن تصريف
محصوله الكثير ، وضـاعت بذلك جهود زارعيـه واصيبوا
بخسارة فادحة بدلت اعجابهم بكارفر سخطا ونقمة عليه !
وفى سنة ١٩٢١ الفت فى وشنطن لجنة لبحث الوسائل
الكفيلة بحماية المحصولات الزراعيـة ، ودعى كارفر الى
اجتماعاتها ، حيث قوبل بفتور ، ولم يخف اكثر الأعضاء
سخريتهم من الزنجى الكهل الطويل الذى دخل عليهم مثقلا
بأحمال من الحقائب والغرارات ، وحينما طلب الكلام ليدلل
على صحة الفكرة التى يدعو اليها،لم يسمح له باكثر من عشر
دقائق ، حتى لا يضيع وقت اعضاء اللجنة الثمين
ولم يزد كارفر على ان ابتسم شاكرا للجنـة ، ثم فتح
حقائبه وغراراته ، واخذ يخرج منها نماذج عدة مختلفة
مما استخرجه فى معمل المعهد من مشتقات الفول والبطاطا .
وقد بلغ عددها ١٤٥ بين دقيق وقهوة ولبن وجبن وطلاء
للوجه ومخللات ودهان للشعر ، وحبر ، وطلاء للبيوت ،
وغيرها

وهكذا اضطر اعضاء اللجنة الى الاصغاء بكل جوار
الى الشرح الذى القاه عليهم العالم الزنجى الكهل الطوي
عن كل مستخرج من هذه المشتقات . وامتد حديثه لا ع
دقائق كما قرروا اول الامر ، بل حوالى ساعتين !

ولم تعد المشكلة بعد ذلك مشكلة ايجاد اسواق للمحصو
الجديدة التى اشار كارفر بزراعتها الى جوار القط
بل صارت منذ تلك الساعة هى مشكلة العمل على مضا
تلك المحصولات للانتفاع بتلك المشتقات !

واستطاع كارفر بعد ذلك ان يكتشف فى معمله كثيرا
الخواص والمنافع التى كانت مجهولة للمحصولات الزرا
المختلفة ، فاستخرج من القطن كتلا للرصف ، ومن قش
البنجر والاعشاب ادوية كثيرة نافعة ، كما استخرج المط
من القمامة ، ومن التربة الطينية فى ولاية الباما صنوفا
الاصباغ ومواد التلوين التى كان لها اكبر الاثر فى قيام مصا
كبيرة للطلاء ، جمعت ثروة طائلة بفضل ذلك الكشف العظ

☐

استمر كارفر خمسين سنة ، يواصل جهوده العلمي
المثمرة التى عادت على امريكا كلها باكبر الفوائد الزراعيـ
والصناعية

وفى سنة ١٩٤٣ توفى جورج كارفر ، بعد ان خلد اسم
فى سجل العلماء العاملين الذين قدموا للبشرية اجل الخدمات
وهناك فى رحاب معهد توسكيجى الذى قضى حياته عاملا في
يقوم متحف صغير يحمل اسمه العظيم ، ويضم مثا
المنتجات النافعة التى اكتشف استخراجها من مواد مهمل
تافهة ، كما يضم امثلة للصناعات اليدوية الدقيقة التى كا
مولعا بها . وفى ناحية من المتحف عرضت لوحاته الفنية التى
ابدعها وصور فيها احلامه وامانيه لخير بلاده وخير البشري
جمعاء . وقد شاء القدر فتحققت فى حياته اكثر تلك الاحلام

ابراهام لنكولن



ابراهام لنكولن

الفلاح الذى امتحنته الاقدار ـ وهو ما يزال فى صباه ـ بالوان مختلفة من الشقاء والحرمان ولكنه استطاع ان يشق طريقه بين الاشواك وان يصبح رئيسا للولايات المتحدة

الفلاح الذى رأس الولايات المتحدة !

فى سنة ١٨١٦ م ، وصلت الى محلة « جنتز فيل » فى اقليم « انديانا » شمال غربى امريكا ـ اسرة صغيرة مؤلفة من اربعة افراد ، هم : « توماس لنكولن » عميدها الفلاح الامى الاجير ، وزوجته الضعيفة البنية الشاحبة الوجه « نانسى هانكس » وابنهما « ابراهام » الذى لم يجاوز السابعة من عمره،وابنتهما «سارة» التى تصغره بسنتين او ثلاث سنوات
وكان واضحا ان هذه الأسرة المهاجرة من اقليم «كونتكى» البعيدة تعانى بجانب فقرها المدقع اثقالا اخرى من الجهد والقلق والاعياء ، فقد طال سفرها فى القفر الموحش المترامى المخيف الذى قطعته ، ولم يكن لها من طعام خلال ذلك السفر الطويل الشاق سوى ما يوفق عميدها الى صيده من طير او حيوان !.. على انها برغم ذلك كان عليها ان تواجه الوانا اخرى من التعب والعناء ، قبل ان تستقر فى كوخها الجديد ، الذى اقامته لنفسها ، فى اليوم الاول لوصولها ، من جذوع الاشجار وفروعها ، متخذة من ورقها الجاف فراشا ، ومن بقايا الجذوع والغصون وسائد ومقاعد ومناضد !.. ثم بدأ عميد الأسرة منذ اليوم التالى جهاده الجديد فى الزراعة وما اليها ، ليكفل لها القوت .. والاستقرار المنشود فى الموطن الجديد !

والدته تعلمه القراءة والكتابة

وهناك فى جانب من الكوخ البدائى البسيط ، وضع الوالدان كيسا من التبن لينام فوقه ابنهما الحبيب «ابراهام»

او « آب » كما كانا يدعوانه من قبيل التدليل . ولم يكن في طاقتهما ان يزوداه عدا ذلك بغير الضروري من الغذاء ، اما الغطاء والكساء والحذاء وما اليها ، فكان حسبه منها سراويل من جلد الغزال ، لا تفارق بدنه ليل نهار .

واما تزويده بالتعليم ، فلم يكن هناك مكتب يمكن ارساله اليه كالمكتب الاولى المجاني الذى امضى فيه شهرين فى « كونتكي » قبل ان تغادرها الاسرة ، ولكن امه كانت تعرف القراءة والكتابة ، فعز عليها ان يشب اميا كابيه ، واخذت على عاتقها ان تعلمه فى اوقات فراغها بقدر ما تستطيع !

ولم يكن لدى الأم اى كتاب غير نسخة قديمة من الانجيل فاستعانت بها على اداء تلك المهمة ، وكان لذكاء «آب» ورغبته القوية فى التعلم ، فضلا عن فرط تعلقه بوالدته ، اكبر الأثر فى تيسير مهمتها ، فسرعان ما اتقن القراءة والكتابة ، ثم اخذ فى حفظ ما تيسر من الانجيل عن ظهر قلب، فما مضت سنتان وأوشك ان يتم العاشرة حتى كان قد حفظ الكثير من آياته، ووعى معانيها واهدافها، واصبح لهذا مرموقا بالاعجاب والتقدير من والديه وجميع عارفيه !

عامل فى مزرعة

ابت الاقدار الا ان تمتحن الصبى الصغير الفقير ، بلون جديد من الشقاء والحرمان ، فما اتم العاشرة من عمره حتى فجع بوفاة والدته الحبيبة الحنون

ومنذ الشهور التالية ، بدا «آب» جهاده فى سبيل العيش، عاملا فى المزارع المجاورة لكوخ الاسرة ، لقاء اجر زهيد ، ولكن شغفه بالقراءة لم يزايله ، واتيح له ان استعار كتاب « طواف الحاج » للمؤلف الانجليزى « بانيان » فقراه مثنى وثلاث ورباع حتى علق بذاكرته اكثر ما فيه ، ثم استعار كتبا اخرى وقراها على هذا النحو ، وفى مقدمتها « خرافات ايسوب» . و « روبنسون كروزو »

ووقع فى اثناء ذلك حادث كان له اكبر الأثر فى تشجيع الصبى على الاستزادة من العلم والمعرفة ، فقد تزوج والده ، وجاءت الزوجة الجديدة الى الكوخ ، ومعها اطفالها الثلاثة من زوجها الاول ، وقطع مختلفة من الأثاث ، وشيء غير قليل من الفراش والأدوات المنزلية . وهكذا اتيح له ـ لأول مرة فى حياته ـ ان ينام فى فراش مريح . ووجد من عطف ربة الكوخ الجديد عليه وعلى شقيقته ما الهج لسانه بالثناء عليها والتحدث بفضلها حتى آخر حياته !

نبوءة عجيبة

ووقعت فى يده بعد ذلك نسخة من كتاب «حياة وشنطن» زعيم الثورة الأمريكية ، فاستأثرت باعجابه قصة تلك الثورة وما قام به ذلك الزعيم العظيم من اعمال خالدة، وبدات الأمانى الكبار والأحلام الذهبية بالمستقبل المجيد تثير خياله ، وتملك عليه تفكيره . وحدث يوما ان عنفته جارة للأسرة على اثر مشاجرة بينه وبين ولدها ، فقالت له ساخرة :

ـ ماذا تظن أن ستكون فى المستقبل ؟

فما كان جوابه الا ان قال لها على الفور : « اظن انى ساكون رئيسا للولايات المتحدة ! »

وقد اكسبته اعماله اليدوية قوة بدنية كبيرة ، ولكنه لم يكتف بذلك فكان يخصص جانبا من اوقات فراغه القليلة لممارسة الألعاب الرياضية ، حتى صار من البارعين المعدودين فى القفز والمصارعة وغيرهما !

دراسته للقانون

وحينما بلغ الثامنة عشرة من عمره سنة ١٨٢٧ ، وجد لنفسه عملا آخر ، بدا له فى اول الامر اسهل واحسن، وكان هذا العمل الجديد هو القيام بمهمة البيع فى متجر بالقرب من القرية ، ولكنه ما لبث قليلا حتى ضاق به فتركه غير آسف

عليه . على أن الفترة التي امضاها فى ذلك العمل افادته من جهة أخرى ، اذ قرأ خلالها كتاب « القوانين المعدلة لولاية انديانا» فاتجه منذ ذلك الحين الى دراسة القانون، وحرص في الأشهر التالية على قضاء الأيام التي يخلو فيها من العمل في التوجه الى المحكمة التي كانت تعقد على مسافة خمسة عشر ميلا من القرية . فكان يقضى هناك اكثر النهار فى تتبع القضايا المعروضة، والاستماع لما يدور فيها من المرافعات والمناقشات.

ومن طريف ما يذكر ، انه استمع هناك يوما لمرافعة بليغة من المحامى « جون بريكنردج » فاعجب باسلوبه ، وما كاد الحكم يصدر ببراءة موكله المتهم بالقتل ، حتى اندفع من بين جموع النظارة ومد اليه يده يريد مصافحته وتهنئته ، ولكن ذلك المحامي المشهور لم يلتفت اليه ، وانصرف غير عابىء بالفتي الريفى الفقير المتحمس له !

وفى السنة التالية ، اتيح للفتى وقد بلغ التاسعة عشرة من عمره ان يغادر قريته لأول مرة الى مدينة « اورليان » اذ استأجره صاحب سفينة ذاهبة اليها لحراسة ما بها من بضاعة ، فى مقابل دولارين فى الاسبوع عدا الطعام . وقد كان لهذه الرحلة أعمق الأثر فى نفس « ابراهام لنكولن » الفلاح الأجير الفقير الطموح ، ففى خلالها وقف بنفسه على ألوان الحياة التى يحياها كبراء المدن واثرياؤها ، وشاهد للمرة الاولى اسواق الرقيق حيث يساق بعض الناس فى السلاسل والأغلال ، وينتقلون بالبيع والشراء من سيد الى سيد ، يفعل بهم ما يشاء، دون ان يكون لهم اى حق فى الرفض او المعارضة. وهكذا نبتت فى ذهنه فكرته السامية الخالدة التى وقف حياته على الدعاية لها وتنفيذها .. فكرة تحرير العبيد .

عودته اجيرا بالمزارع والمتاجر

لم تطل بعدئذ اقامة اسرة لنكولن بمحلة « جنتزفيل » اكثر من سنتين ، فقد رأى « ابراهام » ان ينتقل بالاسرة

ته ولاية « الينوى » . وحملتهم جميعا الى هناك عربة ريفية
لوة يجرها اربعة ثيران ! قضت اياما وليالى فى سفر شاق
رعيب !
ولما حطت الاسرة رحالها فى موطنها الجديد حتى اخذ
« ابراهام » فى اقامة كوخ لها من جذوع الشجر ، ومن هذه
الجذوع نفسها اقام سياجا حول قطعة من الارض البكر ،
شابدا يستصلحها للزراعة ، ويلقن اخوته من ابيه خير
الوسائل لبلوغ هذه الغاية . ولما اطمان الى قيامهم بزراعة الارض
استأنف العمل أجيرا فى المزارع المجاورة ، مخصصا الجانب
الاكبر من اجره لمساعدة الاسرة ، بل كثيرا ما كان يختصها
بكل ما يحصل عليه من اجر عمله اليومى العادى ، ثم يقوم
باعمال اضافية مجهدة لكى يحصل على ما ينفقه فى شئونه
الخاصة كشراء الملابس والكتب وما اليها . وقد اضطر لكى
يحصل على سراويل جديدة فى تلك الايام الى ان يقوم فى
اوقات فراغه بقطع ما يزيد على الف غصن من اغصان
الاشجار !
وعلى هذا النحو، قضى اكثر من عام ، ثم اتفق معه صاحب
المطحن بالمنطقة على ان يتولى انشاء سفينة نقل لحسابه ،
وعلى الاشراف على أول رحلة لها الى مدينة « اورليان » . فقام
« ابراهام » بهاتين المهمتين خير قيام ، وبلغ من اعجاب
صاحب المطحن بخبرته ونشاطه وامانته ان عينه مديرا لمتجر
يملكه فى « نيو سالم »

زواجه واشتغاله بالمحاماة

فى ذلك الحين ، كانت ثورة الهنود الحمر قد بلغت اشدها
بزعامة « الصقر الأسود » رئيس قبائل « الساكس » .
ولم يجد حاكم الولاية بدا من اعلان الحرب على اولئك الثائرين
وفتح باب التطوع للاشتراك فيها . فأجمع المتطوعون من
اهل « نيو سالم » على اختيار « ابراهام » قائدا وزعيما

ومرشدا لهم . وكان هو عند حسن الظن به من اولئك المو
المتطوعين ، فقاد كتيبتهم من نصر الى نصر ، وكانت خ
الحكيمة موضع تقدير الجميع . فلما انتهت الحملة وع
لبلدتهم ، ثم بدات الانتخابات العامة للمجلس التشريع
ابوا الا ان يرشحوه لعضوية المجلس ، وكان عدد النا
منهم ٢٨٠ فانتخبه من بينهم ٢٧٧

وكان رئيس المساحة بالمنطقة فى حاجة الى مسـو
فعرض هذه الوظيفة على « ابراهام » واعطاه كتابا فى المسـ
ليدرسه ، فحفظه عن ظهر قلب فى ستة اسابيع !

على انه كان قد وطد عزمه على الاشتغال بالمحاماة، فعكف
على دراسة كل ما تصل اليه يده من كتب القوانين، واتفق
ذلك الحين ان انقطعت اخبار خطيب الآنسة « آن » ابنة
المستر « رتلج » صديقه الذى اسكنه بمنزله ، وكان
الخطيب قد سافر الى « نيويورك » لقضاء مصلحة له
بعد ان حدد موعد الزفاف ، ثم ارسل من هناك خطابين
ضمن احدهما نبا مرض ابيه ، ونعاه فى الخطاب الثانى
ثم لم يعد احد يعرف عنه شيئا بعد ذلك ، الى ان فات مو
الزفاف . وقد شعر « ابراهام » بالعطف على الفتاة الحسـ
ابنة صديقه ، وما لبث هذا العطف ان تحول الى حب قوى
جعله يطلب يدها لنفسه ، فرحب والدها بذلك . ولم ت
« آن » اقل رغبة فى قبول الخطيب الجديد ، ولكنها تمنعت
اول الامر محتجة بأن خطيبها الاول قد يعود فجاة بعد قليل
فلما انقضى عام على انقطاع اخباره ، لم تجد بدا من اعلا
موافقتها على الزواج بابراهام ، ثم كانت له نعم الخطيبة
الوفية الملهمة. وسرعان ما اتم دراسة القانون واستوعب
المؤلفات فيه ، ثم اسعده الحظ فى الانتخابات النيابية التالية
فانتخب عضوا فى المجلس التشريعى عن الولاية

مكافحته لتجارة الرقيق

شهدت سنة ١٨٤٦ نصرا جديدا لابراهام لنكولن المحامى الكبير ، فقد فاز فى انتخابات « الكونجرس » فوزا منقطع النظير ، وطارت شهرته فى السنين الأربع التاليات بوصفه نائبا جريئا عقد له لواء الزعامة فى معارضة اعلان الحرب على المكسيك ، وفى مكافحة تجارة الرقيق

ولكن جهاده وانتصاره فى سبيل تحرير العبيد لم يلق ما يستحقه من النجاح الكامل المنشــود ، فانتهى الأمر فى سنة ١٨٥٠ بموافقة المجلس على تسوية غير كاملة ، وذلك بالغاء الرق فى كاليفورنيا وكولومبيا ، مع ابقاء الحق لصاحب العبد الآبق فى اعتقاله واعادته للرق والعبودية عنده حتى اذا كان فى ولاية تحرم تجارة الرقيق !

انتخابه رئيسا للولايات

وفى مايو سنة ١٨٦٠ دعى الى مؤتمر الحزب الجمهورى فى « سبرنجفيلد » وكانت الحماسة فى استقباله بحيث لم يستطع بلوغ المنصة الا بشق النفس ، ثم لم تمض على ذلك عشرة ايام حتى اعلن فوزه فى ترشيحات المؤتمر الوطنى بشيكاغو ضد « وليام سيوارد » ممثل نيويورك فى ذلك الحين . وترقب الجميع نتيجة المعركة القادمة لانتخابات رياسة الجمهورية بين « لنكولن » و « دوجلاس » بصبر نافد ، وما اعلن فوز « لنكولن » على خصمه العتيد حتى عمت البلاد موجة من الاضطرابات انتهت باعلان العصيان فى الولايات الجنوبية

وقد حرص « لنكولن » عند رحيله من « سبرنجفيلد » الى « وشنطن » على ابقاء اسمه على لوحة مكتب المحاماة . وكان اشد ما يكربه ان الخزانة العامة خاوية ، وان الحرب الأهلية توشك ان تشب بسبب تمرد الولايات الجنوبية ، فاعلن فى خطبة افتتاح المجلس النيابى ان الحكومة لن تهاجم

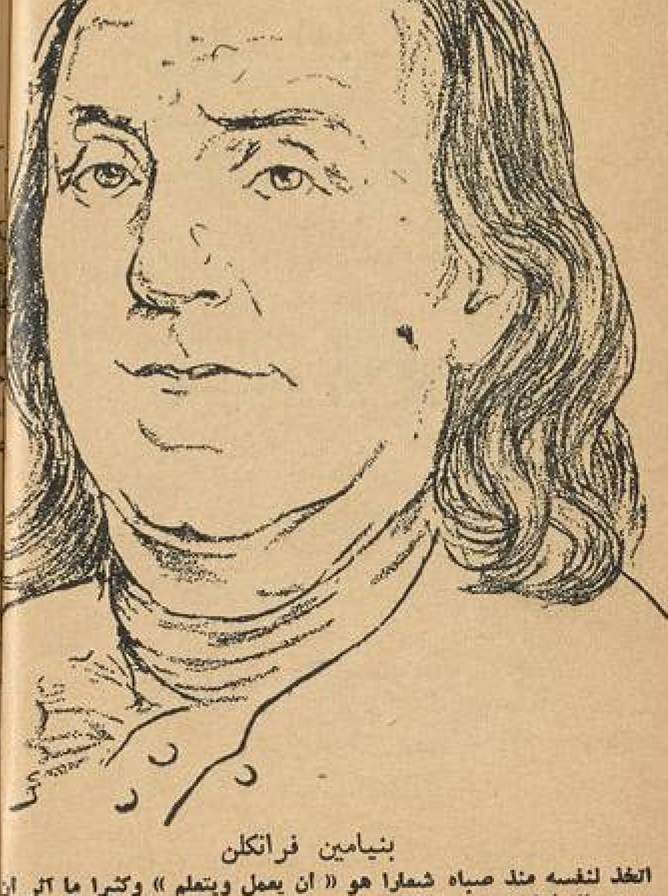
المتمردين فى الجنوب الا اذا بداوا مهاجمتها ، ثم اخذ ي
الدعوة الى الاتحاد . ولكن الولايات الجنوبية لم تلبث
هاجمت قلعة « فورت سومتر » فى ابريل سنة ١٨٦١ ف
القتال بين الفريقين من ذلك الحين ، وبقى الصراع يشتد
وتزداد الخسـائر ، فى الارواح والاموال . وكانت انج
تساعد الجنوبيين ضد الحكومة فى الشمال حرصا منها ع
مصالحها الخاصة عندهم . وكان « ويلى » ابن الرئي
لنكولن احد الضحايا العديدين فى تلك الحرب الضروس
فكانت فجيعته فيـه عظيمة ، لكنه بقى بعدها يعلن عط
الشديد على المقاتلين جميعا من الشماليين والجنوبيين ع
السواء ، لان هؤلاء وهؤلاء مواطنوه !

وفى سبتمبر سنة ١٨٦٢ ، اصدر « لنكولن » بيانه الخ
الذى ضمنه قرار تحرير اربعة ملايين من الرقيق ، وما اق
العام التالى حتى اشتد اوار القتال بين الفريقين ، ووق
« لنكولن » يخطب الناس قائلا : « ان هذه الأمة ستشـ
مولدا جديدا لحريتها ، وستكون حكومتها حكومة الشعب
وستبقى خالدة أبد الدهر »

وفى العام التالى،احرزت جيوش الشمال انتصارات كبير
واعيد انتخاب « لنكولن » رئيسا للجمهورية ، فاعلن فى خط
افتتاح البرلمان ان الحرب الأهلية يجب ان تنتهى عاجلا
لكى تبدا البلاد عهدا جديدا سعيدا من السلام والعدل والر
وحسن العلاقات بالشعوب الاخرى

وفى التاسع من ابريل سنة ١٨٦٥ تحققت آمال لنكول
العظيم ، فانتهت تلك الحرب ، وعادت الى الأمة الأمريك
وحدتها ، وزالت معرة الرق عن جبينها

بنیامین فرانکلین



بنيامين فرانكلن

اتخذ لنفسه منذ صباه شعارا هو « ان يعمل ويتعلم » وكثيرا ما آثر ان يبيت طاويا ليشترى كتابا جديدا يقرؤه بدلا من طعام العشاء

الناشر العبقرى

ولد فى ٢٧ يناير سنة ١٧٠٦ بمدينـة « بوسطن » . كان الابن الخامس عشر من سبعة عشر ولدا رزق بهم أبوه يوشيا فرانكلين » العامل فى صناعة الشمع والصابون ، كان طبيعيا حين بلغ العـاشرة من عمره أن اكتفى والده تعليمه القراءة والكتابة والحقه بأحد المصانع ليتدرب فيه عمل يعيش منه . ولكن الصبى بنيامين كان أكثرطموحا أملا فى المستقبل فلم يرض لنفسـه أن يكون نجارا أو حدادا أو بناء أو صانع أحذية كما أراد له والده ، واقترحت يه اعداده ليكون قسيسا ، فرضى بذلك حينا ، ثم عزف ن دراسة الدين

عامل فى مطبعة

وحاول ابوه أن يدربه على العمل معه فى صنع الشمع ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح ايضا ، وسرعان ما شعر الوالد أن ابنه الصغير يحاول الهرب من المنزل كما صنع اخوته من قبل ، فأعفاه من العمل معه ، وأجابه الى رغبته فى تعلم فن الطباعة .وكان ابنه الاكبر « جيمس » قد سبق الى تعلم هذا الفن الجديد وانشأ لنفسه مطبعة صغيرة ، فالحقه بالعمل فيها ، وتعهد «جيمس» بأن يجعل من أخيه طابعا ممتازا فى خلال تسع سنين !

وكان هذا العمل الجديد شاقا مضنيا للصبى الصغير ، وزاد فى مشقته أن « جيمس » كان حاد الطبع ، شـديد

الوطأة ، لا يكتفى بتدريبه على صف الحروف وادارة
الطباعة ، وتفهيمه دقائق الصناعة وأسرارها ، بل يكلفه
فوق ذلك كله كثيرا من الاعمال المرهقة داخل المطبعة
وخارجها ، ولا يتورع عن ضربه بقسوة اذا لاحظ عليه
اهمال أو ملال . على أن « بنيامين » لم يبد برغم ذلك تأففا
او تبرما ، بل مضى قدما فى الطريق التى اختارها لنفسه
ولم يكتف بما لقى من ترقية جزاء مثابرته ودقته وخبرته
فصار يقضى أمسياته فى المطالعة للتزود بما يحتاج اليه
مختلف العلوم والفنون والآداب . وساعده ذكاؤه وطموحه
فلم يمض الا قليل حتى أحس فى نفسه قدرة على الكتابة
الموضوعات التى كانت تنشر فى الصحف الثلاث التى كانت
تصدر فى أمريكا حينذاك ، وفى مقدمتها صحيفة « بريد
انجلترا » التى يصدرها ويشرف على تحريرها أخوه . غير
أنه خشى الا يشجعه أخوه على المضى فى هذا الطريق خشية
أن يلهيه عن الطباعة ، فكتب اول مقال له ولم يوقع عليه
ثم وضعه خفية فى مكتب أخيه ، فلما قرأه هذا أعجب
ونشره فى صحيفته وهو يحسب أنه لكاتب كبير !

رحلات لطلب الرزق

ولم تقف همة الطابع الشاب عند حد اجادة الكتابة
النثرية ، فحاول قرض الشعر أيضا ، وأصاب فى ذلك
نجاحا غير قليل . ثم اتفق أن علم أبوه باتجاهه الى الكتابة
فسارع اليه غاضبا ناصحا له بالعدول عن هذا الاتجاه
وفى الوقت نفسه أخذ أخوه يزداد شدة فى معاملته له ، فلم
يجد بدا من النجاة بنفسه من العناء الذى يقاسيه ، وغادر
المطبعة فى ذات ليلة الى غير رجعة ، اذ ترك المدينة كلها
وتوجه الى « نيويورك » ليبحث عن عمل يعيش منه هناك
لم تطل اقامة « بنيامين » فى نيويورك ، فقد رفضت
مطبعتها الوحيدة الحاقه بعمل فيها فواصل رحلته قاصدا الى

رة فيلادلفيا » .. وكان عليه أن يقطع أكثر الطريق اليها
يكيا ، اذ فرغ ما كان معه من مال قليل . وهكذا لقي من
لطقة والعناء ما لا طاقة به لصبي في مثل سنه ، وقبض
يه غير مرة في الطريق باعتباره خادما هاربا ، واجتمعت
تيه آلام التعب والجوع وخيبة الرجاء .. ثم أتيح له أخيرا
يجد سفينة صغيرة متجهة الى فيلادلفيا ، ورضي بحارتها
تسطحابه معهم في مقابل قيامه بالعمل فيها بقية الرحلة!

جوع .. وجمال

وفي فيلادلفيا ، كانت الصعاب والعقبات التي لقيها
كا صبي الهارب أدهى وأمر ، وقد بقي يذكر يومه الاول فيها
رتى آخر حياته . فقد دخلها وحيدا شريدا مهلهل الثياب ،
يكاد يقوى على المشي من فرط التعب والجوع ، ولم يكن
شلك أكثر من ثلاثة بنسات ، فاشترى بها ثلاثة أرغفة من
ل خباز صادفه ، ثم سار على غير هدى في طرقات المدينة
هو يقضم في شراهة أحد الارغفة الثلاثة بينما الرغيفان
خران تحت ابطه .. وهناك على باب أحد المنازل التي
عليها يومذاك وقعت عيناه الزائغتان على فتاة حسناء
قفت تبتسم وهي في دهشة من منظره ، فلم يزد على أن
بتسم بدوره ، ثم انطلق في سبيله مواصلا التغلب على
وعه بقضم الرغيف ... وبعد سبع سنين على ذلك المشهد
طريف .. شاءت الاقدار الا أن تجمع بين ذلك الفتى
شريد وبين تلك الفتاة الحسناء « ديبورا رير » فاذا هما
زجان متحابان سعيدان ، يتبادلان التقدير والاخلاص

يعمل ويتعلم

اتخذ بنيامين فرانكلين شعارا لنفسه منذ وصل الى
يلادلفيا ، هو أن يعمل ويتعلم .. وكثيرا ما آثر أن يبيت
طاويا ، ليشتري كتابا جديدا يقرؤه بدلا من طعام العشاء!

وما بلغ العشرين من عمـــره حتى بدأ الخطوة الاولى فى
سبيل نجاحه العظيم ، فصار صـــاحب « مجلة فيلادلفيا »
واستطاع أن يجعل لها مكانا بارزا بين الصحف التى كا
تصدر بأمريكا فى ذلك الحين ، بما أدخل على تحريرها
تحسينات ومبتكرات . وسرعان ما اشتد اقبال القراء علي
لما وجدوا فيها من مقالات بليغة تعالج الموضوعات التى تت
بحياتهم ، وتنشر من الانباء ما يثير اهتمامهم ، بجـــا
ما ابتدعته من نشر الاعلانات المختلفة مما عد حدثا جـد

وشجع هذا صاحب المجلة الشاب ، فأخذ يستغل خبـ
بالطباعة والصحافة فى اخراج نشرات وكراسات مطبو
كانت النواة الاولى للكتب المطبوعة فيما بعد .. وفى تـ
النشرات والكراسات كان عشاق الحرية من الامريكيين
عصر الاستعمار يجـدون ما يشفى غليلهم ويشبع رغبـ
ويقوى آمالهم من المقالات الجامعة المعـالجة لمختلف الشئو
السياسية والاجتماعية .. وكانوا الى ذلك يحصلون عـ
هذه النشرات بثمن مقبول

وما كاد يطمئن الى نجـاح مشروعاته فى دار الطبـ
والصحـــافة والنشر ، حتى ترك الاشراف الادارى عليـ
لشريك يثق به ، واكتفى هو بالادارة الفنيـــة ، لكى يقو
بجانب عمله فيها باشباع رغبته فى البحث والدرس وابتك
ما ينفع المواطنين

نواة المكتبات العامة

واستطاع أن يعلم نفسه اللغة الفرنسية ثم الايطاليـــة
والاسبانية واللاتينية .. وقرأ روائع الأدب العالمى ، والم
بجميع العلوم المعروفة فى عصره ، كما أتقن العزف عـ
الكمنجة وغيرها من الآلات الوترية ، وبرع فى لعبة الشطرنج
.. وصار من أساطين المحدثين

وبدأ مبتكراته العامة لخدمة مواطنيه ، فانشأ مع بعض زملا

وبا يتبادلون فيه الكتب والآراء ، اسمه « نادى الجنتو » « الفوطة البيضاء » • وكان المبدأ الذى وضعه لتبادل الكتب بين الاعضاء نواة لانشاء المكتبات العامة التى كانت لا تزال من أهم الوسائل لتثقيف الشعوب !

نظام حديث للبوليس

وأنشأ بعد ذلك اتحادا أهليا لمكافحة الحريق ، وشركة تامين ضده ، واقترح على المسئولين عن حفظ الامن نظاما جديدا كان نواة النظام الحديث للبوليس • ثم أنشأ جمعية لدراسة العلوم ، ودعا الى انشاء مدرسة عالية هى التى صارت فيما بعد « جامعة بنسلفانيا » • كما كانت له اليد الطولى فى انشاء المستشفيات العامة لاول مرة فى العالم

وفى سنة ١٧٣٧ تولى فرانكلين ادارة البريد فى فيلادلفيا، ثم عين مديرا عاما للبريد فى جميع المستعمرات التى كانت تتألف منها أمريكا ، فنقل هذا المرفق الهام من الحالة البدائية التى كان عليها الى العمل طبقا لنظام دقيق جعله أسرع وأنفع ، وفى الوقت نفسه ابتدع فكرة طوابع البريد، ثم نفذها فغطى ايرادها جميع نفقات البريد !

فى الزراعة والصناعة

ويعد فرانكلين فى أوائل رواد البحث العلمى فى الزراعة والصناعة ، وقد نجح بالوسائل العلمية التى استحدثها فى اصلاح قطعة كان يملكها من الارض البور فصارت تنتج أجود الحاصلات ، ووضع بحثا عن حياة النحل ضمنه كثيرا من الملاحظات الدقيقة والبيانات الوافية ، واستطاع أن يستنبط الكهرباء بوسيلة علمية بسيطة لم تزد على طائرة حريرية وحبل من قنب ومفتاح من حديد

فى ميدان السياسة

وكان طبيعيا ان تتجه همة فرانكلين الى ميدان الاصلاح السياسي ، واليه يعزى الفضل الاول فى وضع أول خطة مشتركة لتوحيد صفوف الامريكيين وضمهم فى اتحاد عام، وحينما اشتد الخلاف بينهم وبين انجلترا حول رغبتهم فى التخلص من استعمارها،لم يجدوا من هو أصلح منه للتحدث باسمهم والدفاع عن مطالبهم ، فاوفدوه الى انجلترا لهذا الغرض ، حيث مكث فيها عشر سنين ، واصل خلالها العمل لانجاز مهمته،ثم عاد الى فيلادلفيا،ليشترك معقومه فى الجهاد استخلاصها بالحجج والبراهين ، وعلى أثر عودته عين عضوا فى المؤتمر الوطنى الثانى ، وأسندت اليه مهمة المعاونة فى تنظيم الجيش والبحرية وتدبير المال اللازم لبدء الجهاد ، وكان يومئذ قد بلغ التاسعة والستينمن عمره ، لكنه تقبل هذه المهمة الشاقة بارتياح ، وابدى فى سبيل انجازها همة عالية يحسده عليها أقوى الشبان ، وكان له أكبر الفضل فى حمل جماعة الكويكر على الاكتتاب فى الجهاد !

ولا شك فى أن الاعباء التي ألقيت على كاهله فى تلك السن المتقدمة والظروف العصيبة قد خفت كثيرا بعد أن عين « جورج وشنطون » صديقه الحميم قائدا للجيش ، وكان هذا يصغره بستة وعشرين عاما ، وكل منهما مؤمن بصاحبه ويضع كل ثقته فيه

وحينما ألفت لجنة اعداد الوثيقةالخاصة باعلانالاستقلال اختير فرانكلين لعضويتها ، وكان له نصيب كبير فى تحرير هذه الوثيقة التاريخية الخطيرة ، ووقع عليها معه : توماس جيفرسون ، وجون ادامز ، وروجر شيرمان ، وروبرت لبفنجستون . ثم عرضت على نواب الأمة فوقعوا عليها جميعا ، بعد أن ألهب فرانكلين حماستهم بقوله لهم :

– اسمعوا أيها السادة .. يجب أن يتعلق بعضنا ببعض حتى لا يعلق كل منا على حدة فى حبال المشنقة !

الشقيقان مايو



الاخوان مايو

كان لنجاحهما الباهر فى كثير من الجراحات المبتكرة المعقدة صدى عميق فى نفوس كثيرين ، حتى لقد راجت عن نجاحهما حكايات كثيرة اشبه بالاساطير

أبو الطب الأمريكى

فى سنة ١٨٤٥ ، هبط أمريكا مهاجر شاب ، يختلف كثيرا من حيث الثقافة والهدف عن المهاجرين الذين كانوا يتدفقون عليها من جميع الانحاء فى ذلك الحين ، سعيا وراء العمل والثراء

كان هذا الفتى ـ واسمه « ويليام دبرال مايو » ـ طبيبا انجليزيا ، أتم دراسته ومرانه فى أكبر المستشفيات بلندن وجلاسجو ومانشستر ، واكتسب خبرة ممتازة فى الكيمياء من عمله سنوات مع الكيميائى الكبير « جون والتون » . فلم تكن هجرته الى العالم الجديد للبحث عن عمل ، كما أنها لم تكن عن طمع فى الغنى أو الشهرة ، اذ دل تاريخ حياته فيما بعد على أنه من أشد الناس زهدا فيهما ، وانما هاجر من انجلترا ضيقا وتبرما بازدحامها الذى لا يتفق مع ما فى فطرته من حب العزلة والهدوء ، وسخطا على ماكان يسودها من استعلاء بعض الطبقات على بعض ، الامر الذى لم يكن ينسجم مع تواضعه الجم ورقة طبعه ودماثة خلقه وبغضه الشديد للكبرياء والمتكبرين !

وشاءالقدر أن يستقر المقام بالطبيب الشاب فى الولايات الغربية ، وهى يومئذ لا تعرف من الاطباء غير جماعات من الدجالين الذين لا علم لهم ولا خبرة ، وانما كل همهم أن يغرروا بجماهير المرضى البسطاء لكى يبتزوا أموالهم ، ويمتصوا دماءهم ، معتمدين على ما يقومون به لانفسهم من دعايات كاذبة جوفاء ! . وعلى هذا لم يرض لنفسه أن يكون

زميلا لأمثال هؤلاء الدجالين ، وآثر أن يترك لهم ميـ
الطب حرصا على كرامته التى يعتز بها ، وضنا بالمهنة
يجلها ويقدسها على الهبوط بها الى الدرك الاســفل
يعملون فيه . وقضى زهاء ثلاث سنوات متنقلا بين
أخرى فى مدن تلك الولايات وقراها ، ثم انتهى به
الى مدينـة « لافييت » بولاية « انديانا » .. حيث
مصنعا لحياكة الملابس ، واستطاع أن يحرز نجاحا كبيـ

ومضت خمس سنوات،غلبه الحنين الى الطب فى نهاية
فاذا به يضحى بمصنعه النـــاجح ، لكى يدخل جامعة
« ميسورى » فى سنة ١٨٥٣ حيث حصل منها على درجة
طبية جديدة ، ثم يرحل ومعه زوجته الى مقاطعة «مينسو
فى الجانب الاقصى من الحدود الامريكية ، وهناك قضى
أشهر فى الطواف بالقرى البدائية المنعزلة والقفار
بها ، لتفقد أحوال القبائل الهندية القاطنة هناك ، ودر
عاداتها وتقاليدها وكل شيء فى حياتها

وحينما نشبت الحرب الاهلية بعد ذلك ، عين الدكتـ
مايو جراحا فى الجيش الاتحادى ، وكان من نصيبه أن
طول فترة هذه الحرب بمدينة « روشستر » الصغيرة
حببت اليه الحيـــاة بها بعد انتهاء الحرب ، فاعتزم الا
الدائمة بها ، وأنشأ لنفسه عيادة فى منزل صغير بالشا
الثالث فيها ، كما سكن وزوجته فى المنزل نفسه ، و
من احدى غرف المنزل معملا يجرى فيه ما يعن له من تجا
وأبحاث

نجح الدكتور مايو نجاحا عظيما فى عيادته الخاصـــ
وكان لمعرفته السابقة بأهل المنطقة وحسن معاملته ا
أثر كبير فى هذا النجاح . على أن الجانب الاكبر من نجا
يرجع ولا شك الى عاملين مهمين آخرين : أحدهما اخلاص
وتفانيه فى حب مهنته ، والآخر حبـه لأهل تلك المنط

برغبته الصادقة القوية في خدمتهم بخاصة وخدمة الامريكيين مواطنيه الجدد بعامة !
وهكذا قسم الطبيب الشاب وقته بين العمل فى عيادته ومعمله وبين المشاركة في النشاط الاجتماعي والسياسي في المنطقة والولاية كلها ، ولم يكف مع هذا كله عن الاستزادة من معلوماته ، بالمطالعة المنظمة، والقيام برحلات استطلاعية في المناطق المجاورة ، وفى الولايات الشرقية للمدارسة الباحثة مع كبار الاطباء فيها
ولم يمض قليل حتى لمع اسمه وبرزت شخصيته وصار موضع الحب والاجلال من الجميع ، ولاسيما بعد أن تعددت الخدمات العامة التى قدمها للأهلين ، كابتكاره نظاما للصحة العامة فى المدينة ، وسعيه فى سبيل انشاء مكتبة عامة بها ، وفى سبيل توسيع مدرستها، فضلا عن دعوته كثيرين من العلماء والاطباء الذين عرفهم في الولايات الشرقية وغيرها الى زيارة المدينة والقاء محاضرات عامة بها
وقد رزق بولدين : أولهما « وليم » الذى ولد فى سنة ١٨٦١ ، والثاني « شارلى » الذى ولد فى سنة ١٨٦٥ ، وكان طبيعيا أن نشأ ولداه على حب مهنة الطب ، والرغبة فى أن يكونا طبيبين مثله · ولم يدخر هو جهدا فى تقوية هذه الرغبة وتنميتها ، فكان يصطحبهما منذ طفولتهما الى عيادته ، والى جولاته فى المزارع القريبة حيث يشاهدان فى اغتباط ما يقوم به من الفحص والعلاج · وما كادا يشبان عن الطوق حتى كان كل منهما يعرف الكثير من أسرار المهنة، ويعرف جميع الاجهزة والادوات التى يستعملها أبوه فى العيادة والمعمل · لكثرة ما شاهداها ، وساعدا والدهما فى استعماله اياها !
وواصل الطبيب العالم جهوده الطيبة فى سبيل اعداد ولديه ومعاونتهما على التفوق فى دراساتهما الجامعية والشخصية ، وما تخرجا فى سنة ١٨٨٣ حتى عادا الى

« روشستر » حيث استأنفا العمل مع والدهما،لا مساع
في هـــذه المرة بل طبيبين أصيلين ، وسرعان ما أحرزا
الأهلين

كانت سنة ١٨٨٣ بداية تحول في تاريخ آل مايو ،
هذه السنة التى بدأ فيها العمل المشترك للاطباء الثلا
الوالد وولديه ، هبت عاصفة شـــديدة في اليوم الـ
والعشرين من شهر اغسطس ، اتت فى دقائق معد
على جانب كبير من المدينة الصغيرة التى يعملون فيها ،
ضحايا هذه الكارثة كثيرين جدا ، فشمر الاطباء الثلاثة
سواعدهم وأخذوا يواصلون العمل لاسعاف الجرحي وعلا
في مستشفى مؤقت اتخذوه لذلك في قاعة للرقص با
المنازل التى تشملها كارثة العاصـــفة الهوجاء • وواج
مشكلة كبرى هى مشـــكلة تمريض ذلك العدد الكبير
المصـــابين • ولكنهم سرعان ما تغلبوا على هذه المشـكلة
استطاعوا اقناع رئيسة دير القديس فرنسيس ، القائم
مقربة من المدينة ، بأن تمدهم بطائفة من راهبات الدير
ليقمن بمهمة التمريض !

ومضت أشهر ، والعمل يجرى بنجاح فى المســـتش
المؤقت الذى أقامه آل مايو،ولم يكن اعجاب الناس بالتضا
التام بين الاطباء الثلاثة البروتستانيين وبين أولئك المرضـ
من الراهبات الكاثوليكيات باقل من اعجابهم بالهمة الصا
التى بذلت فى المستشفى وكان لها كل الفضل فى تخفيف
آثار النكبة الفادحـــة التى نزلت بالمنطقة ، من جراء
العاصفة القاصفة !

وعرضت رئيسة الدير على آل مايو استعدادها للاشترا
معهم فى انشاء مستشفى دائم فى المدينة باسم القديس
ماري ، ليعالجوا فيه المرضى والجرحى من أهل المنطقة جمي
بلا تفريق بين أديانهم وألوانهم وحالاتهم المالية،وتم الاتفا
على ذلك أخيرا ، واستغرق اعداد المستشفى الجديد سنوا

عرب الاطباء الثلاثة خلالها القيام برحلات لزيارة المعاهد والمستشفيات الكبيرة في الولايات الشرقية، للبحث والدرس واقتباس أحدث النظم وأحسنها

وبدأ العمل فى مستشفى القديسة مارى سنة ١٨٨٩ ، وأقبل المرضى عليه من أنحاء المنطقة وما يجاورها، ولم تمض سنتان حتى كان اسم « مايو » يتردد في جميع انحاء امريكا مشفوعا بأكبر الاجلال والاعجاب ، وبدأ الاطباء أنفسهم في الولايات الاخرى يبعثون الى المستشفى بالمرضى الذين يحارون في تشخيص أمراضهم وعلاجها ، وهناك يجد هؤلاء المرضى من العناية والرعاية ، ما يلهج ألسنتهم بالدعاية الضخمة للمستشفى والقائمين بالعمل فيه !

□

واخيرا .. رأى الدكتور وليام مايو أن ولديه النجيبين الشابين صارا جديرين بأن يستقلا بادارة المستشفى الناجح الكبير ، فتركه لهما ، وتفرغ للمهام السياسية والاجتماعية التى اضطلع بها بوصفه عضوا فى مجلس الشيوخ بالولاية، وبقى كذلك حتى اعتزل العمل في المجلس فى الرابعة والسبعين من عمره

وكان أول ما صنعه الطبيبان الشقيقان بعد استقلالهما بادارة المستشفى ، أن قررا تزويده بكل ما من شأنه أن يدعمه ويوسع نطاق الخدمات التى يؤديها ، وعلى هذا الأساس المتين أخذا يضمان اليه كل نابه كفء من العلماء والاطباء والكيميائيين ، ويزودانه بكل مستحدث من الاجهزة والآلات والادوات !

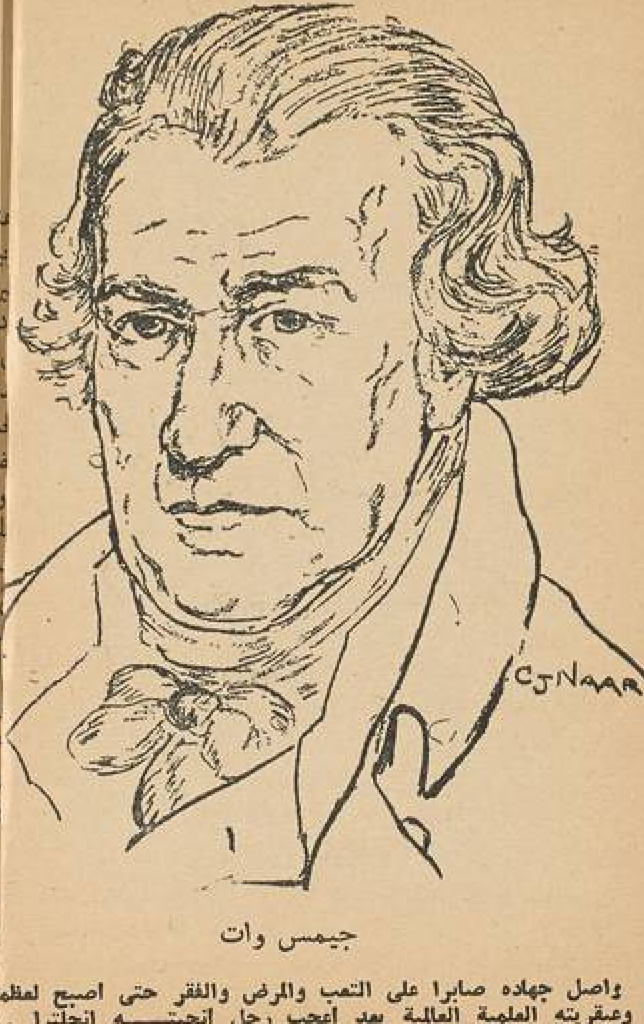
وحرصا في الوقت نفسه على معاملة جميع المعاونين لهما أحسن المعاملة ، بل حرصا على أن يكون عمل هؤلاء فى المستشفى على أساس أنهم شركاء . وكان الدكتور هنرى

بالمر فى مقدمة العلماء الاكفاء الذين انضموا الى المست
فما لبث قليلا حتى جعل من معامله أكبر مؤسسات
من نوعها ، وصار فى استطاعتها أن تقدم مساعدات
لا يمكن تقدير قيمتها لعدد كبير من الاطباء والباحثين
مر الوقت تحول المستشفى من بضع غرف فى الطابق
من بناء المعهد الماسونى بالمدينة ، الى بناء مجمع ضخم
مساحة كبيرة جدا ، والى جواره عشرات من الملحقات ال
على أحدث طراز ، بين مصحات لايواء المرضى ، وأخرى ل
بالناقهين ، ومؤسسات للاستشفاء ، وفنادق مختلفة
من شاء من النزلاء

لم يكن النجاح العظيم الذى أحرزه الشقيقان مايو
بهما عن مواصلة الدرس والبحث ، وقد زودهما ذلك بأ
كثيرين من العلماء والاطباء فى مختلف أنحاء أمريكا
بقيت صلاتهما وثيقة بكبار الاطباء الذين عرفوهما بالو
الشرقية فى مستهل حياتهما العملية ، كالدكتور براي
فيلادلفيا ، والدكتور هلستيد طبيب مؤسسة جون هوبك
وغيرهما من كبار الاطباء فى نيويورك وبوسطن

وكان لنجاحهما الباهر فى كثير من الجراحات الم
المعقدة صدى عميق فى نفوس الامريكيين جميعا ، حتى
راجت عن نجاحهما هذا حكايات كثيرة أشبه بالاسا
وحدث يوما أن أرسل الدكتور « ول » الى صحيفة طبي
احدى الولايات الشرقية بحثا ضمنه طريقة ابتكرها ل
المرارة بالجراحة ، وكانت هذه الجراحة من التعقيد بحيث
يصدق نجاحها رئيس تحرير الصحيفة ، فلم ينشر ال
الخاص بها ، وأعاده الى صاحبه بالبريد !

جیمس وات



جيمس وات

واصل جهاده صابرا على التعب والمرض والفقر حتى اصبح لعظمته وعبقريته العلمية العالية يعد اعجب رجل انجبتـــه انجلترا ..

مخترع أول آلة بخارية

ناك فى مدينة « جرينوك » الصغيرة باسكتلندة ، ولد
يمس وات » فى ١٩ يناير سنة ١٧٣٦ ، وكان والداه
يران يختصانه بمزيد من حنانهما وعطفهما ، لأنه اضعف
دهما جسما ، وارقهم طبعا ، واوفرهم ذكاء . وحينما
ضعف صحته دون الحاقه بالمدرسة كاخوته ، تكفلت
ته بتعليمه فى المنزل، فتلقى عليها مبادىء القراءة والكتابة
ساب ، ووجد منها خير تشجيع على ممارسة هوايتيه
فلتين وهما: الرسم ، واصلاح الآلات والأدوات المنزلية !
ومنذ السادسة من عمره، بدا شغفه الشديد بكل ما يتصل
لم والمعرفة ، فكان يمضى الساعات الطوال كل يوم فى تأمل
كال الهندسية المختلفة ، محاولا رسمها بالطباشير الملون
جدار الموقد بالمنزل ، او تكوينها بواسطة القطع الخشبية
غيرة . كما كان يطيل التامل فى « غلاية الشاى » ومراقبة
البخار المتصاعد منها فى غطائها ، او فى ملعقة او نحوها ،
يبا من ذلك البخار . وفى الوقت نفسه كان ولوعا بقراءة
صص الخيالية والاستماع لها ، وروايتها لاخوته واترابه
يقة مشوقة جذابة ، تدل على موهبة ممتازة فى سعة
يال وقوة الذاكرة وعذوبة الحديث !

طالب ممتاز

ولم يكن عجيبا ان يبرز تفوقه على اقرانه الذين يتعلمون
المدرسة، وما بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى كانت ذاكرته
جيبة قد وعت ما قراه فى عشرات من الكتب العلمية

المختلفة ، وفى مقدمتها كتاب فى فلسفة الطبيعة لم يكن
فهمه من الكبار الا قليلون !.. وكان حريصا على
ما يتعلمه ، فأخذ لنفسه مصنعا خاصا بالمنزل، فصنع
ادواته وآلاته بنفسه ، ومن بينها آلة كهربائية كان يحب
ان يداعب اصدقاءه الصغار بصدماتها، كما صنع آلات
لرفع الاثقال ، ومضخات ، واصلح كثيرا من الآلات والا
المستعملة فى السفن ، وحصل على معلومات فلكية

يعمل ليعيش

رأى « جيمس وات » حين بلغ الثامنة عشرة من
ان رقة حال اسرته توجب عليه الا يجشمها عناء اعالته
فسافر الى «جلاسجو» ليتعلم هناك صناعة الآلات الريا
ووصل الى تلك المدينة وهو لا يملك غير ملابسه التى
وبعض ادوات النجارة التى حملها معه . وكان
شديدا حين اتيح له الحصول على عمل يقوم باوده
مصنع صغير لاصلاح شباك الصيد والقيثارات والص
وما اليها !

وبعد ايام ، لقيه فى جلاسجو قائد بحرى سابق
صديقا لابويه ، فأشار عليه بالسفر الى لندن للبحث عن
اليق به واكبر اجرا ، فسارع الى العمل بهذه المشهو
ومكث فى العاصمة البريطانية اياما شقية بائسة ، ثم
أخيرا الى الالتحاق بورشة ميكانيكية يواصل الكدح فيها
الصباح حتى العشاء

وما انتهت تلك السنة حتى كان « جيمس وات »
حذق الميكانيكا وبرع فيها ، فعاد الى جلاسجو معتزما ا
مصنع لنفسه بها، ولكن نقابة الصناع فى المدينة لم ترخص
فى انشاء المصنع المطلوب ، بحجة أنه لم يمض المدة
للتعلم والتدرب !.. فكاد اليأس يستولى عليه ، ثم ر
قلب أستاذ فى الجامعة فافرد له حجرة بها يمارس فيه

ناعته المحبة ، ويجرى تجاربه لحسابه الخاص !

وصنع « جيمس وات » آلات كثيرة ، لها مزايا لا يستهان ، غير ان الاقبال عليها لم يكن كبيرا ، فاضطر لكى يعيش التحول عن صنع تلك الآلات الميكانيكية الى صنع الآلات وسيقية واصلاحها،وفى سبيل ذلك درس نظريات الموسيقا لصناعة آلاتها المختلفة حتى اتقنها بعد اشهر معدودة ، وفق الى صنع ارغن مبتكر نال كل الاعجاب ممن شاهدوه جربوه !

دراسته لقوة البخار ..

وفى الثامنة والعشرين من عمره عرض عليه معمل الجامعة يقوم باصلاح مضخة بخارية لامتصاص المياه من مناجم فحم ، هى نوع من الآلة الهوائية التى اخترعها « توماس وكومن » . فاتيحت له بذلك فرصة ثمينة لدراسة علمية لية دقيقة ، وبدا يفكر فى اختراع آلة تدور بقوة البخار !. فى هذه السنة نفسها تزوج بالآنسة « مرجريت ميللر » وجد من اخلاصها له واعجابها بعبقريته خير مشجع له على ضى فى تنفيذ ذلك الاختراع !

قضى « جيمس وات » بضعة اشهر يواصل العمل ليل نهار فى سبيل اختراع تلك الآلة الجديدة

وكانت العقبات التى تعترض سبيله كثيرة ، وفى مقدمتها فقره وقلة ما لديه من وسائل وادوات لازمة لاجراء تجاربه المتعددة . وبرغم ذلك كله لم يجد الياس الى نفسه سبيلا ، اخذ يستخدم الزجاجات العادية لحفظ البخار ، ويستخدم لنقله انابيب القصب وما اليها ، ثم استاجر حجرة اخرى شرع فى صنع الآلة المنشودة طبقا للنموذج الذى ابتكره

وفيما هو منهمك فى العمل ، فوجىء بعقبة جديدة ، هى موت مساعده الاول ، فى وقت شدة الحاجة اليه . وكانت الديون قد تراكمت عليه لانعدام كل انتاج آخر فى مصنعه ،

وساءت حال اسرته الى حد كبير .. على انه تحامل على
نفســه وواصل العمل بهمة لا تعرف الكلل حتى انتهى من
صنع الآلة .. ولكنه ما كاد يشرع فى تجربتها حتى انهار
صروح آماله كلها ، واســفرت التجربة عن فشل تام
لا لنقص فى الفكرة التى بنى عليها اختراعه الخطير ، و
لضعف الآلات والأدوات التى استعملها فى اخراجه مضطر

كاد اليأس يقعده

وكاد اليأس يغلبه ازاء تلك الصدمة القاسية،ولكن زوجته
الوفية عرفت كيف تعيده سيرته الاولى من الهمة والطموح
والأمل ، ولم يمض قليل حتى قبل الدكتور «جون رويك»
مؤسس مصانع حديد «كارون» ان يمد يد المساعدة للمخترع
الشــاب الفقير ، فتولى تســديد ديونه ، وكانت قد بلغت
خمســة آلاف دولار ، واشار عليه بالسفر الى لندن للحصول
على براءة بحق اختراع الآلة الجديدة ، فحصل على هذه
البراءة بعد جهد جهيد ، ثم عاد الى جلاسجو حيث شرع
فى صنع الآلة من جديد

ومضت سنتان ، بذل خلالهما « جيمس وات » كل ما في
وسعه من قوة وحيلة لانجاز اختراعه ، وكانت العقبات التى
اعترضت طريقه فى هذه المرة اشد وانكى ، فالمستر رويك
غرق فى الديون فلم يستطع الاستمرار فى مساعدته،وزوجته
الحبيبة الوفية توفيت فجاة تاركة له ثلاثة اولاد لا معين له
سواه ، لكنه مع هذا استمر فى جهاده ، صابرا على التعب
والمرض والفقر ، الى ان انتهى من صنع الآلة سنة ١٧٧١ .
ثم كانت الصدمة الكبرى حين أسفرت تجربتها عن الفشل
ايضا ، نتيجة لرداءة اسطوانتها ، ولان القطع التى استطاع
الحصول عليها لصنعها كان ينفذ منها الهواء والبخار ، و
يفد فى علاجها سد خروقها بالفلين والخرق المشبعة بالزيت
وكان أحيانا لا يجد حتى هذه الخرق فيضطر الى سد تلك

محروق بقطع ينتزعها من قبعته !

وكانت النتيجة لهذا الفشل الجديد ان عاد جيمس وات وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره الى البحث عن عمل آخر يعول به نفسه واسرته ، فعمل مهندسا مدنيا

نجاحه فى اختراع الآلة البخارية

وكان مستر « رويبك » ـ شريك « وات » السابق ـ قد حدث عنه صديقا له من كبار اقطاب الصناعة فى برمنجهام ، هو المستر « متى بولتن motea Boulton » صاحب أحدى مؤسسات الكبرى لصناعة الساعات والأدوات المعدنية والزهريات المقلدة . وكان هذا بدوره يدرس آلات البخار ويؤمن بمستقبلها الباهر ، فأخذ يفاوض « وات » للاتفاق معه على تنفيذ مشروعه فى مؤسسته ، على أن يعطيه ثلث ما يغله صنعها وبيعها من الأرباح

وكان طبيعيا أن وافق « وات » على هذا العرض ، ولكن مستر « بولتن » بقى ثلاث سنوات بعد ذلك مترددا فى التنفيذ ، فعاش « وات » خلال هذه السنوات معلقا بين اليأس والرجاء ! ولقى من المتاعب ما كان له أكبر الأثر فى ازدياد ضعف صحته ، على انه سرعان ما تناسى ذلك كله حين بدا تنفيذ الاتفاق ، وتم صنع الآلة الجديدة واسفرت تجربتها فى هذه المرة عن نجاح باهر ؟ ثم بدات الطلبات تنهال على المؤسسة من جميع الأنحاء لشراء الآلة البخارية الجديدة !

وفى ذلك الحين ، تزوج « وات » للمرة الثانية ، وكانت زوجته الجديدة « انا ماك جريجور » ربة بيت ممتازة ، فاستطاعت أن تكفل له ولأولاده عيشة راضية

وازداد مستر « بولتن » تقديرا لشريكه مخترع الآلة البخارية الاولى واعجابا بعبقريته وخلقه ، حين رفض « وات » ما عرضته عليه الحكومة الروسية أن يعمل لحسابها فى مقابل خمسة الاف دولار ، وكان مثل هذا المبلغ يعد ثروة

كبيرة فى ذلك الحين !

بيد ان كثيرا من المؤسسات والمصانع بدات تنتج آلا
بخارية رخيصة ، تغمر بها الأسواق ، مقلدة آلتهما المبتكر
وعبثا حاول الشريكان منع ذلك التقليد !

وفى خلال هذه المتاعب والمضايقات ، كان « وات » يقض
الساعات الطوال كل يوم فى معمله بالمؤسسة عاكفا على تجار
وابحاثه لاخراج مخترعات جديدة أخرى . وقد وفق فى ذلا
الوقت الى صنع آلة للطباعة ولكن الاقبال عليها لم يكن كبير
لما شاع يومئذ من ان استعمالها قد يؤدى الى انتشار التزو

آلة لطحن الدقيق

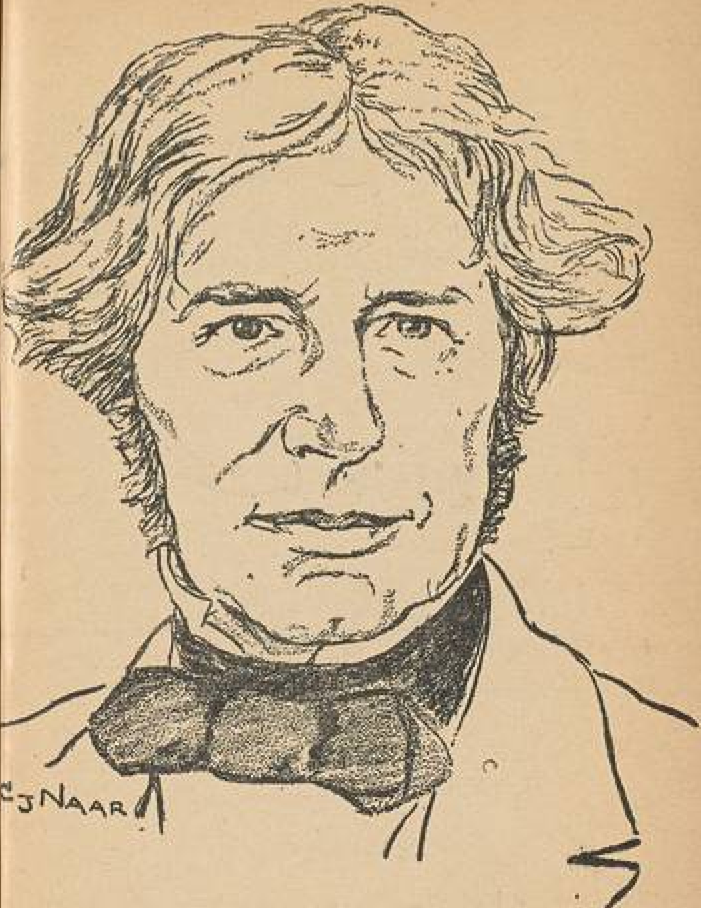
وفى ذلك الوقت ايضا ، اخذ « بولتن » يلح عليه فى صـ
آلة بخارية لطحن الدقيق ، وقد تم صنع هذه الآلة على
« وليام ماردوك » رئيس عمال المؤسسة ، وكان مختر
ذا مواهب عظيمة ، نشر فوائد الاضاءة بالغاز ، وصنع أو
نموذج للقاطرة ، وابتكر استعمال جلد السمك لصنع الفرا
بدلا من الباغة . وقد حصل الشريكان « بولتن » و « وات
على حق انتاج هذه الآلة الجديدة ، وكلفهما صنعها ما يزي
على مائتى الف دولار ، وكان رواجها عظيما بعد ان جاهد
فى سبيل ذلك اعظم الجهاد لتذليل العقبات

وبعد ذلك بقليل ، اخرج « وات » اختراعين جديدين كا
لهما أكبر الأثر فى تقدم الصناعات وهما : جهاز الحرك
المتوازية « Parallel motion » وجهاز التحكم فى سرعة الآلة

وفى سنة ١٨٠٠ ، اعتزل « وات » عمله فى المؤسسة
وحول اسهمه فيها الى ولديه: « جريجورى » . و « جيمس
ثم اقام بمنزل شاده فى « هينفيلد » على مقربة من برمنجها

وفى سنة ١٨١٩ ، توفى « جيمس وات » مخترع اول آلة
بخارية عن ثلاثة وثمانين عاما قضاها فى جهاد متواصل
لخدمة العلم والعالم

میشیل فارادای



ميشيل فاراداى

اضطر بعد عامين من التحاقه بالمدرسة الى مغادرتها للبحث عن عمل يكسب منه ما يقتات به ، ولكن ذلك لم يحل دون ان يصبح من كبار العلماء

موزع الصحف الذى صار أعظم عالم !

كان مولده مبعث حزن وشقاء وياس لاسرته كلها ، ففى تلك الحين ، سنة ١٧٩١ ، لم تكن حرفة الحدادة التى يكد ابوه طول يومه فى ممارستها تدر عليه ما يكفى الأسرة حاجاتها الضرورية ، حتى انها اضطرت الى مغادرة مسكنها المتواضع لعجزها عن دفع اجره الزهيد ، واستقرت فى « حظيرة » مهجورة بجانب أحد الاسطبلات !

وكثيرا ما تعرض واخوته للموت تاثرا بالبرد القارس الذى ليس لديهم ما يدفعونه به ، بل كثيرا ما تعرضوا للموت جوعا ، لعودة والدهم من عمله خالى الوفاض ، او برغيف واحد من الخبز اليابس الرخيص ، يقسم على افراد الأسرة

ولما بلغ السادسة من عمره ، الحقه والده بمدرسة اولية مجانية تعلم تلاميذها مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، وقد اظهر الصبى ميلا شديدا الى التعلم ، واستطاع ان يظل متفوقا على اقرانه فى خلال السنتين اللتين قضاهما بتلك المدرسة ، ولكنه اضطر بعدهما الى ترك الدراسة والاكتفاء بتحصيل ذلك القدر الضئيل من المعرفة ، لكى يبحث لنفسه عن عمل يكسب منه ما يقتات به

موزع للصحف

وكان العمل الأول الذى وفق الصبى اليه ان عمل لدى بائع للكتب والصحف فى لندن ، فينهض مع فجر كل يوم ليحمل على كاهله الواهن حزمة ثقيلة من الصحف والكتب ،

ثم يمضي بها من شارع الى شارع وسط ضباب لا يكاد يتبين طريقه فيه ، لكى يطوف بالمنازل تاركا صحيفة فى احد المساكن وكتابا فى مسكن آخر .. وهكذا الى ان يتم توزيع كل حمله الثقيل فى نحو ساعتين ، ثم يعود فيجمع ما وزع صحيفة صحيفة ، وكتابا كتابا ، مع تحصيل الأجر المقرر لقراءتها ، وهو بنس واحد عن كل نسخة ، واخيرا ينتهى به الطواف الى المكتب الذى يعمل فيه ، فيسلم صاحبه صحفه وكتبه والبنسات التى قرئت بها ، ويسلمه هذا اجره الزهيد

مجلد كتب

امضى ميشيل عاما كاملا فى ذلك العمل المرهق الذى لا يطيقه صبى مثله لم يبلغ العاشرة من عمره

واعجب صاحب العمل بهمة موظفه الصغير وصبره الجميل ، وبما تبين له من امانته ووداعته وذكائه ، فاعفاه من ذلك العمل المجهد الذى لا يلائم سنه وطبعه ، واخذ على عاتقه تعليمه صنعة تجليد الكتب ، ليتيح له باحترافها بعد ذلك عملا اقل اجهادا واوفر اجرا

وفى اسابيع معدودة ، الم الصبى الذكى بدقائق حرفته الجديدة ، واخذ فى ممارستها بنشاط وخبرة وحرص على السرعة والاتقان . وكان لزيادة اجره اثر محمود فى تحسن صحته وحالة اسرته ، مما ادخل السرور على قلبه . ولكن سروره كان اشد ، لان عمله الجديد هيا له فرصة ثمينة طالما راودت خياله وتراءت له فى احلامه ، وتلك انه اصبح يجد متسعا من الوقت لكى يقرا ما يحلو له من الكتب والصحف ، ويرضى بذلك نزعته وميله الفطرى الى الاطلاع

كانت علوم الطبيعة ، وما يتعلق منها بالكهرباء خاصة ، اشد ما استهوى قلب الصبى المحب للمعرفة واجتذب مشاعره وآماله . وبدا ولوعه بهذا النوع من العلم يشتد بعد ان قرا كتاب « مناقشات العلوم » للأستاذ « مارست

« واطلع على بحث شامل عن الكهرباء فى دائرة المعارف البريطانية . وفيما هو راجع الى مسكنه بعد يوم حافل بالعمل الشاق ، لفت نظره اعلان عن مجموعة من المحاضرات عن التاريخ الطبيعي يلقيها الاستاذ « فتمان » . وحز فى نفسه ان الاستماع لكل من هذه المحاضرات حدد له رسم قدره نصف جنيه، وافضى بهذا الأمر الذى اهمه واحزنه الى شقيقه « روبرت » الذى يكبره بثلاث سنوات ويعمل حدادا كابيه ، فرثى هذا لحالته ، ولم يسعه الا معاونته على تحقيق هذه الرغبة ، كما سمح له صاحب المحل الذى يعمل فيه بالتغيب عنه فى مواعيدها ، وتطوع احد زملائه لاعطائه دروسا فى الرسم لكى يستطيع ان يوضح بالرسوم ما يسجله من مذكرات عن تلك المحاضرات !

وبعد قليل ، التقى به فى محل تجليد الكتب العالم المشهور « سير همفرى » الاستاذ بالمعهد الملكى ، فأعجب به الى حد كبير ، وسهل له دخول المعهد للاستماع لمحاضرات اربع القاها هناك . وما كاد ينتهى من القائها حتى تلقى من « ميشيل » رسالة رقيقة يشكر له فيها فضل تيسير استماعه لتلك المحاضرات، ويشيد فى تفصيل دقيق بما تضمنته من نظريات وملاحظات، ثم يرجو ان يجد من عطف العالم الكبير ما يساعده على الالتحاق باى عمل فى المعهد ، ليسهل عليه التزود بما يحتاج اليه من الدروس !

وكان « سير همفرى » من العصاميين الذين شقوا طريقهم فى الحياة بانفسهم ، فرق قلبه للصبى الفقير الطموح ، وكتب اليه يعده بانه سيعمل على اجابة طلبه بعد عودته من رحلة اعتزم القيام بها ، وينصح له بمواصلة الدرس والبحث ،

شعاع من الأمل ..

كان الخطاب الذى تلقاه « ميشيل » من سير « همفرى » خير مشجع له على المضى فى الطريق العلمى الذى اختطه

لنفسه ، فبدا يخصص الجانب الاكبر من وقته للبح
والاطلاع واجراء تجارب اولية فى الكهرباء . على ان الظرو
التى تلت ذلك كانت من القسوة بحيث قوضت كل ما شيد

لقد مات ابوه فى تلك الفترة ، فصار عليه ان يخلفه فى اعا
والدته واخوته الصغار ، وانتقل الى العمل فى محل لتجلي
الكتب يملكه فرنسى مريض الاعصاب ، اخذ يثقل عليه علاو
على العمل بالوان سخيفة من التعليمات والملاحظات ، ويشت
فى لومه وتعنيفه لأتفه الاسباب

وفى ذات يوم ، فوجىء الصبى بشعاع من الامل شق ظلم
الياس المحيطة به ، ولم يكن ذلك الشعاع سوى بطاقة من
سير همفرى يدعوه فيها الى موافاته فى صباح اليوم التال
بمكتبه فى المعهد . وامضى ليلته لم يغمض له جفن ، وكانت
نتيجة المقابلة فوق كل ما تصور ، فقد بشره العالم الكبير بان
سيعينه « مساعد محضر » فى المعمل التابع للمعهد !

ولم يكن « سير همفرى » فى حاجة الى وقت طويل
لكشف ما للمساعد الصغير من مواهب ومزايا ، وهكذا
سرعان ما اولاه ثقته ، واخذ يعهد اليه فى اجراء بعض التجارب
الدقيقة التى يقوم هو بها فى المعمل

رحلة علمية

وما هى الا شهور معدودة ، حتى اتيحت لميشيل فاراداى فرصة ثمينة لم يكن يحلم بها، وكان لها اكبر الاثر فى مستقبله وذلك ان سير همفرى اصطحبه فى رحلته التالية الى مختلف انحاء اوربا ، وكانت رحلة طويلة استغرقت زهاء سنة ونصف سنة، طاف خلالها مع استاذه الكبير بمختلف المعاهد والمعامل والمؤسسات العلمية بالقارة ، وشهد مئات من التجارب واستطاع ان يقوم فى المعمل بتجارب خاصة بابحاثه المستقلة، كما اتيح له ان يلقى سلسلة من المحاضرات عن اكتشافاته الخاصة ، استمع لها كثيرون من المثقفين

اول بحوثه العلمية

وفى السنة نفسها نشرت له مجلة « كوارترلى جورنال » العلمية اول ابحاثه عن « الجير الكاوى » ثم ستة ابحاث يلخص فيها تجاربه فى الغازات والمعادن . كما القى سلسلة اخرى من المحاضرات ، عن اكتشافاته العلمية فى معمل المعهد ولم تكتمل السنة التالية حتى كان قد نشر سبعة وثلاثين بحثا جديدا ، واخرج كتابا عن « خلط الصلب » . وقدم للمعهد بحثا خطيرا عن مركبين جديدين

دخلت حياة « ميشيل فاراداى » فى طور آخر بعد تلك الفترة التى توالت فيها مظاهر نجاحه العلمى ، وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره أو نحوها ، وتعرف الى فتاة مهذبة جميلة بادلها الاعجاب والحب ، وكادت تجعل منه شاعرا يدبج قصائد الغزل والتشبيب ، لولا ان كلل ذلك الحب العنيف العميق المتبادل بالزواج العاجل السعيد ، فعاد الزوج الشاب الى تجاربه وابحاثه العلمية

وفى خلال السنين العشرين التى تلت ذلك ،اصبح « ميشيل فارادى » الذى بدا حياته عاملا فقيرا لدى بائع صحف اعظم عالم فى عصره ، اذ انتخب زميلا فى الجمعية الملكية ، ودعاه معهد لندن الى القاء اثنتى عشرة محاضرة عن اكتشافاته فى الكيمياء ، كما انه القى ست محاضرات فى الجمعية الملكية عن « الفلسفة الكيميائية » ونشر ستة ابحاث عن «المغناطيسية» ثم بدا تنظيم محاضرات علمية مبسطة يلقيها باسلوب جذاب على الأطفال ، وصار الجميع يحرصون على الاستمتاع بالإستماع لهذه المحاضرات ، من اكبر رجال البلاط الملكى ، الى افقر العمال فى الأحياء الشعبية

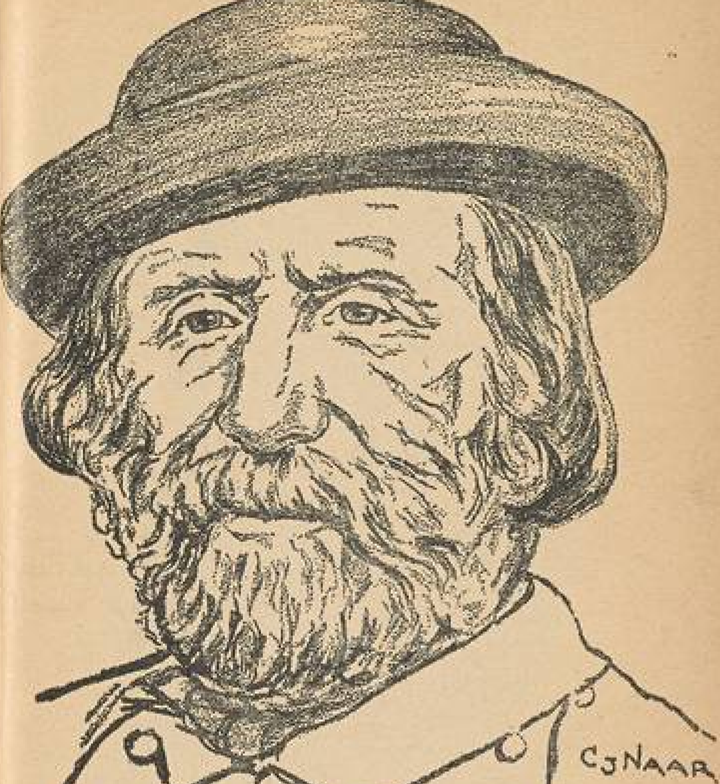
الكشف الخالد ..

وانتج فى اثناء ذلك ١٥٨ بحثا علميا ، وثلاثين مجموعة من التجارب الدقيقة الجديدة فى الكهرباء . ثم بدا ابحاثه ى

« المغناطيسية الكهربائية » الى ان وفق اخيرا الي ذلك
الكشف العظيم الخالد الذى اثبت به ان المغناطيسية تنتج
الكهرباء ، فكان ذلك ايذانا بمولد عصر الآلات الكهربائية
ثم قدم بعد سنوات كشفين آخرين جليلين : اولهما الخاص
بسريان الكهرباء وهو الذى على اساسه بنى نظام التليفون
الحديث ، والآخر هو الخاص باثبات اختلاف انواع الكهرباء

وفى التاسعة والاربعين من عمره ، شعر بتضعضع قواه
بعد تلك الجهود الجبارة التى بذلها ، فغادر لندن ومعه
زوجته الى رحلة فى الخارج للراحة والاستجمام . وطالت
هذه الرحلة الى خمس سنوات ، وقضى اكثرها فى الريف
سعيدا بمشاركة اهله البسطاء حياتهم . وما كاد يعود للندن
بعد ذلك حتى استانف جهاده العلمى فى معمله الحبيب ، فبدا
يبحث علاقة الكهرباء بالضوء ، واجرى فى ذلك تجارب عديدة
لا تحصى ، كللت بنجاحه الخالد فى اكتشاف طريقته لحفظ
شعاع من الضوء ، وعلى هدى هذه الطريقة العظيمة قدر
للعالم ان ينتفع بالمصباح الكهربائى المتوهج ، بعد سنوات
على يد توماس اديسون !

جوسيبى غاريبالدى



جوسيبي غاريبالدي

نشا فقيرا فقد كان ابوه صيادا ايطاليا فقيرا يعول اسرة كبيرة ، ولكنه ما ان بلغ اواسط العمر حتى كان الشعب الايطالي باسره يهتف باسمه ويمجده

الصياد الذى حرر ايطاليا !

كانت أمواج البحر الثائرة أول ما تفتحت عليه عيناه من صور الحياة ، فلا عجب ان كان البحر والثورة هما أبرز الخطوط الرئيسية فى لوحة حياته الخالدة ، التى امتدت ثلاثة أرباع قرن من الزمان ، منذ مولده فى «نيس» بجنوب فرنسا سنة ١٨٠٧ ، حتى أسلم روحه فيها سنة ١٨٨٢ ، وكانت تلك الامواج الثائرة نفسها آخر ما رأته عيناه !

وما أبعد الفرق بين حال « جوسيبى غاريبالدى » فى أخريات أيامه ، حيث كان يتطلع الى تلك الامواج من نافذة منزله الجميل ذى الحديقة المزدهرة الغناء ، وبين حاله فى مطلع حياته وهو يتطلع الى الامواج فى المنطقة نفسها من نافذة الكوخ الوضيع الذى نشأ فيه هو وأخوته مع والدهم الصياد الايطالى الفقير !

هناك فى ذلك الكوخ ، كان الطفل « جوسيبى » كثيرا ما يشعر بالألم الممض من عضات البرد والجوع ورهبة الخوف من المستقبل المظلم المجهول ، ومن الظلام الموحش الذى يمتد فيما وراء الأفق ، وتلك الصخور والممرات الجبلية المحيطة بالكوخ !

ميله للمغامرات

وقد طالما حلق خياله حينذاك فى جو القصص العجيبة والمغامرات المثيرة التى كان البحارة يروونها عن رحلاتهم البعيدة الخطيرة ، وود لو يتاح له أن يكون من أبطال تلك

الرحلات ، وأن تروى عن مغامراته أمثـال تلك القصص والاساطير . ولكن هذه الأمنية كانت أكبر من أن تحققها له ظروفه التعسة التى لازمت نشأته ، فبقى حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، دون أن يستطيع القيام برحلة خاصة به ، يمضى فيها حيث يشاء ، ويغامر كما يشاء . على أن رحلته الخاصة الاولى لم تكن على شىء من التوفيق ، وتحول بعدها الى قراءة الكتب العلمية والرياضية ، والى الاستـزادة من المعرفة باللغات المختلفة التى يعرفها قدماء البحارة ، ثم لم تمض على ذلك ثلاث سنوات حتى خرج من تلك العزلة ليبدأ أولى رحلاته البحرية الحقيقية، بوصفه قائدا مساعدا للسفينة « كورتيزى » التى كانت تتأهب للقيام برحلة تجـارية الى موانىء البحر الاسود !

كان « جوسيبى غاريبالدى » قد شـاهد « روما » فى احدى الرحلات التى صحب والده فيها . وقد راعتـه آثار المدينة القديمة الخالدة فى العاصمة الايطاليـة حينذاك ، واستطاع – وهو الصبى الصغير الفقير – أن يلمس الفارق العظيم بين حياة الايطاليين القوية الغنية فى ذلك المـاضى البعيد السعيد ، وبين حياتهم الراهنة الذليلة البائسة، تحت نير الاستعمار والطغيان !

خطر القراصنة

وشاء القدر أن تتعرض السفينة « كورتيزى فى رحلتها لخطر القراصنة الذين كانوا منتشرين فى تلك المناطق البحرية حينذاك وقد أبلى «جوسيبى» وبحارة السفينة أحسن البلاء فى الدفاع عن أنفسهم وعما تحمله سفينتهم من بضائع ومؤن، ولكن القراصنة عاودوا الهجوم عليها ثلاث مرات فى عرض البحر ، وتمكنوا فى المرة الثالثة من التغلب على المدافعين عنها بعد أن قتلوا وجرحوا كثيرين منهم ، وهكذا نهبوا كل ما كان فيها حتى قلاعها وآلاتها، وتركوا الباقين من بحارتها

على ظهرها ، مجردين من كل سلاح ، بل مجردين من أى طعام أو شراب أو كساء !

وكان الفتى « جوسيبى غاريبالدى » من هؤلاء المساكين الذين تركوا ليهلكهم البرد والظمأ والجوع ، أو لتبتلعهم الامواج مع سفينتهم المخربة المنهوبة . ولم يكن هناك أى بصيص من الأمل فى نجاتهم من ذلك المصير الرهيب ، لكنهم مع ذلك استمروا يكافحون فى سبيل الحياة ، وكتب لهم أخيرا أن يصلوا بسفينتهم المحطمة الى القسطنطينية حيث أسعفوا بالماء والغذاء والكساء ، ورثى لهم بعض زملائهم من بحارة السفن الراسية بالميناء ، فالحقوهم بالعمل معهم فى تلك السفن ، الى أن تحين الفرصة لعودتهم الى وطنهم سالمين !

على أن « غاريبالدى » لم يستطع مشاركة زملائه فى ذلك الحل لمشكلتهم ، فقد وقع فريسة لمرض شديد ، اضطره الى التخلف فى القسطنطينية ، حيث آواه بعض المهاجرين الايطاليين ، وسهروا على تمريضه وعلاجه ، حتى كتبت له النجاة من ذلك المرض والتحق بالعمل فى سفينة تابعة لملك سردينيا !

ايطاليا الفتاة

أمضى « جوسيبى غاريبالدى » فى عمله البحرى الجديد زهاء خمس سنين ، طاف خلالها بكثير من بقاع العالم ، وواجه كثيرا من العواصف والاخطار . ولكن حب الحياة البحرية بقى مسيطرا على قلبه ، وفى الوقت نفسه كان عقله دائم التفكير فى حال وطنه وما آل اليه من فقر وهوان ، وفيما يمكن أن ينقذ هذا الوطن ويحرره من نير الظلم والطغيان !

وعقد فى ذلك الحين « مؤتمر فينا » . وأخذ المؤتمرون المنتصرون يمعنون فى تقطيع أوصال الوطن الايطالى المغلوب على أمره ، ويقتسمون مناطقه فيما بينهم ، فكانت « لومباردى »

و « فينيسيا » من نصيب التمســا ، وكانت « بارما » و « لوكا » من نصيب مارى لويز ، وضمت صقلية بقسميها الى فرديناند الثانى

وعز على « غاريبالدى » أن يقف مكتوف اليدين ازاء هذه المظالم الفادحة التى نزلت بوطنه الحبيب ، وكان على يقين من أن الموت أو السجن هما نصيب كل ايطالى تحدثه نفسه بالوقوف فى وجوه الطغاة الاقوياء المنتصرين ، أو المجاهرة بمعارضة ذلك التقسيم الذى قرروه فى مؤتمرهم المذكور. لكنه رأى الموت والسجن أحب اليـه من التسليم بذلك التقسيم المهين. ثم هداه بحثه هذا الامر الى المبادرة بالسفر الى «جنوا» حيث اشترك فى العمل مع محام شاب من أهلها هو «جوسيبى مازينى» كان قد أنشأ جمعية باسم « ايطاليا الفتاة » للعمل على انقاذ البلاد وجعلها جمهورية حرة مستقلة

وفيما كان القائدان الشابان يستعدان لبدء التنفيذ ، وشى بهما خائن من أعضـاء الجمعية الى السلطات المحتلة ، فتمكنت من احباط تلك المؤامرة ، واعتقلت كل من كانت لهم صلة بها ثم أرسلتهم الى المشنقة .. ولكن «غاريبالدى» تمكن من النجاة بروحه ، وفر متنكرا فى ثياب ريفيـة عبر ممرات الجبال السويسرية ، ثم تمكن من السفر على احدى السفن الى جنوب أمريكا ، حيث انضم الى مواطنيه المهاجرين فى « ريو دى جانيرو » . ولقى من تقديرهم ومساعدتهم له ما مكنه من شراء سفينة صغيرة أخذ يستغلها فى التجـارة على طول الساحل هناك !

الثورة من أجل الحرية

لم يكن « غاريبالدى » لتشغله غربته عن أهله ومواطنيه الغرباء فى ديارهم، وقد تأصل فى نفسه حب الحرية والثورة فى سبيلها ، حتى لو كانت هـــذه الحرية لشخص آخر أو لوطن غير وطنه. وعلى هذا ماكادت جمهورية «ريو جراندى»

تور على البرازيل لاسترداد حريتها ، حتى اندفع الى التطوع للاشتراك فى هذه الثورة ، وأعد سفينة حربية صغيرة لهذا الغرض ، أطلق عليها اسم « مازيني » زميله في الجهاد ، ودرب على العمل معه فيها نخبة من الثوار المجاهدين . وكللت مغامراتهم الاولى بنصر باهر ، اذ تمكنوا من أسر سفينة معادية كبيرة واستولوا على حمولتها الثمينة من النحاس،ولكن مغامرتهم التالية لم يقدر لها النجاح،وانتهت بوقوعه ورجاله جميعا فى الأسر ، بعد اصابته فى المعركة بجرح بليغ !

وطال أسره شهورا عديدة ، قاسى فيها ألوانا من العذاب الشديد ، لكنه ما كاد يظفر بحريته بفضل مساعى احدى السيدات حتى خف الى « ريو جراندى » ليواصل كفاحه المجيد مع أبنائها الثائرين الاحرار !

وهناك فى تلك المدينة التى اتخذها وطنا ثانيا ، وجد الزوجة التى تليق بمجاهد ثائر حر مثله ، وهى مجاهدة جميلة قوية الشخصية من أسرة عريقة ، كما وجدت فيه هى فارس أحلامها المنشود ، وهكذا كان « غاريبالدى » وزوجته « انيتا » مثلا أعلى للشريكين الوفيين المتعاونين فى الحياة الزوجية ، وفى ميدان الكفاح ضد الطغيان والاستبداد

فى ميدان التحرير

راى غاريبالدى بعد ذلك أن من حق أسرته الصغيرة عليه أن يتيح لها شيئا من الراحة والهدوء ، فانتقل بها الى مدينة «مونتفيديو» حيث اشترى منزلا بسيطا هناك ، وأخذ يعمل فى التدريس . على أنه لم يقطع صلته باخوانه المجاهدين الاحرار أفراد الفرقة الايطالية التى اشتهرت بمغامراتها الجريئة وأعمالها المجيدة فى كفاح التحرير بجنوب أمريكا

ولم يمض على ذلك قليل حتى كانت هذه الفرقة بقيادته قد برزت الى القتال فى ميدان جديد ، هو ميدان النضال

لتحرير جمهورية أورجواى . وسرت أنباء الفرقة مسرى الكهرباء حتى سمع العالم كله بأمرها وأعجب بها، وما كادت الحرب تنتهي بانتصار جمهورية أورجواى حتى سارع شعبها الى تكريم غاريبالدى وفرقته ، وقرر منحه رتبة جنرال ومنح فرقته قطعة كبيرة من الارض . ولكن غاريبالدى رفض في شمم وأباء أن يأخذ اى أجر او مكافاة لقاء جهاده وفرقته وقال لمن الحوا عليه فى قبول تلك الهدية :

– ان قبولها يتنافى مع أول مبادئنا وهو الجهاد فى سبيل الحرية ، ولا شيء غير الحرية !

فى ذلك الحين ، كان غاريبالدى قد بلغ الحادية والاربعين من عمره ، ومضت احدى عشرة سنة على مغادرته وطنه الاول ايطاليا هربا من المشنقة !

وترامت الى سمعه أنباء طريفة سارة ، عن استعداد « شارل البرت » ملك سردينيا لمنح شعبه حرية دستورية تساعده على التحرر من النير النمسوى الثقيل . فأدرك الثائر الطريد أن قد حانت ساعة عودته لوطنه البعيد كي يستأنف العمل لتحريره ، واختار من أفراد فرقته ستة وخمسين رجلا ، أبحر بهم وبأسرته الى « نيس » على سفينة أعدها لهذا الغرض وأطلق عليها اسم « الاسبيرانزا » . اى الأمل ! وكان يرفرف فوق ساريتها علم سرديني صنعته زوجته من ملاءة بيضاء وقميص أحمر وحلة قديمة خضراء .

على أن « شارل البرت » ملك سردينيا ، خشى على عرشه من غاريبالدى ذى الميول الجمهورية المتطرفة ، فرفض تطوعه للجهاد بفرقته فى الكفاح مع شعبه ضد النمسويين

وكانت الصدمة عنيفة قاسية ، ولكن غاريبالدى ورجاله ما لبثوا قليلا حتى وجدوا أمامهم ميدانا أرحب وأكرم لابراز مواهبهم ومزاياهم ، ففى ٢٨ من ابريل سنة ١٨٤٩، أعلنت الجمهورية فى روما نفسها ، وهب شعبها يدافع عن استقلاله وحريته ، فسارع غاريبالدى الى هناك ، وانضم وفرقته

المشهورة الى القوات الشعبية ، للدفاع ضد الجيوش الجرارة التى أرسلها لويس نابليون من فرنسا وامبراطور النمسا لتأييد البابا بيوس التاسع واخماد ثورة الايطاليين

واستمرت الحرب ثلاثة أشهر ، ثبت فيها غاريبالدى وفرقته فى النضال مع شعب روما ثبات الجبال ، وانتقل القتال من شارع الى شارع ، ومن منزل الى منزل ، ولكن المجاهدين الاحرار كانوا أقل عددا وعدة ، وهكذا لم تستطع قوات الجمهورية الشعبية أن تواصل الصمود أمام الجيوش الفرنسية والنمسوية ، فاستسلمت فى النهاية ، ودخل البابا روما مرة أخرى ليستأنف حكم شعبها بقوة الحديد والنار . ولكن غاريبالدى أبى وحده أن يذعن لهذه النهاية الذليلة ، فقرر الانتقال بفرقته وأسرته الى البندقية « فينيسيا » ليستأنف كفاحه فى سبيل تحرير الشعب

وما أقبلت سنة ١٨٥٩ حتى حانت الفرصة التى طالما تمناها « غاريبالدى » .. اذ أعلن نابليون الثالث الحرب على النمسا ، وهب الشعب الايطالى بقيادة السياسى العظيم « كافور » لتحرير نفسه من النير النمسوى الثقيل . وسرعان ما دعاه « كافور » وعينه قائدا للقوات الايطالية الشعبية فى جبال الالب

وحمى وطيس المعارك بين الايطاليين والنمسويين ، ولمع اسم « غاريبالدى » فى جميع الميادين بفضل ما أبداه من ضروب الجرأة والبسالة والخبرة بفنون القتال

ولم تجد النمسا مناصا من الجلاء عن « لومباردى » التى قاد غاريبالدى صفوف المقاتلين من أبنائها الاحرار ، وعلى أثر ذلك سارع على رأس فرقته الى صقلية لتحريرها من حكم الطاغية فرنسيس بن فرديناند الثانى ، وسارع الصقليون جميعا الى الانضواء تحت راية محررهم المحبوب ، وكلل جهاده بالفوز المبين . واصبح الشعب الايطالى كله

يهتف باسمه ويمجده مشيدا ببطولته . ولو انه شاء في ذلك الحين أن يكون دكتاتورا لايطاليا لبايعه الشعب على ذلك بالاجماع ، ولكنه آثر أن يعود الى حياته البسيطة الهادئة في جزيرة « كابريرا » بعد أن حرر صقلية وأسلمها الى رعاية « فيكتور عمانوئيل » ملك ايطاليا في ذلك الحين !

انتصار الحرية

بقي « غاريبالدى » فترة غير قصيرة يترقب أمر الملك بالزحف على روما واعلانها عاصمة للبلاد ، ونفد صبره أخيرا ، فتولى هو نفسه أمر ذلك الزحف ، على رأس ثلاثة آلاف من جنود فرقته المشهورة . وشد ما كانت غضبة الشعب حين تصدى الملك لوقف ذلك الزحف خشية اغضاب فرنسا ، وأرسل قواته الملكية فأحاطت بالفرقة الزاحفة وأسرت قائدها ، بل قائد جهاد التحرير ، ولم يسع الملك ازاء ثورة الشعب الا أن يطلق سراح غاريبالدى من السجن الذي وضع فيه ، فعاد الى حياته بالجزيرة ، ثم زار انجلترا في سنة ١٨٦٤ فقوبل فيها بأبلغ الحفاوة والترحيب . وما كاد يعود من رحلته حتى عاودته فكرة الزحف على روما ، وما لبث أن حاول تنفيذها للمرة الثانية في سنة ١٨٦٧ ، ولكن الحظ خانه في هذه المرة أيضا ، وانتهى الامر بأسره والزج به في السجن من جديد !

وأخيرا ، قدر لأحلام غاريبالدى أن تتحقق فجأة ، فحاقت الهزيمة بجيوش نابليون الثالث في « سيدان » وانسحبت الفرقة الفرنسية من روما ، فدخلها الملك فيكتور عمانوئيل ، دون أية مقاومة ، وأعلنها عاصمة لايطاليا !

وكلاء مجلات دار الهلال

وريا ولبنان	:	شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسي بطريق الملكي المتفرع من شارع بيكو في بيروت (تليفون ٧٨ ـ ١٧) صندوق بريد١٠١٢ ـ او باحدى وكالاتها في الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهي تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)
راق	:	السيد محمود حلمي ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد
لاذقية	:	السيد نخلة سكاف
كة المكرمة	:	السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص.ب٩٧
بحرين والخليج الفارسي	:	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين
رقة	:	السيد محمد علي بو قعيقيص ـ بنغازي ـ ص . ب ١٠٤
برازيل	:	Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brazil.
ساحل الذهب	:	The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.
نيجريا	:	Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.
انجلترا	:	مكتب توزيع المطبوعات العربية Arabic Publications Distribution Bureau 15 Queensthorpe Road, London, S E 26.

هذا الكتاب

سئل اديب كبير : « اى انواع القراءة احب اليك ؟ » . فاجاب : « قراءة تراجم العظماء » وقد صدق هذا الاديب ، فان لكل عظيم حياة تمتاز بالتجارب النافعة ، والمثل العليا ، ويجد فيها القارىء اصدق العبر ، وابلغ الدروس

وقد سبق لكتاب الهلال ان أصدر كتبا عن طائفة من العظماء ، ولكنه فى هذه المرة يقدم بمعاونة مؤسسة فرانكلين «القاهرة ــ نيويورك» كتابا من نوع جديد يختص بالعصاميين العظماء

وقد احتوى هذا الكتاب على عشرين حياة عظيمة : عشرة من الشرق ، وعشرة من الغرب لكل من اصحابها لون خاص من العصامية الأصيلة التى حطمت العقبات . وقد كتب الجزء الاول نخبة من نوابغ الكتاب ، وترجم الجزء الثانى عن « كتاب اولاد فقراء صاروا مشاهير » للسيدة سارة بولتون ، وهى كاتبة اميركية نابغة اختصت بالكتابة عن المشاهير .

واشرف على وضع هذا الكتاب الاديب الكبير والمربى الجليل الاستاذ محمد فريد ابو حديد ، فكان جديرا بموضوعه ، ممتازا باخراجه